الوفود والسفارات
في الجاهلية وعصر الرسول (ص)

د. نبيه عاقل

آ ـ الوفود والسفارات قبل الاسلام :

يقول ابن منظور في « لسان العرب » في باب « سفر » ما نصه : « .. سَفَرْتُ بين القوم أَسفِر سفارة أي كشفتُ ما في قلب هذا وقلب هذا لاصلح بينهم .. والسفير : الرسول والمصلح بين القوم ، والجمع سفراء ، وقد سَفَرَ بينهم يَسْفِرُ سَفْراً وسِفارة وسَفَارة : أصلح .

وفي حديث علي أنه قال لعثمان : ان الناس قد استسفروني بينك وبينهم أي جعلوني سفيراً ، وهو الرسول المصلح بين القوم . يقال : سفرت بين القوم اذا سعيت بينهم في الاصلاح . ».

وعندنا ان هذا التعريف « للسفارة » الذي ينطوي على السعي بالصلح بين فريقين متخاصمين ينطبق بشكل أمثل على ما كان يحدث قبل الاسلام من قيام بعض الرجال من ذوي الجاه والمكانة في قومهم بالمسير بين قبيلتين أو جماعتين استشرت الخصومة بينهما ووقعت بينهما الدماء ، فقام بعض ذوي الحكمة والتعقل وسعوا لوضع حد لهذا الحال المفجع ولحقن الدماء .. ويبدو أن نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين في الجزيرة العربية كانت فترة اتسمت بالصراع الدموي بين القبائل بسبب عوامل عديدة قد يكون من بينها شح الارض بالقوت والماء والكلأ ، فلا يجدون الا الغارة على جيرانهم وسيلة للقيام بأودهم وأود أولادهم ، وأدى ذلك الى كثرة الحروب ، وما تستتبعه هذه الحروب من ثارات ، وما يترتب على الثارات من معارك جديدة . هذا فضلا عن التنافس على السيادة والزعامة والجاه الذي جر الى الكثير من الحروب وأُريقت في سبيله الدماء الغزيرة . ولا أظن أن حديث داحس والغبراء بين عبس وذبيان سوى مظهر من مظاهر هذا التنافس والصلف الجاهلي المقيت الذي أدى الى ازهاق العديد من الارواح البريئة ، فعبس وذبيان ، كما هو معلوم ، أولاد عم ينتمون الى غطفان ويعيشون متجاورين ، وتربطهم روابط الود والاخاء ، وقد ظل حالهم كذلك حتى اشتعلت الحرب بينهم بسبب المراهنة بين سيد عبس ، قيس بن زهير ، وسيد فزارة من ذبيان . حذيفة بن بدر ، أثناء سباق

بين فرس الاول المسمى داحس ، وحجر الثاني المسمى الغبراء . فقد نصب جماعة حذيفة كمينا ليردوا داحسا عن الغاية فتسبق الغبراء . وحين تم الذي خطط لـه حذيفة وطالب بالرهان البالغ مائة ناقة ، رفض قيس وأصر ان فرسه كان السابق فنشبت الحرب التي عرفت باسم حرب داحس والغبراء أو حـرب السـباق التي استمرت أربعين سنة واستقطبت تحالفات قبلية جديدة ، وكان من أبطالها الفارس المشهور عنترة بن شداد ، وقد دفعت ويلات هذه الحرب سيدين من ذوي الشهامة والمروءة للتوسط بالصلح بين عبس وذبيان ، وهما هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان خصهما الشاعر زهير بن ابي سلمى بمعلقته الشهيرة ، التي يقول في مطلعها:

أمـــن أم أوفـى دمنـة لم تكلـــم

بحومانـــة الـــدراج فالمتثلـــم

وفيها مديح للسيدين الذين سـعيا بالصلـح .. وموعظة للكف عـن الأحقاد وسفك الدماء .

ان ما قام به هـرم بن سنان والحارث بن عوف هـو ما ينطبق عليه تعريـف « السفارة » الذي نقلناه عن ابن منظور في مطلع هـذا البحث . على أن الذي نقصد معالجته في هذه الدراسـة هو غير ذلك ، ويهدف الى التعريف بالسـفارة بمعناها الدبلوماسي الحديث ، أي البعثة ذات الصفـة الرسمية التي تقـوم سلطة مسؤولة بايفادها لاداء مهمة معينة في دولة أخرى . وإذا صح هذا التعريف على الفترة التي تبدأ منذ أن أقام الرسول الكريـم صلوات الله عليه الحكومـة الاسلاميـة الاولى في المدينة المنورة وحتى عصرنا الحاضر . فان فترة ما قبل الاسلام حـين كان مجتمع الجزيرة العربية يعيش حياة البداوة عرفت هذا النوع من المهمة . ولكن تحت اسـم آخر هـو « الوفـود » .

ولا بد لفهم قضية « الوفود » التي كانت جـزءاً من الصـلات بـين الجماعات القبلية قبل الإسلام أن نذكر ان الضرورات التي دعت الى قيام هذه الصلات تنبع من واقع الجزيرة العربية السياسي في تاريخها السابق لظهور الرسول الكريم . حين كانت السلطة السياسية مفقودة ولا تقوم على أرضها حكومات مسؤولة تجمع شتات هذه القبائل وتوحد حركتها وتوجهها الوجهة السليمة التي تخدم الصالـح العام . فكان لابد أن تقوم أعراف وتنظيمات تنبع من واقع الجزيرة ويكـون هدفها تنظيم الصلات بين الجماعات القبلية المختلفة . ويمكن حصر الصلات التي قامت بين القبائل فيالجزيرة العربية قبل الاسلام في أربع زمر هي : الحلف ، والمسانـدة ، والموادعـة والوفود . وتتشابه عمليات التحالف والمساندة من حيـث أنها عقـد وتحالف بين

جماعات قبلية مختلفة لأجل محدود أو غير محدود ، لتنفيذ عملية واحدة أو عدة عمليات في ميدان الحرب أو غيره من ميادين العلاقات العامة التي تنتظم حياة الناس في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، اما الموادعة فهي معاهدة سلم تفرض على الاطراف الداخلة فيها عدم القيام بأي اعتداء على بعضها أو الإخلال بالعهد الذي قطعته على نفسها باحترام القبائل الداخلة في عقد الموادعة معها . وعلى المتوادعين أن يكفوا عن التفاخر والتفني بأمجادهم ، كما عليهم أن يمتنعوا عن القتال . فالتحالف والمساندة والموادعة اذن ، تتصل ، بشكل أو بآخر ، بما ينشأ بين القبائل من قتال أو سلم بعد هذا القتال ، وهي بهذا تختلف عن « الوفود » وهي المظهر الرابع للصلات بين الجماعات القبلية قبل الإسلام .

إن عادة إرسال الوفود عادة عربية قديمة ، وتتلخص في أن ترسل قبيلة وفودها الى قبيلة اخرى حين يحدث حادث أو يحل أمر جلل. وكمثال على المناسبات التي توفد فيها القبيلة الوفود الى قبيلة اخرى يمكننا أن نذكر ان انتصار قبيلة نصراً مؤزراً على غيرها هو من المناسبات التي تغتنمها القبائل الاخرى لترسل إليها وفودها مهنئة ومطنبة بفعالها وما تم على يديها .

فمن هذا القبيل مثلا ، ارسال قريش وفداً الى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن حين حقق نصره على الأحباش . فقد ساء بعض أهل اليمن ، كما هو معلوم ، احتلال الاحباش لارضهم ، فاستنجدوا بالدولة الساسانية التي كان بينها وبين الامبراطورية البيزنطية عداء شديد . فانجدهم كسرى انو شروان بقوة ابحرت من الخليج العربي ونزلت جنوب اليمن واستطاعت أن تطرد الأحباش منها . وبذلك تحررت اليمن من حكم الأحباش وعين سيف بن ذي يزن حاكماً عليها . لقد اعتبرت قريش ان هذا النصر من الأمور العظيمة التي تستوجب التهنئة فأوفدت رجالها للقيام بهذه المهمة ،وتعتبر هذه البعثة القرشية من أهم السفارات التي أوفدتها قريش في فترة ازدهارها الاقتصادي ورفعة مكانتها الدولية التي نجمت عن هذا الازدهار . فقد كان من المهم بالنسبة للمكيين الذين تحتل التجارة مكانة بارزة في حياتهم العامة ان تقوم بينهم وبين السلطة السياسية في اليمن ، الموقع الرئيس على طريق التجارة الدولية آنذاك ،أطيب الصلات حتى يضمنوا استمرار مسير قوافلهم . ولا بد بمناسبة كبرى كمناسبة زوال الحكم الحبشي الذي هدد مقدساتهم الدينية حين حاول ابرهة ضرب الكعبة واحتلال مكة ، وسعى ما وسعه السعي لاكساد تجارتهم واهلاك أموالهم عن طريق استلاب السيطرة على الطريق التجارية منهم . نقول ، لا بد بمناسبة كبرى كهذه من ان يوفدوا وفودهم مهنئين بخلاص اليمن من الحكم الحبشي.

وكان استقبال الوفود من واجبات رئيس القبيلة ، وعليه ان يستمع الى خطباء

هذه الوفود وشعرائها وان يرد عليها بالشكر والصلات . وفي المصادر أخبار كثيرة عن الوفود التي كانت تقصد بلاط الملوك اللخميين في الحيرة وبلاط الغساسنة في الشام، وعن الصلات والهدايا والاموال التي كانوا يعودون بها ، بعد ان تكرم وفادتهم وتستجاب المطالب التي وفدوا من أجلها . وكان قدوم الوفود على سيد أو ملك دليلا على مكانته البارزة ورتبته الرفيعة . يقول الطبري في الحديث عن عمرو بن عدي ، الملك الحيري الشهير ، أنه كان « منفرداً بملكه ، مستبداً بأمره ، يغزو المغازي ، ويصيب الغنائم ، وتفد عليه الوفود دهره الاطول ». وكما كانت القبيلة توفد وفودها الى القبائل الاخرى وبلاطات الملوك العرب، فقد كانت الممالك العربية قبل الاسلام توفد وفودها الى الدول الاجنبية حين تقتضي الضرورة ذلك .

ومن هذا النوع من السفارات السفارة التي أوفدها الملك الحيري عمرو بن هند (٥٥٤ ـــ ٥٧٤ م) الى الامبراطور البيزنطي جوستين الثاني ، اذ تذكر المصادر أثناء بحثها للعلاقات بين مملكة المناذرة ومملكة الغساسنة زمن عمرو بن هند الحيري والحارث بن جبلة الغساني ان أشهر غزوات عمرو ضد عرب الشام الغساسنة كانت سنة ٥٦٣ م . وتتلخص الاسباب التي دعته الى القيام بهذه الغزوة بأنه في الصلح الذي عقد بين الفرس والروم البزنطيين سنة ٥٦٢ اشترط الفرس على الروم أن يدفعوا لعرب العراق جزية سنوية مقابل سكوتهم عن مهاجمة عرب الشام الخاضعين للبيزنطيين . ولكن الروم رفضوا أن يدفعوا ما اتفقوا عليه ، فطالب عمرو من الفرس ان يساعدوه في غزو الشام ، ولكنهم تمهلوا وتباطأوا في الرد عليه ، فما كان منه إلا أن هاجم الغساسنة ، واعادة الكرة سنة ٥٦٦ و ٥٦٧ . وكان قائد جيوشه في هاتين الغارتين الاخيرتين أخوه قابوس . والسبب الذي يقدمه المؤرخون لغزوتي ٥٦٦ و ٥٦٧ هو أن عمرا أرسل رسولا الى الامبراطور البيزنطي جوستين الثاني لمفاوضته على دفع الاتاوة السنوية ، ولكن الامبراطور البيزنطي عاملهما معاملة سيئة ، فقام قابوس بهاتين الغزوتين بناء على أمر أخيه ، انتقاماً لشرف المبعوثين الحيريين . وهكذا فقد كانت الدولة تحرض على كرامة مبعوثيها ولا تتردد في شن الحروب وسفك الدماء لرد اعتبارهم ، لأنهم يمثلون الدولة التي أوفدتهم واهانتهم اهانة لها .

ويمكن اعتبار سفر امرىء القيس بن حجر بن الحارث الى القسطنطينية أثناء سعيه الحثيث للاخذ بثأر أبيه حجر من بني أسد ، من السفارات الخارجية التي تمت بين الممالك العربية قبل الاسلام والدول الاجنبية ، وذلك لانها تمت بعد وساطة السموأل بن عادياء عند الحارث بن أبي شمر الغساني ليكون وسيلة امرىء القيس الى الامبراطور البيزنطي جستنيان . وقام الحارث بمراسلات مع الامبراطور جستنيان انتهت بقرار أمرىء القيس أن يسافر الى القسطنطينية حيث استقبل كمندوب عن الحارث بن ابي شمر ، وأنزل في قصر من قصور الامبراطور وعومل كما

يعامل المبعوثون الرسميون ، وقرر الامبراطور ان يرسل معه جيشا ينصره على بني أسد . ولكن حدث ما عكر صفو العلاقات بينه وبين جستنيان حين نمي الى هذا الاخير أن علاقة حب قامت بين امريء القيس وابنته ، وان امرأ القيس يأتيها وتأتيه . فامتلأت نفسه غيظا وعزم على الانتقام منه ، فبعث اليه بحلة وشي منسوجة بالذهب ولكنها مسمومة فلما لبسها اسرع السم في جسمه وسقط جلده ، فسمي بذي القروح ، ولما وصل الى أنقرة من بلاد الروم وهو في طريق عودته الى بلاده مات متأثرا بقروحه ودفن هناك . وقد اعتبر الحارث الغساني نفسه ولي امريء القيس وله الحق في ارثه وطالب السموأل بما كان أودعه امرؤ القيس عنده من دروع . فأبى السموأل تسليم ما بعهدته ودفع ثمن وفائه حياة ابنه فضرب بذلك المثل .

والى جانب هذا النوع من السفارات التي كانت تقوم بين الممالك العربية قبل الاسلام والدول الاجنبية ، كانت هناك وفود وسفارات تبعث بها قريش الى القبائل والممالك العربية داخل حدود الجزيرة ، والى الدولتين العظميين ، فارس وبيزنطة ، وذلك لامور تتعلق بتجارتها ، أو لعقد الايلافات والمعاهدات مع هذه القبائل أو الممالك لاغراض مماثلة وتذكر الروايات العربية أنه كانت لأولاد عبد مناف الأربعة علاقات تجارية مع مراكز التجارة الدولية آنذاك وكانوا موفدي قبيلتهم الى بعض هذه المراكز لعقد ايلافات وتحالفات بقصد تنظيم العمليات التجارية بين مكة وهذه البلدان من جهة ، ولضمان ابعاد أية منافسة للسيادة أو الاحتكار المكي للتجارة مع هذه البلدان من جهة ثانية ، فقد توجه عبد شمس الى الحبشة موفدا من قومه لعقد معاهدة تجارية مع الاحباش . واستطاع عبد شمس أن يحقق الهدف من بعثته وأن يقيم علاقات ود وصداقة مع هذه الدولة . وقام هاشم ببعثة مماثلة الى سورية وحققت بعثته لقومه نفس النتائج ، وكذلك فعل عبد المطلب مع اليمن ونوفل مع العراق ، وعادا بعد أن كللت مهمتهما بالنجاح .

ان المتفحص لهذه البعثات والوفود يجد أنها تمثل ما يمكن وصفه بالصلات الخارجية العربية والدولية بالنسبة للقبائل والدول العربية قبل الاسلام . وكانت على ما يتضح من الأمثلة القليلة التي قدمناها مظهرا من مظاهر سيادة القبيلة واثباتها لوجودها في المحيطين : المحلي والدولي . كما يمكن اعتبارها في كثير من الاحيان ضرورة لا بد منها لاستمرار وجودها السياسي والاقتصادي، أو لتثبيت سيادتها وضمان عدم الاعتداء عليها .

ويعتبر المبعوث ممثل قبيلته أو دولته ويتمتع بحرمة ورعاية من أوفد إليهم، ويعتبر إكرامه وحسن وفادته اكراماً للجهة التي أوفدته كما أن اهانته أو المس بكرامته مسا بكرامتها يقتضي منها الثأر لما لحق بها من عار . ويحدثنا المسعودي في كتابه

«مروج الذهب» عن قدوم عبد المطلب بن هاشم مع وفد من قومه على معديكرب بن سيف ابن ذي يزن مهنئاً بالملك ويقول: « وأتت معديكرب الوفود من العرب تهنيه بعود الملك اليه واشراف العرب وزعماؤها ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد شمس بن عبد مناف، وخويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأبو زمعة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي فدخلوا اليه وهو في أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغمدان ، وهو مضمخ بالعنبر، وسواد المسك يلوح على مفرقه ، وسيفه بين يديه ، وعلى يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك وأبناء المقاول . فتكلمت الخطباء ، ونطقت الزعماء ، وقد تقدمهم عبد المطلب ابن هاشم ، فقال عبد المطلب : ان الله جل جلاله قد أحلك ، أيها الملك ، محلا رفيعاً، صعبا منيعا ، شامخا باذخا ..، فأنت ، أبيت اللعن ، رأس العرب وربيعها الـذي تخضب به ، وانت أيها الملك ، ذروة العرب الذي له تنقاد ..، أيها الملك ، نحن أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا، ونحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة . فقال له الملك : وأيهم انت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فقال الملك معد يكرب بن سيف : ابن أختنا ؟ قال : نعم . قال : ادنوه مني ، فأدني ، ثم أقبل عليه وعلى الوفد ، فقال لهم : مرحبا وأهلا، وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا ، يعطي عطاء جزلا ، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، لكم الكرامة ما اقمتم ، والحباء إذا ظعنتم » . ولما انتهت مراسيم الاستقبال والضيافة ، وحان موعـد انصرافهم اعطاهم العطايا وحملهم ما يليق من هدايا ومتاع . ومعد يكرب في هـذا ، لا يكرم أشخاصهم فحسب ، بل يكرم الجهة التي جاؤوا يمثلونها . وبالمقابل ، فان اهانـة الوفد اهانة للجهة الموفدة وتقتضي الثأر لرد الاعتبار . وكان لبعض ملـوك الفرس تراجمة من العرب يكونون الى جانبهم أثناء استقبالهم الوفود العربية التي تأتي الى بلاطاتهم . فمن المعروف مثلا أن عدي بن زيد العبادي كان ترجمان كسرى ابرويز يترجم له اذا وفد عليه زعماء العرب ، فلما قتل عدي على يد النعمان بن المنذر خلفه في هذا المنصب في بلاط ابرويز زيد بن عدي ، الامر الذي يؤخذ منه اهتمام الاكاسرة بهذه الوفود وتهيئة الاختصاصيين لاستقبالها واقامة الحوار معها .

ولعل أهم هذه الوفود وأكثرها خطراً كانت تلك التي تقوم بمفاوضات لعقـد الايلافات أو المعاهدات التجارية مع الدول الاجنبية ، ويسمى ابن حبيب السكري ، صاحب « المحبر » رجالات هذه الوفود بـ « أصحاب الايلاف » ويقول عنهم[٣] انهم : « من قريش الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها » . وهم : هاشم ، وعبـد شمس والمطلب ونوفل ، بنو عبد مناف . وكان متجر هاشم الى الشام ، ومتجـر عبد شمس الى الحبشة ، ومتجر المطلب الى اليمن ، ومتجر نوفل الى العراق .

وفي الحديث عن الاسلوب الذي اتبعه هاشم حتى توصل لعقـد الايلاف مـع

قيصر ، يذكر اليعقوبي ان تجارة قريش كانت لا تعدو مكة ، فكانوا في ضيق « حتى ركب هاشم الى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويضع جفنة بين يديه ، ويدعو من حواليه . وكان من أحسن الناس وأجملهم ، فذكر لقيصر ، فأرسل اليه ، فلما رآه وسمع كلامه ، أعجبه وجعل يرسل اليه ، فقال هاشم : أيها الملك ، ان لي قوماً ، وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجاراتهم حتى يأتوا بما يستطرف من ادم الحجاز وثيابه ، ففعل قيصر ذلك ، وانصرف هاشم ، فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافهم الايلاف لأن يأمنوا عندهم وفي أرضهم ، فأخذوا الايلاف من مكة والشام » . وفي هذا الحديث ما يفصح عن الاسلوب اللبق الذي استخدمه هاشم ليجلب اليه أنظار قيصر حتى استدعاه اليه ، فحدثه بالمهمة التي جاء من أجلها وما يهدف اليه من قدومه الى بلاد الشام ، فتكللت مساعيه بالنجاح وعاد الى بلده بعد أن منحه قيصر ما أراد من عهد ، ولم يكتف بذلك بل التفت الى تنظيم علاقات قوافل قومه بالقبائل التي تنزل الطريق بين مكة والشام فعقد معها الايلاف ليضمن الامن للقوافل المكية في حلها وترحالها ، وهو ليس بالامر السهل اليسير . وقد كان ما أنجزه هاشم في سفارته هذه من الأهمية لقومه لدرجة أنه حين مات « جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب » فهب عبد شمس الى نجاشي الحبشة ليجدد العهد بينه وبينه ، وخرج نوفل الى العراق ليأخذ عهداً من كسرى، حتى تحكم قريش الطوق وتضمن السلامة والأمن لقوافلها في جميع الأسواق المجاورة . وفي هذا المثل ما يكفي لايضاح الاهمية التي كانت توليها القبائل لهذا النوع من السفارات في أمور معاشها ودنياها ، الأمر الذي يعتمد اعتماداً رئيسياً على براعة المسؤول عن السفارة وحنكته ومعرفته بسياسة الأمور .

وطبيعي أن تكون هذه الوفود والسفارات منسجمة وواقع المجتمع العربي قبل الاسلام وحاجاته وأعرافه وتقاليده والغايات التي ترجى منها ، وطبيعي أيضاً أن تتغير هذه الصورة بعد قيام الاسلام حين تغيرت أهداف المجتمع وطبيعته والمثل التي تنتظم حياة الناس الذين يعيشون في ظله .

ب ـ الوفود والسفارات في عصر الرسول (ص) :

معلوم أنه حين تنزل الاسلام على قلب الرسول الكريم (ص) ، فشا ذكره بمكة وتحدث عنه الناس ، وأخذ بعضهم يدخل فيه ، وبعد أن مضى على مبعث محمد صلوات الله عليه ثلاث سنين أمر الله عز وجل نبيه أن يصدع بما جاءه منه وأن يدعو الناس بدعوة الإسلام . وكان الرسول قبل ذلك ، أي خلال السنوات الثلاث الأولى من مبعثه ، يدعو الى الله في السر ، وقد جاءه الأمر بعلنية الدعوة في الآية الكريمة « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » ، وفي قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين .. ».

فما كان من الرسول الكريم إلا أن نقل دعوته من مرحلة السـر الى مرحلة العلـن . وكانت القلة التي آمنت بالرسول في الفترة السرية تمارس شعائرها الدينية في الخفاء وبمنأى عن أعين قريش . ويذكر المؤرخون أن قريشاً لم تعلن العداء الجدي لمحمد في بداية مرحلة الدعوة العلنية ، وانها لم تفعل ذلك إلا حين عاب آلهتها وذكرها بسوء ، فحينئذ وقفت قريش ضده وأعلنت عليه الحرب العوان في كل مجال . ويشرح لنا عروة ابن الزبير هذا الأمر في رسالة يقال انه بعث بها الى عبد الملك بن مروان رداً على رسالة من عبد الملك يستفسر منه عن قضايا تتعلق بفترة صدر الإسلام . ومما قاله عروة في هذه الرسالة التي ينقلها لنا الطبري : « أما بعد ، فانه « يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم » لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم . وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، وأغروا به من اطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس ، فتركـوه إلا من حفظ الله منهم ، وهـم قليل » . ولسنا هنا في مجال مناقشة أسباب ودوافع المعارضـة القرشية للرسول الكريم (ص) ، كما أننا لا ننوي استقصاء المظاهر المادية والمعنوية الفظيعة لهذه المعارضة، لانها ليست مجال بحثنا ، ولكننا نود القول أن هذه الحال اقتضت من الرسول تحركاً على الصعيدين الداخلي والخارجي للدفاع عن الدعوة من جهة ، وللابقاء على عزيمة من أسلم والحفاظ على حياته ولاكتساب أنصار جدد لصفوف الدعوة من جهة أخرى . وكل هذا يوصلنا الى موضوع الوفود والسفارات في عهد الرسول الكريم .

طبيعي أن تكون محاولات الرسول (ص) الاولى لرد هذه الهجمـة التي تعرض لها من قومه منصبة على تقوية صفه الداخلي واستنفار القوى المؤيدة لـه لتقف الى جانبه في هذه المحنة . وقد استغل الرسول هذا الجانب أحسن اسـتغلال ففشلت محاولات القرشيين في شق الصف الهاشمي ، وعادوا من زيارتهم لعمه أبي طالب التي أرادوا من ورائها أن يسلبوه ما كان يمنحه عمه اياه من دعم وتأييد ، بخيبة أمل كبيرة . كما فشل أسلوبهم في المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التي فرضوها على بني هاشم ، وانتهى الامر بشق صحيفة المقاطعة وعودة بني هاشم الى دورهم ، بعد أن كلفتهـم المقاطعة ثمنا غاليا كان أفدحه وفاة أبي طالب عم النبي ، وخديجة بنت خويلد زوجـه وسنده القوي .

وتذكر المصادر أنه حين اشتد أذى قريش على المسلمين وخاف الرسول أن يؤدي هذا الى فتنتهم عن دينهم ، وهو لا يقدر ان يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه » . وقد استجاب لنصيحة الرسول الكريـم

هذه بعض المسلمين ، فخرجوا متسللين سرا حتى انتهوا الى الشعيبة (ميناء مكة) حيث ركبوا سفنا لبعض التجار حملتهم الى أرض الحبشة مقابل نصف دينار عن كل شخص.

وكانت هذه الهجرة في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعث الرسول . ولما علمت قريش بأمر الهجرة ورات أنهم امنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وانهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي رجلين منهم جلدين ، ليرد من قبله من المسلمين . فبعثوا عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص ليقوما بهذهالمهمة. وهذه السفارة هي أول سفارة عربية في الفترة التالية لنزول الاسلام على قلب الرسول الكريم . ويورد ابن هشام في سيرته وصفا دقيقا لأخبار هذه السفارة نقدمه فيما يلي : « قال ابن اسحق : حدثني محمد بن مسلم الزهري .. عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أنيبعثوا الىالنجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه الادم . فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا الى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما الى النجاشي هداياه ، ثم اسألاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي .. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا اليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، وقالا لكل بطريق منهم : أنه قد ضوى الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه لا نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا .. » . وبعد أن أحكم الوفد القرشي المؤامرة مع البطارقة وكبار رجالات الدولة الحبشية ، قابل النجاشي وسلمه الهدايا وحدثه بحديث المسلمين اللاجئين اليه وطلب تسليمهم لاعادتهم الى قومهم . وكان رد النجاشي انه غير مستعد لتسليم أناس لجأوا اليه دون أن يسمع دفاعهم عن أنفسهم. وبعد حوار شرح فيه المسلمون اللاجئون الى النجاشي حالهم قبل نزول الاسلام على قلب الرسول الكريم وما آل اليه مجتمعهم نتيجة الفوضى والجهالة والظلم الاجتماعي الذي كان يحيق بالمحرومين بسبب استغلال المستغلين وتسلط طبقة كبار التجار وتفشي الربا والاقراض بالفوائد الفاحشة وما شابه . هذا فضلا عن عبادتهم للأوثان وتوقهم الى معرفة الله خالق الكون وفاطر السموات والأرض . كما بينوا له الانقلاب الذي أحدثه الاسلام في حياتهم بسيرة صاحبه وبالمبادىء التي دعا اليها وبالمثل التي

حث اتباعه على السير على هديها . ولما انتهوا من شرحهم هـذا بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت اساقفته ، وقال لهم النجاشي : « ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » . والتفت الى المبعوثين القرشيين وقال لهما : « انطلقا، فلا والله لا اسلمهم اليكما ».

فشلت سفارة قريش هذه كما رأينا ، وعاد المبعوثان الى قومهما دون أن يحققا الهدف الذي بعثهما قومهما من أجله . وانتقل العمل الدبلوماسي بـين الفريقـين : القرشي والمسلم ، الى مرحلة جديدة ، هي مرحلة اكتساب الأنصار في الداخل . ومن أجل هذا كانت رحلة الرسول الكريم الى الطائف ، وحديثها معروف ، كما كان أمر « المقتسمين » الذي يمكن أن يدخل ضمن دراستنا هذه عن الوفـود والسفارات .

وحديث « المقتسمين »، كما يتضح مما يرد في القرآن الكريم يستفاد منه أنـه كانت هناك فئة من معارضي الرسول صلوات الله عليه تدعى « المقتسمون »، ورد ذكرها في قوله تعالى مخاطبا رسوله : « وقل اني أنا النذير المبين ، كما أنزلنـا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين ». وتذكر كتب التفسير أن « المقتسمين » هم الذين اقتسموا طرق مكة فكانـوا يقفون فيها يصدون الناس عن الاسلام ، وقال بعضهم : في القرآن سحر ، وقال آخرون : فيه كهانة ، وقال بعضهم : انه من عمل شاعر . أما ابن حبيب في كتابه « المحبر » ، فيذكر أنهـم كانوا « سبعة عشر رجلا من قريش ، اقتسموا أعقاب مكة ، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيهم نزلت :« كما انزلنا على المقتسمين » . ويقول ابن حبيب ان الرسول حين علم بأمر المقتسمين أخذ يرسـل شخصا من أصحابه يقف الى جانب الشخص الكافر الذي يصد الناس عن الدعـوة الى الاسلام ، فاذا أخذ المشترك يشتم الاسلام ورسوله ويتقول عليه الكذب ، ينبري الشخص المسلم للدفاع وتفنيد أكاذيب المشرك وبيان فضائل الاسلام وجهالة الشرك وعبادة الأوثان .

ان هذه العملية هي نوع من السفارة الاسلامية الى القبائل القادمة الى مكـة لأداء فريضة الحج ، للوقوف في وجه سفارة قرشية الى هذه القبائل تحاول صدها عن الاسلام بتشويهه والتقول عليل والاقلال من قدر نبيـه والافتراء على المبـادىء السامية التي يدعو اليها . وكانت عملية « المقتسمين » ردا قرشيا على مبادرة الرسول الكريم بعد عودته من الطائف بالاتصال بأفراد القبائل المختلفة التي تزور مكة أثنـاء موسم الحج وعرض دعوته عليها . ويذكر ابن اسحق أن أبا لهب كان يتبع الرسول في جولاته هذه ، فما يكاد يفرغ من شرح أصول الاسلام ويبين أهم تعاليمه ، حتى يقف أبو لهب فيقول للناس : « يابني فلان ، ان هذا انما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم ،.. الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه ».

ان عملية ارسال الوفود الى القبائل من جانب قريش أثناء موسم الحج ، والوفود الاسلامية المضادة الى هذه القبائل ، تمثل جانبا من المهام الجسام التي كانت تلقى على كاهل الوفود ، كما تمثل اعتماد القبائل للوفود كممثلين عنها في شرح وجهات نظرها فيما يعرض لها من أمور . ولعل أهم مجال ظهرت فيه أهمية الوفود في هذه الفترة هو المفاوضات التي أجراها الرسول الكريم مع وفد من أهل يثرب وأدت الى أكبر حدث في تاريخ الاسلام ، ألا وهو الهجرة الى المدينة التي كانت نقطة التحول الاساسية في تاريخ الدعوة الجديدة . وليس المهم في هذا البحث أن ندخل في تفاصيل المفاوضات بين الوفود اليثربية والوفد الاسلامي برئاسة الرسول الكريم في بيعتي العقبة الاولى والثانية والتي انتهت بالاتفاق على عقد البيعة وشروطها ، ولكن لا بد من الاشارة الى أن أسلوب التفاوض عن طريق الوفود كان السبيل التي اعتمدهاصلوات الله عليه في مسيرته من أجل تحقيق هدفه في اقامة دولة الاسلام واستقطاب العرب حوله . ويبدو لنا اعتماده هذا الأسلوب بشكل واضح بعد غزوة أحد ، اذ ظهر فشل المشركين جليا في تحقيق نصر حاسم على الرسول والاسلام بشكل عام ، ووجد أبو سفيان وصحبه أنفسهم في وضع حرج ما لم يقوموا بعمل حاسم ضد محمد (ص)، وانهم هالكون لا محالة . واعتمدت خطتهم الجديدة في محاربة الرسول على تأليب القبائل عليه بعد أن جمعوا من مكة كل قادر على حمل السلاح ، دون أن يوصلهم ذلك الى تحقيق نصر حاسم على المسلمين . فسارت وفودهم الى القبائل البدوية الكبيرة الضاربة في شرقي وشمال شرقي المدينة ليقنعوها بضعف محمد (ص) وصحبه ، ووعدها بالغنائم الكبيرة التي ستحصل عليها اذا ما ساهمت في العمليات العسكرية ضده . وقد توجهت الوفود القرشية هذه الى قبائل سليم وغطفان وبني ضمره وغيرهم من أجل هذا الهدف . وكان الرسول بالمقابل يتابع تحركات هذه الوفود ومقاصدها وأساليبها . وكانت سياسته بعد أحد وخلال السنتين التاليتين لهذه المعركة تهدف لمنع أي تحركات عدائية توجه ضد المدينة ، وذلك عن طريق بث العيون والأرصاد حول عاصمته لإخباره بكل التحركات الدعائية المكية لمواجهتها بتحركات مضادة ، من جهة أخرى . وكان الرسول أيضا يستقبل وفود القبائل التي أخذ ذكره يفشو بينها فتود أن تتعرف عليه وعلى دعوته عن قرب ، ويقوم هو بالمقابل بارسال الوفود اليها ليسمعها كلمة الاسلام . ومن هذا القبيل كان استقباله لعامر بن مالك بن جعفر أبي البراء الملقب بملاعب الاسنة ، أحد سادة بني عامر . وحديث هذه الزيارة والوفد الذي أرسله الرسول الى العامريين كما يرويه لنا ابن سعد في « طبقاته » ، والواقدي في « مغازيه » ، وابن هشام في « سيرته » ، يتلخص في أنه في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من هجرة الرسول الى المدينة قدم على محمد (ص) ، عامر بن مالك هذا ، وأهداه فرسين وراحلتين فرفض الرسول(ص) قبول هذه الهدية ، وقال له : لا أقبل هدية مشرك . وعرض عليه الاسلام ، فرفض بسبب مركزه في قومه ، ولكنه أظهر ودا

وعطفاً على الإسلام ، وقال للرسول : يا محمد ، اني أرى أمرك هذا أمراً حسناً شريفاً، وقومي خلفي ، فلو أنك بعثت نفراً من أصحابك معي لرجـوت أن يجيبـوا دعوتك ويتبعوا أمرك . فقال له الرسول : اني أخاف عليهم أهل نجد . فقال عامر : لا تخف عليهم ، أنا لهم جار ان يعرض لهم أحد من أهل نجد . وكان عامر ، كما أسلفنا ، من سادة بني عامر . فوافق الرسول على فكرته وندب أربعين رجلا من رجاله وعلى رأسهم المنذر بن عمرو الساعدي للذهاب الى نجد والدعوة فيها بدعوة الاسـلام . واعطى الرسول الى المنذر كتابا ليقرأه على أهل نجد ، وأمرهم بالسير لما ندبوا له . فخرجو حتى نزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم . فلما نزلوا ، بعثوا بكتاب رسول الله (ص) الى عامر بن الطفيل ، أحد رجالات بني عامـر . فلما جاءه الكتاب ، لم ينظر فيه ، ووثب على رسول الوفد الاسلامي فقتله ، ثم استصرخ قومه العامريين للخروج معه لقتل بقية رجال الوفد الاسلامي . ولكن بني عامر رفضوا طلب ابن الطفيل وذلك لأن عامر بن مالك اخبرهم بأنه أجار المسلمين ، فأبـوا أن يخفروا جوار سيد من ساداتهم . ولما أبت بنو عامر على عامر بن الطفيل استصرخ عليهم قبائل بني سليم فنفروا معه وأجابوه الى طلبه ، واعتدوا على الوفد الاسلامي وقتلوهم عن آخرهم ما عدا رجلين منهم هما عمرو بن أمية الضمري وكعب بن زيد . وعاد عمرو بن أمية الضمري الى المدينة ليخبر الرسول بما جرى لصحبه في بئر معونـة . وفي طريقه اليها صادف رجلين من بني عامر ، كانا في زيارة للمدينة ولهما من رسول الله أمان ، فقتلهما انتقاما لأصحابه دون أن يعلم بأمان رسول الله لهما . ولما قدم ، وقص على الرسول قتله للعامريين أنبه الرسول لفعلته ، وقال له ، بئس ما صنعت، قد كان لهما مني أمان وجوار ، لأدينهما (أي علي دفع ديتهما) . وبعث الرسول فعلا بديتهما الى قومهما ، وعاملهما على أساس أنهما حرين مسلمين .

والذي يثير الانتباه في أمر العامريين القتيلين أن الرسول أرسل بديتهما الـى أهلهما لأن لهما أمانا منه ، في حين أنه لم يطالب بدية ثمانية وثلاثين قتيلا من صحبه كان لهم أيضاً أمان من سيد عامري . ولعل الرسول أراد من ذلك أن يظهـر للقبائل المختلفة احترامه لقضية الجوار والعقد وتمسكه به حتى ولو لم يتمسك بهما خصومه. ويوضح لنا هذا الحديث الذي تورده لنا المصادر عن وفد الرسول الى بني عامر ، انه في هذه المرحلة من مراحل العمل الدؤوب الذي كان يقوم به الرسوم الكريم مـن أجل نشر الاسلام واقامة دولته ، كان يعتمد أسلوب استقبال الوفـود وبعثها الى الجهات المختلفة أساسا في تحركه على الصعيد العربي ، ويوليه اهتماماً كبيراً ويقدم له مـن الضمانات والمبادىء الكريمة التي كانت تسود مجتمع الجزيرة من وفاء بالعهد واحترام للجوار واعتماد الحوار القائم على الاقناع أسلوبا للوصول الى التفاهم .حتى أنه حين عومل وفده معاملة تخلو من هذه المبادىء فتعرض أفراده للقتل ، لم يشأ أن

يقابل الاساءة بالاساءة ، ودفع ديتي القتيلين العامريين لأنهما قتلا ولهما أمان منه ،رغم ان قاتلهما لم يكن يعرف بهذا الأمان ، وقتلهما ثأرا لإخوانه الذين كانوا ضحية غدر ولؤم يتنافيان مع كل أعراف الجوار واستقبال الوفود .

وتكرر حادث بئر معونة في مناسبة أخرى هي يوم الرجيع ، حين تعرض وفد اسلامي آخر أرسله الرسول الى قبائل عضل والقارة للدعوة للاسلام لغدر رجال من هاتين القبيلتين . ولم يفت هذا الحادث في عضد الرسول واستمر في اعتماد أسلوب الوفود وسيلة لمحاوة قريش والقبائل الاخرى في سبيل نشر دعوته وتحقيق أهدافه . ويتجلى هذا الاسلوب في حواره مع قبائل اليهود ، ولا سيما في غزوة الخندق اذ استطاع عن طريقه ايقاع الفرقة بين يهود بني قريظة وبين قريش ، فتهدمت عناصر المؤامرة واستطاع الصف المسلم ان يربح بصموده وبسالته والتكتيك الحربي الذي اتبعه (الخندق الذي احاط به المدينة) ، أن يحول المعركة لصالحه ويربحها .

ويبدو اعتماد الرسول أسلوب الوفود أيضا في الازمة التي وقعت بينه وبين قريش حين قرر وصحبه القدوم الى مكة من أجل أداء العمرة ، أو ما يعرف عادة باسم « صلح الحديبية » . وبالرغم من اننا لا نريد لهذا البحث أن يدخل في متاهة التفاصيل التي لا علاقة لها بموضوع الوفود والسفارات ، فان الدور الذي لعبته الوفود من الجانبين : المسلم والقرشي ، كان له الفضل الاول في تحقيق هذا الصلح . فقد جزعت قريش حين عرفت بقدوم الرسول وصحبه لاداء العمرة ، وقررت منعه من تحقيق هدفه وحين نزل بالحديبية أرسلت اليه رسلها لاقناعه بالعدول عن دخول مكة ، ولبيان الاخطار التي تنتظره اذا ما أصر على موقفه . وكان على رأس الوفد القرشي عروة بن مسعود الثقفي الذي عاد ليخبر قريشا باصرار الرسول على تنفيذ ما جاء من أجله . ورأي الرسول من ناحيته أن يفاوض قريشا وأن يرسل لها وفدا يفصح لها عن أهداف زيارته وطابعها السلمي والديني . وانتدب لهذه المهمة عثمان بن عفان لمكانته في قريش وقرابته من أبي سفيان . وفي هذا الانتقاء دليل على حنكة الرسول فقد اختار المبعوث المناسب للمهمة والجهة المناسبة . وقد طلب الرسول الكريم الى عثمان رضي الله عنه أن يقول لقريش : انا لم نأت لقتال أحد وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته ومعنا الهدي ننحره وننصرف . ووصل عثمان الى مكة فرحب به وأجاره أبان بن سعيد بن العاص ، وأبلغ الرسالة الى رؤوس قريش ، ولكنهم استمروا في عنادهم ورفضوا السماح للمسلمين بدخول مكة . ومضت على غيبة عثمان في مكة ثلاثة أيام لم يسمع المسلمون خلالها خبرا عنه ، وذاع بينهم انه قتل مع عشرة من المسلمين كان الرسول قد سمح لهم بالتوجه الى مكة لزيارة أهلهم فيها . فطلب الرسول من صحبه أن يبايعوه على محاربة قريش أخذا بثأر موفده . ورأت قريش أن المسلمين يعسكرون على مقربة من أرضها وأن حربهم لن تكون سهلة ولا يسيرة ، فآثرت

أن تفاوضهم ، لذا أرسلت وفدا برئاسة سهيل بن عمـرو ليفاوض الرسول وينهي الازمة دون اللجوء الى قتال . فكان طلب الرسول الاول عودة عثمان وصحبه من المسلمين ، فوافق سهيل وأرسل من قبله رسولا الى قريش يطلب منها اطلاق سراح عثمان ومن معه من المسلمين ، فوافقت قريش على ذلك فورا وأرسلت عثمان وصحبه الى الرسول . وعاد سهيل الى مكة ليستطلع رأي قومه في الشروط التي يطلبونها من الرسول . فأشار عليه أهل الرأي منهم بالصلح على ان يرجع الرسول عنهم عامه هذا ويعود في العام المقبل . وعاد سهيل الى الرسول بعرض قريش واتفق الطرفان على صلح تنص بنوده على بعض الشروط التي لا نرى ضرورة لذكرها في هذا المقام.ولكن من المهم أن نذكر ان اسلوب التفاوض عن طريق الوفود قد اعتمد بشكل رسمي من قبل الطرفين المتخاصمين في هذه الفترة من تاريخ الامة العربية ، واعتبر وسيلة ناجعـة لجعل الاطراف المختلفة تصل الى حلول لبعض المشاكل التي تطرح نفسها والتي اذا لم يعتمد التفاوض أسلوبا لحلها لكانت الحرب هي البديل الوحيد .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن الرسل والوفود كانت في هذه الفترة لا تقتصر على المجالات الداخلية فقط ، بل كانت وفود الرسول تسافر الى الخارج ولا سيما الى الحبشة ، فقد أرسل صلوات الله عليه عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي يطلب اليه ان يعيد من قبله من المسلمين فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلا ومعهم من بقي من نسائهم وأولادهم .

وفي ختام هذه الفقرة من بحثنا لا بد من الاشارة الى ما تعارف المؤرخون على تسميته بـ « عام الوفود » ، وهو العام التاسع للهجرة الذي تقاطر فيه على الرسول رجالات القبائل العربية مبايعين على الاسلام والطاعة ، بعد ان فتحت مكة ودخلت قريش في الاسلام وثبت لسائر العرب ان المسلمين قوة سياسية وحربية ، الى جانب العقيدة الجديدة التي تنزلت على قلب النبي العظيم ، وكان وفد ثقيف أسبق الوفود في القدوم على الرسول وكان لقدومه وقبوله الاسلام وشروط الرسول عليه مغزى خاص ، اذ أنه باسلام ثقيف غدت الحجاز كلها تدين بالدين الجديد . كما أخـذت القبائل الاخرى التي كانت لا تزال على الشرك تحذو حذو ثقيف وترسل بعوثا منها الى المدينة لتعلن انضواءها تحت راية الاسلام ومبايعة رسول الله . ولن نذكر أسماء هذه الوفود ورجالاتها فهي كثيرة وتشمل معظم القبائل العربية ، ولكن لن يفوتنا أن نشير الى أنه كان بين هذه الوفود وفد أرسله ملوك حمـير يعلم الرسـول الكريـم باسلامهم ، فقبل الرسول اسلامهم وأرسل اليهم كتابا يعلمهم فيه فرائض الاسـلام وما يترتب عليهم من أخماس وصدقات وواجبات حيال رعاياهم من أهل الذمة .كما أرسل اليهم وفدا مسلما برئاسة معاذ بن جبل ليعلمهم الاسلام ويفقههم بالدين . وكان فروة بن عمرو الجذامي ، عامل الروم على من يليهم من العرب ، من بين الامراء الذين

أرسلوا الى الرسول من يعلمه باسلامهم . وكان منزل فروة معان وما حولها من أرض الشام . وقد أرسل مع رسله بغلة بيضاء كهدية للنبي . فقبل النبي عليه السلام اسلام فروة وهديته . ولما بلغ الروم اسلام عاملهم غضبوا لذلك وطلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم ضربوا عنقه على ماء بفلسطين يقال له عفراء .

وبعد ، فيظل الحديث عن الوفود والسفارات في عصر الرسول(ص) ناقصاً اذا لم نتعرض الى أهم عنصر فيه وهو موضوع كتب الرسول الى الملوك والامراء يدعوهم الى الاسلام .

فمن المعلوم أن في الاية الكريمة التي تخاطب الرسول قائلة : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وفي قوله عز وجل : « ان هو الا ذكر للعالمين » ، دعوة صريحة الى عالمية الدعوة ، وتوجيه واضح للرسول الكريم لينقل الدعوة من اطار الجزيرة العربية الضيق الى آفاق الارض الرحبة حيث يجب ان تخفق راية الاسلام ، كما خفقت في سماء الجزيرة ، وحيث يجب ان تعلو كلمة الحق فينتقل الناس كافة من الضلالة الى الهدى . ونحن في بحثنا عن « الوفود والسفارات في عصر الرسول » لا بد أن نتوقف عند الجهود التي بذلها صلوات الله عليه في سبيل تحقيق هدف عالمية الدعوة عن طريق ما أرسله من وفود وسفارات الى ملوك وأمراء الارض ليدعوهم بدعوة الاسلام ، ويحضهم على ترك ما هم فيه من ضلالة وكفر . وقد أوجبت علينا طبيعة المعلومات التي ترد في بعض المصادر الاولية والحديثة حول هذا الموضوع ان نسلك في معالجته سبيل نقد الخبر وعرضه على ما يفرضه منهج البحث التاريخي من معايير كي نستخلص الصورة الحقيقية لما جرى . لان في بعض ما بين أيدينا من أخبار شيئا من عدم دقة يضطر معه الباحث المدقق الى اعمال النظرة الموضوعية المتفحصة لاستبعاد ما لا يمكن قبوله وتقويم ما يمكن ان يكون قد وقع من خطأ . ولا بد لي من أن استميح القارىء العذر لما أقحمه فيه من دوامة نقد الروايات والاخبار ، ولكنها مناسبة أردتها ألا تفوت دون أن يعطى هذا الموضوع الهام ما هو أهل له من عناية وتمحيص .

تذكر المصادر (كابن سعد وابن هشام والطبري وابن حبيب وغيرهم) ان الرسول بعد انصرافه من الحديبية أرسل ستة من أصحابه الى ملوك الدول المجاورة وأمرائها ليدعوهم بدعوة الاسلام . وقد حمل هؤلاء الرجال كتبا ممهورة بخاتم الرسول . وعادوا بأجوبة عليها ، بعضها فيه قبول لهذه الدعوة وبعضها فيه رفض لها . ويفرد ابن سعد فصلا خاصا في « طبقاته » لهذا الامر يقول فيه : « .. قالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ، أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتبا ، فقيل يا رسول الله ، ان الملوك

لا يقرؤون كتابا الا مختوما ، فاتخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يومئذ خاتما من فضة ، فصه منه ، نقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القـوم الذين بعثـه اليهم . فكان أول رسـول بعثـه صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي وكتب اليه كتابين يدعوه في أحدهما الى الاسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأخذ (أي النجاشي) كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه على عينيه ، ونزل من سريره فجلس على الارض تواضعا ، ثم أسلم وشـهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته ، وكتب الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، باجابته وتصديقه واسلامه على يدي جعفر بن ابي طالب . وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت قد هاجـرت الى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي فتنصر هناك ومات ، وأمـره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الكتاب أن يبعث اليه بمن قبله من أصحابه ففعل وزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وأصدق عنه أربعمائة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم ، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري .. وبعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دحية بن خليفة الكلبي وهو أحد الستة ، الى قيصر يدعوه الى الاسلام وكتب معه كتابا وأمره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر ، فدفعه الى عظيم بصرى وهو يومئذ بحمص ، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه : إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافيا من قسطنطينية الى ايلياء ، فقـرأ الكتاب وأذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم ؟ قال الروم : وما ذاك أيها الملك؟ قال : تتبعون هذا النبي العربي ، قال : فحاصوا حيصة حمـر الوحشـ وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من اسلامهم وخافهم على نفسه ، وملكه ، فسكنهم ثم قال: انما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم من دينكم الذي أحب ، فسجدوا له . قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عبد الله بن حذافة السهمي ، وهو أحد الستة ، الى كسرى يدعوه الى الاسلام ، وكتب معه كتابا ، قال عبد الله : فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرىء عليه ، ثـم أخذه فمزقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : اللهم مـزق ملكه ، وكتب كسرى الى بازان عامله على اليمن أن ابعث من عندك رجلين جلدين الى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتياني بخبره (وأرسل باذان الرجلين وقابلا الرسـول فتنبأ لهما بمقتل كسرى من قبل ابنه شيرويه) فرجعا الى باذان فاسلم هو والابناء الذين باليمن . قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ، وهو أحد الستة ، الى المقوقس صاحب الاسكندرية عظيم القبط يدعوه الى الاسلام وكتب معه كتابا ، فأوصل اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه وقال لـه

خيرا ... وكتب الى النبي صلى الله عليه وسلم : لقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها ، ولم يزد على هذا ولم يسلم فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته ، وأخذ الجاريتين مارية أم ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها سيرين ، وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دلدل ... قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شجاع بن وهب الاسدي ، وهو أحد الستة الى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه الى الاسلام ، وكتب معه كتابا ، قال شجاع : فأتيت اليه ، وهو بغوطة دمشق ، وهو مشغول بتهيئة الانزال والالطاف لقيصر ، وهو جاء من حمص الى ايلياء ... فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه ، ثم رمى به وقال : من ينتزع مني ملكي ؟ أنا سائر اليه ولو كان باليمن جئته ، علي بالناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيل تنعل ، ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى . وكتب الى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه . فكتب اليه قيصر : ألا تسير اليه واله عنه ووافني بايلياء ، فلما جاءه جواب كتابه ، دعاني فقال : متى تريد أن تخرج الى صاحبك (فقلت : غدا ، فأمر لي بمائة مثقال ذهب .. فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : باد ملكه ! ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح ... وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سليط بن عمرو العامري ، وهو أحد الستة ، الى هوذة بن علي الحنفي يدعوه الى الاسلام وكتب معه كتابا ، فقدم عليه وأنزله وحباه ، وقرأ كتاب النبي ، صلى الله عيله وسلم ، (وطلب هوذة في كتاب أرسله الى النبي أن يشاركه في الامر حتى يؤمن به ، ولما وصل كتاب هوذة الى النبي قال تعليقا على هذا الطلب) : لو سألني سيابة من الارض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه ! فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات .

هذا هو نص ابن سعد ، وقد أوردناه كاملا لأنه في رأينا ، يحتاج الى وقفة نناقش فيها ما يورد من معلومات لا يستقيم بعضها أمام النقد التاريخي والمقارنة مع المصادر الاخرى .

ان أول ما يستدعي الانتباه في نص ابن سعد هو التاريخ الذي يحدده لانطلاق رسل الرسول الى الملوك والامراء ، فهذا التاريخ عنده هو بعد صلح الحديبية ، أو بشكل أدق هو المحرم من سنة سبع للهجرة حين خرج ستة منهم في يوم واحد ، على حد زعم ابن سعد . ان نظرة بسيطة الى وضع الرسول والجماعة الاسلامية بعد صلح الحديبية تجعلنا ندرك بما لا يقبل الشك أنه كان على الاسلام والمسلمين في هذا الوقت المبكر أن يقفوا في وجه الاخطار والتحديات التي تمثلها قريش وغيرها من قبائل الحجاز ونجد التي لم تكن قد انضوت تحت لواء الاسلام بعد ، والتي كانت لا تزال على جانب

من القوة لا يستطيع المسلمون الاستهانة به . واذا أضفنا الى هذا أن مدن الحجاز الكبرى نفسها كمكة والطائف كانت لا تزال تناصب الرسول العداء ولم تخضع لسلطانه، لوجدنا أن المنطق يفترض ألا يتطلع الرسول الى نشر دين الله خارج الجزيرة وأن يعرضه على امبراطوريات عظمى كفارس وبيزنطة ، في حين أن أقرب مدن الحجاز اليه كانت لا تزال على الشرك وتسعى بمختلف الوسائل والسبل ، بما ذلك الحرب ، للقضاء عليه وعلى دينه .

واذا تركنا ما يمليه المنطق جانبا ، وتمسكنا بحرفية النصوص وما جاء في مصادر الاخبار المختلفة ، لوجدنا أن نص ابن سعد لا يستقيم أمام الفحص الدقيق الناقد لما جاء من أخبار . ولنأخذ أولا ما يذكره هذا المؤلف عن بعث الرسول لدحية بن خليفة الكلبي الى أمير بصرى ومعه كتاب الى قيصر ، ان بعثة دحية هذه سابقة على صلح الحديبية دونما شك ، لا تالية لها ، كما يدعي ابن سعد ، وقد حدثت بشكل أدق في السنة السادسة للهجرة ، على ما يذكره هو نفسه ، لا أي شخص آخر فقد جاء في موضع لاحق من « طبقاته » أن دحية تعرض ، وهو في طريق عودته الى المدينة من عند قيصر الى هجوم شنته عليه جماعة من جذام وسلبته ما كان يحمل من هدايا وكسوة حمله اياها قيصر . وقد أخبر دحية الرسول بما جرى له ، فجهز سرية مؤلفة من خمسمائة رجل على رأسهم زيد بن حارثة وأرسلهم الى حسمى لتأديب الجذاميين وذلك في جمادى الآخرة من سنة ست للهجرة . وقد قامت سرية زيد بهذه المهمة خير قيام وعادت بأسلاب كبيرة وأسرى لا يقلون عن المائة (انظر ابن سعد ط. بيروت ، ج٢ ، ص ٨٨) . وهكذا ، فان دحية الذي يذكر ابن سعد انه كان أحد الستة الذين انطلقوا بعد الحديبية حاملين كتب الرسول خرج قبل الحديبية التي لم تحدث حتى ذي القعدة من السنة نفسها ، لا بعدها كما يدعي .

واذا تركنا أمر دحية جانبا، وانتقلنا الى ما يذكره النص عن الرسول الذي أرسله النبي الى المقوقس وعودة الرسول الى المدينة ومعه هدايا المقوقس التي كان من بينها مارية وسيرين ، لوجدنا أن الامر لا يستقيم أيضا والتاريخ الذي حدده ابن سعد لارساله ، وهو ما بعد الحديبية ، أو المحرم من سنة سبع . اذ أن ابن اسحق يذكر أن الرسول أعطى سيرين الى حسان بن ثابت كترضية له وتعويض عن الضربة التي ضربه اياها صفوان بن المعطل ابان الازمة التي تعرف باسم « حديث الافك » ومعروف أن حسان كان من الذين هجوا صفوان وتقولوا عليه الاقاويل ، فثارت ثائرة صفوان لهذا وضرب حسان ضربة كادت تميته . وقد عوض الرسول على حسان وأهداه سيرين كترضية له عما أصابه . وحديث الافك هذا كان أحد نتائج غزوة بن المصطلق التي حدثت في شعبان من سنة ست للهجرة . وما دام الرسول قد أهدى سيرين لحسان في شعبان من السنة السادسة أو الشهر التالي له ، فلا يمكن أن يستقيم

التاريخ الذي يحدده ابن سعد (المحرم من سنة سبع) كموعد انطلاق حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس وعودته بهداياه التي كانت سيرين احداها .

واذا كان نص ابن سعد خاطئا بالنسبة للتواريخ التي يحددها كموعد لانطلاق دحية بن خليفة الكلبي وحاطب بن أبي بلتعة مبعوثي الرسول الى قيصر والمقوقس فان ما يرد فيه من حديث عن بعث الرسول لشجاع بن وهب الاسدي الى الحارث بن أبي شمر الغساني يستثير أعنف نوازع النقد في نفس المؤرخ . وسبب ذلك أن الاخباريين العرب غير متفقين على أسماء الملوك الغساسنة الذين حكموا بدءا من سنة ٥٠٠ م ، ولكن قائمة نولدكه ، وهي المعتمدة عند أغلب الباحثين ، تجعل من أبي شمر جبلة أول ملوك الغساسنة بعد المنذر بن الحارث . وقد تلا أبا شمر هذا ابنه الحارث بن جبلة الذي حكم بين ٥٢٩ ـ ٥٦٩م . والحارث بن جبلة هو الحارث بن أبي شمر نفسه ، كما يظهر من اسم أبيه ، وكما يؤكد حمزة الاصفهاني في تاريخه . فهل يعقل أن يرسل الرسول مبعوثا ورسالة دعوة الى الاسلام الى ملك مات قبل ولادته بما لا يقل عن عام أو عامين ؟ ويؤيد نقدنا هذا ما يرد في بعض المصادر الاخرى من معلومات حول هذا الموضوع فالطبري ، مثلا ، يذكر أن الرسول أرسل شجاعا الى المنذر بن الحارث بن أبي شمر ، لا الى الحارث . وهذا أيضا غير مقبول في رأينا لأن المنذر هذا حكم بين سنتي ٥٦٩ ـ ٥٨٢ ، أي أنه توفي والرسول لا يزال صبيا في حوالي العاشرة من عمره. وعندنا أن ما يذكره ابن حبيب من أن شجاعا حمل رسالة الرسول الى جبلة بن الايهم الغساني ، هو الاصدق والاصح ، لان جبلة هو آخر من حكم من ملوك الغساسنة وتتناسب فترة ملكه مع قيام الدعوة الى الاسلام . وقد أسلم هو نفسه ، ثم ما لبث أن تنصر بعد حادثته المعروفة مع عمر بن الخطاب .

بعد هذه الملاحظات على ما ورد في نص ابن سعد ، لا بد لنا من أن نقرر أن ارسال الرسول لبعوث وموفدين للملوك والامراء داخل الجزيرة وخارجها ، هو حقيقة واقعة تؤيدها كل المصادر والقرائن والدلالات ، وتحتمها طبيعة الدعوة ، وما لها من صفة العمومية والشمول ، بحيث لا يمكن أن تقتصر الدعوة الى هذا الدين على قوم دون قوم . على أن الذي لا بد من ملاحظته بمناسبة ما يرد حول هذا الموضوع عند ابن سعد وغيره من المؤرخين القدماء والمحدثين ، هو أن تداخل الروايات واختلاط الاحداث بسبب التواتر الشفهي ، قد أدت كلها الى صورة مشوهة لما جرى ينقصها الضبط ويتداخل فيها حادث بحادث أو موضوع بموضوع ، لا سيما اذا كان الحادثان متقاربين من حيث الموضوع أو تتشابه فيهما بعض التفاصيل . وخير مثال على هذا التداخل واختلاط الروايات يمكننا أن نورده فيما يذكره لنا ابن سعد في النص الذي نقلناه في مطلع بحثنا هذا ، عن موفد الرسول الى نجاشي الحبشة . فقد اختلط عند ابن سعد مناسبات عدة كانت فيها بين الرسول والنجاشي مكاتبات ووفود ، فجمع في مناسبة

واحدة ثلاث مهام هي : دعوة النجاشي الى الاسلام ، وتزويجه بأم حبيبة ، والطلب الى النجاشي تجهيز من قبله من المسلمين واعادتهم مع موفده عمرو بن أمية الضمري ، وبديهي ألا يطلب الرسول من النجاشي تزويجه من أم حبيبة واصداقها عنه في وقت يطلب اليه فيه اعادة من قبله من المسلمين ولكان أجل زواجه منها حتى ما بعد عودتها مـع من بقـي من المسلمين في الحبشة . كمـا ان ما يذكره من اسلام النجاشي أمـر غير مقطوع بصحته ولا نجد دليلا عليه في المصادر التي تدرس الموضوع بجد واهتمام .

والى جانب هؤلاء الستة الذين يذكرهم ابن سعد ، هناك موفدون آخرون تذكر المصادر أسمائهم والمهام التي اوكلت اليهم ، فمن بين موفدي الرسول، غير هؤلاء الستة يذكر ابن سعد عمرو بن العاص الذي بعثه الرسول سنة ثمان للهجرة الى جيفر وعبد ابني الجلندى وهما سيدا قبائل الأزد النازلة في عمان يدعوهما الى الاسلام . وقـد قبلا دعوة الرسول ودفعا لموفده الصدقة ، فوزعها بين فقرائهم . كما ارسل الرسول بعذ منصرفه من الجعرانة ، العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن سـاوي العبدي سـيد البحرين يدعوه بدعوة الاسلام . فكتب المنذر الى الرسول يخبره باسلامه وتصديقه واسلام بعض من أصحابه ، وبقاء آخرين منهم على اليهودية أو المجوسية . فأجابـه الرسول بأخذ الجزية ممن بقي على هذين الدينين . كما كتب الى أهل اليمن كتابـا يخبرهم فيه بشرائع الاسلام وفرائض الصدقة في المواشي والاموال ويوصيهم بأصحابه ورسله خيرا . وكان رسولاه اليهم معاذ بن جبـل ومالك بن مرارة ، وأمرهما بجمـع الصدقات والجزية . وكان مالك هذا رسول أهل اليمن الى النبـي يعلمونه اسلامهم وطاعتهم ، فرده الرسول مع معاذ الى قومه وعهد اليه مـع صاحبـه بأمر الصدقات والجزية ، كما أسلفنا . ولم يكن معاذ ومالك موفدي الرسول الوحيدين الى اليمن، بل هناك عدد آخر منهم الى أمراء مقاطعات اليمن المختلفة تذكرهم المصادر وتعـين الجهة التي ارسلوا اليها . كما أن المصادر تتحدث عن رسله الى بعض قبائـل كندة وحضرموت ولخم والازد وبني الحـارث وبني فهـد وبني طي وبني سـعد هذيـم وبني زرعة وبني اسلم من خزاعة وبني جهينة ومسيلمة الكذاب وبني غفار وصاحب هجر وأهلها وبني بكر بن وائل وبني عبد القيس وخثعم وكثير غيرها .

وهناك عدد من الكتب تذكر المصادر انه وجهها الى بعض الاساقفة النصـارى وبعض الزعماء النصارى واليهود . ككتابه الى ضغاطر الاسقف وكتبه الى بني جنبة وهم جماعة من اليهود كانت تقيم بمقنا (مقنا موقع قرب أيلة) ، وكتبه الى يحنة بن رؤبة وسروات أهل أيلة ، والاكيدر زعيم دومة الجندل النصراني ، وبني غاديا اليهود، ويهود جربا وأذرح وغيرها . وتتضمن هذه الكتب اعترافا من الرسول لهـم بحكم ما تحت أيديهم من أراض وبلاد مقابل اعلان خضوعهم له ودفع ما يترتب عليهم مـن جزية أو زكاة (لمن اسلم) .

والى جانب هذا الفريق الذي باداه الرسول بالكتابة والدعوة الى الاسلام عن طريق الوفود والمبعوثين ، هناك فئة من الملوك والافراد أخذت هي بزمام المبادرة ، وكاتبت الرسول معلنة اسلامها وخضوعها قبل أن يبادئها الرسول بذلك . ومن بين هذه الفئة الثانية فروة بن عمرو الجذامي الذي كان عامل الروم على عمان من أرض البلقاء ، أو على معان ، وقد بلغت فروة أخبار الرسول ومعلومات عن الدين الذي يدعو اليه ، فأسلم وكتب اليه يخبره بذلك ، وبعث اليه بهدايا كثيرة ، كان من بينها بغلة بيضاء وفرس وحمار وأثواب لين وقباء سندس مخوص بالذهب . وقد بلغ ملك الروم اسلام فورة ، فطلب اليه العودة عن الاسلام ، فحبسه وقتله وصلبه .

وهكذا فقد استعمل الرسول أسلوب الوفود والسفارات في اخريات حياته ، واعتمده وسيلة لتحقيق نشر الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية وداخلها ، واعتمده وسيلة لتحقيق نشر الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية وداخلها ، على أن السبيل السلمي ، لم يكن ناجحا دوما ، واضطر الرسول في سبيل تحقيق شعار عمومية الدعوة أن يلجأ للقتال ، فكان أن أمر بتجهيز جيش أسامة بن زيد لغزو أطرف الشام الجنوبية، ولكن بعث زيد لن يتاح له أن ينطلق الا في خلافة أبي بكر ، كما هو معلوم ، اذ أن المنية عاجلته صلوات الله عليه ، وانتقل الى الرفيق الاعلى ليسلم الراية الى أصحابه البررة، الذين حملوا الامانة بكل صدق واخلاص .

وقد يكون لنا مع الوفودوالسفارات في الفترات التالية وقفة أخرى ان شاء الله .

* * *

مسألة هروف الفلاحين من القرى في مصر
بنـاء على الوثائق البرديـة المعاصرة

د. فالح حسـين
الجامعـة الاردنيـة

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على ظاهرة هجرة الفلاحين المصريين لقراهم في فترة محددة هي أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للهجرة وكيفية معالجـة الدولة لها ، هذه الهجرة التي تبدو هنا مختلفة عن الهجرة التي عرفت في نفس الفترة تقريبا ، في مصر آخر من أمصار الدولة الاسلامية ، الا وهي هجرة أهـل القرى في العراق ، ووجه الاختلاف هنا هو أن هجرة فلاحي مصر لم تكن نحو المدن الجديـدة أو مراكز الادارة السياسية والاقتصادية كما هو الحال في العراق بل الى أماكن أخرى من الريف المصري في الاغلب الامر الذي أدى الى الصاق صفة الهاربين بالفلاحين الذين تركوا قراهم ، لذا فضلنا هنا وضع كلمة هروب الفلاحين عوضا عن الهجرة . ومما يلفت الانتباه أن ظاهرة الهجرة في العراق تبدو أكثر وضوحا لانها تشبه ما تعانيه كثير من المجتمعات الحديثة من هجرة أهل الريف الى المدن بغض النظر عما تخلفه هـذه الهجرة من بلبلة في المدن ومن أثر سلبي على الحياة الزراعية في الريف ، في حين أن الوضع بمصر لا يمكن ان ينظر اليه على هذا النحو وان الدارس لوثائق هـذه الفتـرة يلاحظ أن للظاهرة هذه خلفية مختلفة .

ان التشابه في نتيجة الهجرة في كل من مصر والعراق أدى الى اتخاذ الدولـة اجراءات مشابهة لمقاومتها واعادة الامور الى طبيعتها . ولكن نتيجة هذه الاجراءات ليست متشابهة اذ نلاحظ نجاحها في العراق أكثر منها في مصر وربما يعود ذلك الى اتساع المشكلة في مصر اكثر من العراق . اضافة الى ان اتجاه الهجرة في العراق كان واضحا وبرز في المصرين الكبيرين ، البصرة والكوفة ، الا أنـه كان أكثر وضوحـا في البصرة(١) . أما في مصر فان الولاية بأكملها كانت ميدانا لهذه الهجرة .

ويود الباحث هنا لفت النظر الى مصر لاننا نملك الكثير من الوثائق التي القت الضوء على حجم هذه المشكلة من خـلال حديثها عن ردة فعل الدولـة تجاهها عبر المراسلات التي دارت بين الولاة في الفسطاط وتابعيهم في الكور المصرية . كما نود أن

نذكر أن الدارس لتاريخ مصر يلمس هذه الهجرة في كثير من الفترات ، ولكن تركيزنا عليها في هذه الفترة يعود لوفرة الوثائق التي تحدثت عن الموضوع .

من الواضح أن الهجرة قد تفاقم خطرها في الربع الاخير من القرن الاول الهجري / السابع الميلادي مما يعني أنها لم تكن وليدة ساعتها بل نتيجة تراكمات بدأ يظهر أثرها الآن ، اذ أننا نسمع بالاجراءات الرسمية ضد الهجرة منذ أيام عبد العزيز بن مروان الذي حكم مصر بين ٦٥ـ٨٥هـ وأول اشارة لها جاءت على لسان ساويرس بن المقفع الذي وضع سير بطاركة الاسكندرية وقال انه اعتمد في تأليفه على وثائق الكنيسة والشهود العيان الذين دونوا السير المعاصرة لآباء الكنيسة(٢) . فقد بين أن عبد العزيز بن مروان حاول إيقاف الهروب من الارض الى الأديرة القبطية لما لاحظ موجة الترهب التي تعني ترك الارض الزراعية بل فرض جزية على الرهبان في مصر وكلف شخصا للقيام بهذه المهمة « فأنفذ صاحبا له اسمه يزيد ممن يأمن اليه ومعه أخر فأحصى جميع الرهبان في كل الكور ووادي هبيب وجبل جراد وسائر الاماكن وجعل عليهم جزية دينار واحد على كل نسمة وأمرهم أن لا يرهبوا أحد بعد من أحصاه وهذه أول جزية وزنوها الرهبان »(٣) ، واستمر هذا الحال بعد عبد العزيز ولكن بشمولية أكبر ، اذ يذكر عن أيام عبد الله بن عبد الملك أنه أرسل شخصين هما عاصم ومزيد مع جماعة « وأوسموا الغرباء الذي وجدوهم على أيديهم وجباههم وأنفذوهم الى مواضع لم يعرفوها »(٤) . وهذه أول اشارة الى اتخاذ اجراءات عملية ضد الهاربين . ولم ينته الحال الى التغلب على المشكلة بل العكس ، اذ يبدو أن المسألة عادت بشكل أكثر حدة في أيام خلفه قره بن شريك (٩٠ ــ ٩٦هـ) ، اذ نسمع عن هرب الناس بعائلاتهم ، وهذا ما أفادته الوثائق اضافة الى ساويرس الذي يلمح لأول مرة الى المشاكل الاقتصادية ، فهو يقول « وكانوا الناس يهربوا ونساءهم وأولادهم من مكان الى مكان ولا يأويهم موضع من أجل البلايا ومطالبات الخراج وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه ثم أنه ولى انسان اسمه عبد العزيز من مدينة سخا وكان يجمع الهاربين من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كل منهم الى موضعه»(٥) ، وهذا ما ستؤكده الوثائق البردية التي عثر عليها من أيام قره كما سنرى(٦)، ونجد لديه ما يدل على أن أحوال مصر كانت صعبة اقتصاديا دون أن يصرح بذلك اذ يقول « ثم انزل الله على أرض مصر وباء عظيم وصار من يموت في كل يوم لا يعرف عدده »(٧) .

ويستمر الحال رغم كل ما فعله قره من اجراءات ليأتي خليفته اسامة بن زيد فيتابع ما سار عليه سلفه ، واستمر الفلاحون بالهرب اذ حدث في أيامه « غلاء عظيم لم يسمع بمثله من الجيل الاول ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرفت جميع الاغنياء والفقراء على الموت »(٨)، ومعنى هذا أن الازمة ازدادت شدة فما كان من اسامة الا أن شدد المراقبة على الهروب من الارض لأن الغلاء الذي أعقب الوباء لابد

أدى الى تفاقم الهجرة فكانت تعليمات اسامة وأوامره صارمة فنراه يمنع ايواء الغرباء (الهاربين) في الكنائس والبيع وفعلا طرد القائمون عليها « من كان عندهم من الغرباء »(٩) وحاول تجديد ما بدأه عبد الله بن عبد الملك وعبد العزيز من قبل ، أي منع اللجوء الى الاديرة بحجة الرهبنة ، اذ قام باحصاء الرهبان وجعل لمن أحصاهم اشارة « وأوسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليعرف ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الاسلام وكان في سنة ست وتسعين للهجرة »(١٠) ، وهذا يعني أن الاوامر صدرت بُعيد تسلمه ادارة خراج مصر فورا وعاقب بشدة كل من عثر عليه في الاديرة بعد ذلك من الهاربين(١١) . وابتكر أسامة السجل أي ما يمكن أن نعتبره جواز سفر أو تصاريح التنقل لضبط الهروب من القرى والاراضي الزراعية ويذكر ساويرس أمر أسامة فيما يتعلق بالسجل كما يلي « وكان يكتب ويقول كل موضع يوجد فيه انسان ماشي أو يعدي من موضع الى موضع وطالع من مركب أو نازل وليس معهم سجله يؤخذوا وتنهب المركب وما فيه وتضرب بالنار »(١٢) وليس هذا وحسب بل أنه فرض غرامة على من يفقد سجله أو يدعي فقده مقدارها خمسة دنانير لقاء تجديد السجل . كما تابع عملية الكشف على الاديرة للتأكد من عدم ايواء هاربين جدد . ورغم كل هذه الاجراءات كان يعثر على المخالفين فيشتد في عقابهم وعقاب من قدم لهم المأوى وعندما كشف على الديارات « وجد فيها جماعة من الرهبان بغير حلق في أيديهم فمنهم من ضرب رقبته ومنهم من مات تحت السياط ثم انه سمر باب البيعة بالحديد وطلب منهم ألف دينار »(١٣) .

ويلاحظ أن المشكلة لم تتغلب عليها الادارة الاموية في الفسطاط رغم هذه الصورة القاتمة ، يدل على ذلك ما فعله القاسم بن عبيد الله بن الحجاب الذي تولى مصر أيام هشام بن عبد الملك الذي « ولى ولاة في كورة مصر أشد منه قوما جمعوا الناس الغرباء من الاسكندرية الى أسوان »(١٤) .

لقد آثر الباحث رسم هذه الصورة من خلال ما رواه ابن المقفع برغم ما يبدو فيها من مبالغة ، ولكن سنرى من خلال الوثائق أن الصورة العامة هذه قد أيدتها الوثائق العربية أو اليونانية والقبطية العائدة لنفس الفترة التي تبين سعة المشكلة بشكل لا لبس فيه .

وقبل المضي في الحديث لنا أن نتساءل عن سبب بروز المشكلة وعلى هذا النحو الذي يبدو مؤلما ، دون أن تتمكن الدولة ، برغم شدة الاجراءات ، من ايقافها ولو جزئيا بدليل استمرارها منذ أيام عبد العزيز وحتى أيام ابن الحجاب وابنه القاسم الذي تولى خراج مصر لهشام بن عبد الملك أي ما يقرب من نصف قرن . وهذا يعني بالنسبة لنا أن الادارة الاموية تبدو وكأنها فقدت السيطرة على الارض وأهلها لأن ترك

الارض (القرى) الى أماكن أخرى يعني بالضرورة اضطراب العلاقات الزراعية فيها نتيجة اهمال الارض المزروعة التي يتركها العاملون عليها اضافة الى الانخفاض الحاد في الريع الضريبي الحاصل من حرمان الدولة من ضرائب الارض وما يتبعها من نقص المواد التموينية المؤدي بالضرورة للغلاء الذي تحدث عنه ساويرس أكثر من مرة . والتي جعلت قره بن شريك يطلب رسميا من تجار الصعيد حمل نصف ما لديهم من قمح واحضاره لبيعه في الفسطاط(١٥) .

وهذا يجعلنا نذكر بتدابير الحجاج في العراق بنفس الفترة تقريبا ٧٥-٩٥هـ والتي لا نملك حيالها الا الروايات الواردة في مصادرنا التاريخية وهي لا تعطي الا صورة مشوشة عما جرى ، مؤداها الحديث عن ظلم الحجاج نتيجة محاولته اعادة أهل القرى الى قراهم . وهنا نريد الاشارة الى آثار أحداث العراق السياسية والثورات المتوالية ضد الدولة الاموية التي لابد وأنها أثرت على عمارة السواد(١٦) حتى أن الطبري يذكر أن مشاركة الكثيرين بالثورات كانت تسعى لعدم اداء واجباتهم للدولة(١٧) ، وقد شعر الحجاج بذلك فأبدى تشددا في الجباية أول الامر حتى احتج الدهاقين(١٨) . ثم برزت في هذه الاونة على السطح مشكلة هجرة الفلاحين من القرى وكانت أكثر بروزا في البصرة منها في الكوفة نظرا لانتعاش أحوالها الاقتصادية واتخاذها ميناء تجاريا بعد فترة وجيزة من تمصيرها(١٩) . والنتيجة المتوقعة تراجع أحوال الزراعة لقلة المشتغلين في الارض مما أدى فعلا الى كسر الخراج ، فكان اجراء الحجاج الحازم هو الامر باعادة أهل القرى الى قراهم بالقوة ، تماما كما حصل في مصر . فقد ذكر الطبري عن حمزة ابن ربيعة (أن عمال الحجاج كتبوا اليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالامصار فكتب الى البصرة(٢٠) وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج اليها)(٢١) ويوضح ذلك الجهشياري عندما ذكر أن الحجاج أرجع الفلاحين الى القرى وفرض عليهم الخراج(٢٢) .

وقد نلمس مما ذكره المبرد في الكامل أن للمسألة أبعادا سياسية اضافة لتعطيل الارض إذ لما لاحظ الحجاج كثرة من انضم لابن الاشعث من الموالي قال (انما الموالي علوج وانما أتي بهم من القرى فقراهم أولى بهم فأمر بتسييرهم من الامصار واقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل انسان منهم اسم قريته)(٢٣) ، وهذا يذكر بما رواه ساويرس من اجراءات ضد الهجرة بمصر .

ويبدو أنه اضافة للمشاكل السياسية والخراب الذي الحقته في الزراعة ممانتج عنه الهجرة أيضا فقد وقع بالعراق والمنطقة الطاعون في نفس الفترة (سنة ٨٠) ولكنه كان في البصرة جارفا حتى سمي بالطاعون الجارف(٢٤) وهذا يذكر بالوباء والغلاء الذي تحدث عنه ساويرس بن المقفع(٢٥) .

وفي محاولة من الحجاج للتغلب على المشكلة قام بتقديم القروض « السلف » للفلاحين ومنع أهل السواد من ذبح البقر لتكثر حيوانات العمل حتى ورد على لسان أحدهم شعرا :

شكونا اليه خراب السواد   فحرّم فينا لحوم البقر(٢٦)

كما ذكر ابن رسته القروض التي قدمها الحجاج وهي (الفي الف درهم) . وأما عن سبب منع ذبح البقر فبين أنه (لتكثرة الحراثة والزرع)(٢٧) ومع كل ذلك، وما تذكره المصادر من حزم الحجاج ، فقد استمرت الهجرة في العراق ولم تتوقف(٢٨) .

بعد هذه الالتفاتة السريعة لمشكلة الهجرة في العراق ، نلاحظ قواسم مشتركة بينها وبين مشكلة الهجرة في مصر ، أهمها بروزها في الوقت نفسه تقريبا في القطرين، وشعور الدولة بالاثر السلبي على عمارة الارض ومحاولتها ايقافها بنفس الاساليب ، أي محاولة اعادة الفلاحين الى قراهم وان كانت الاساليب في مصر أكثر وضوحا نظرا لتوافر الوثائق التي تحدثت عنها ولكن ضخامة المشكلة كانت أصعب من أن تتغلب عليها الدولة بمثل هذه القوانين بدليل استمرارها في البلدين . الا أن الفرق الملاحظ بينهما هو أن أسباب الهجرة في العراق أكثر وضوحا منها في مصر .

فمع ان الاشارات واضحة نسبيا عن سبب الهجرة في العراق لكن الامر المستغرب صمت المصادر وحتى الوثائق والتقارير الرسمية والاوامر الصادرة عن الوالي ، مما عثر عليه حتى الآن، فهي لا تشير من قريب أو بعيد الى سبب الهجرة أو أثرها على الارض انما ينصب حديثها على محاولة الدولة الوقوف أمامها واعادة الهاربين الى قراهم ، ولا نراها تكشف ولو ضمنيا عن وجهة نظر الهاربين وأسباب هربهم كما أن الروايات التاريخية لم تتطرق لذلك أبدا . وعليه فان ما نود الحديث عنه بخصوص مصر هو اتساع هذه الهجرة كما تدل الوثائق ، وكيفية معالجة الدولة لها دون محاولة البحث عن أسبابها وان كان اجتهادنا يؤدي الى القول أن الصلة بين الارض وفلاحيها وربما زيادة التكاليف المفروضة عليهم أو محاولة الحصول على طريقة كسب أسهل في المراكز الكبرى قد تكون مجتمعة أو منفردة السبب في محاولة الهروب عن الارض في مصر . ومما يدعو الى الوصول الى هذا الاستنتاج أن الدولة كانت تلاحق الهاربين في أماكنهم الجديدة لدفع مبالغ الجزية فحسب . وهذا معناه أن من يسمح له البقاء يتخلص من التكاليف الاخرى . وكثيرا ما تحدثت بعض الوثائق عن تطمينات العائدين بأن الدولة لن تطلب منهم سوى الجزية فحسب(٢٩) . ولذلك فان سوء الاوضاع الزراعية قد يكون سبب هذا الهروب ، يدلنا على ذلك اضافة لما سبق أن الدولة كانت ترغم الهاربين غالبا على العودة الى الارض للعمل بها مما يذكر بما فعله الحجاج. أما الهروب من الجزية تحديدا فيصعب على دارس الوثائق هذه الموافقة عليه ولكن المشكلة

بالنسبة للضرائب هي مشكلة الخراج أي ضرائب الارض التي تتأثر سلبا فعلا باهمالها تماما كما ذكر عمال الحجاج لان نتيجة الهجرة هي خراب الارض الزراعية ونتيجته انكسار الخراج بالفعل الذي لا ينتج من اسلام من أسلم بل من ترك الناس لارضهم ولذلك فان مقولة فرض الحجاج للجزية على من أسلم يجب أن ينظر لها بحذر كبير(٣٠) ، حتى ان رواية الجهشياري التي ذكرها تقول (ما صنع الحجاج بأهل العراق من رده من من" الله عليه بالاسلام الى بلده ورستاقه وأخذهم بالخراج) (٣١)، فالمشكلة هي اعادة الناس الى قراهم ورساتيقهم وفرض الخراج عليهم لانه بدون عودتهم لا يمكنه فرض الخراج الذي هو ضريبة الارض . والباحث لا يرى علاقة بين الجزية وبين الهجرة واعادة الناس الى قراهم إلا اذا أخذنا بعين الاعتبار خلط بعض المصادر بين مصطلحي الجزية والرخاج . وهذا ما لا نريد الحديث عنه هنا .

وهذا ما نلمسه بمصر اذ لا مشكلة بالنسبة لضريبة الجزية فهي مؤداة من المكلف أينما كان مقر اقامته . وكان الاجراء الاول في مصر فيما يتعلق بمقاومة الهجرة هو التركيز على الجزية حتى أنها فرضت على الرهبان ، فقد رأينا من ايام عبد العزيز بن مروان ان الهجرة اتخذت لباسا دينيا عندما بدأ الهاربون باللجوء الى الاديرة للرهبنة ففرض عبد العزيز الجزية على الرهبان(٣٢) ، ولدينا اعداد من الوثائق سواء كانت ايصالات بالدفع أو طلبات تحصيل لدفع الجزية من الرهبان - وكانت دائما دينارا واحدا - فأحدهما يذكر ضريبة جزية للراهب باسيليوس تبين أنه دفع دينارا (سوليدوس) لجزيته(٣٣) . ورأى البعض أن هجرة القبط كانت رغبة في التهرب من الضرائب(٣٤)، ولكن يجب أن لا نفهم من الضرائب هنا الجزية بالتحديد وانما مجموع التكاليف المطلوبة وهي أكثر من الجزية بكثير خاصة وأن الجزية كانت تجبى من الهاربين في أماكنهم الجديدة ولم تؤد الهجرة الى اعفائهم منها . لكنهم بالهجرة يتهربون من الخراج والتكاليف العينية الاخرى ، والدليل على أن قرارات الادارة في الفسطاط كانت تلاحق الذين يغيرون أماكن سكناهم بترخيص رسمي بأن عليهم دفع الجزية فيها هو الوثيقة التالية التي تطلب دفع الجزية عن شخص يسكن الفسطاط ولكن بلده الاصلي هو اشمون :

(هذا كتاب من عبد الرحمن عامل الامير عبيد الله بن الحجاب على كورة أشمون لجرجه بن لنجين من أهل .. ساكن الفسطاط أنه أصابك من جزية سنة ثلث عشرة ومائة دينرين وسدس وثمن ونصف قيراط منها من جزية رأسك دينرين ..(٣٥) .

ذلك لأن الهجرة كما سبق وأشرنا لا بد أن تؤثر سلبيا على الاوضاع المالية والاقتصادية لان الهروب عن الارض معناه تعطيلها وبالتالي تضاؤل الناتج العام وحرمان الدولة من الخراج ، ولذلك نجد قره بن شريك مثلا يطالب بعض أهالي القرى في مصر

بالاموال المترتبة عليهم بعد ثلاث سنين من استحقاقها وهذه المطالبات مؤرخة بسنة ٩١ وتطالب بضرائب سنة ٨٨(٣٦) .

وفي وثيقة اخرى نرى الوالي يصدر تراخيص خاصة للمسموح لهم بمغادرة قراهم ولكنه لفترة محددة كاجراء لتنظيم التنقل وهذا يؤكد ما ذكره ساويرس عن السجل . تقول الوثيقة :

(هذا كتاب من عبد الله بن عبيد الله عامل الامير عبيد الله بن الحجاب علي أعلا اشمون لقسطنطين ببسطاس شاب أثط بخده أثر وبعنقه خالين سبطمن أهل بسقنون من أعلى اشمون أني أذنت له أن يعمل بأسفل اشمون لوفاء جزيته والتماس معيشته وأجلته شهرين من مستهل ذي الحجة الى انسلاخ المحرم من سنة (ثلث) عشر ومائة فمن لقيه من عمال الامير أو غيرهم فلا يعترض له في ذلك من الاجل الا بخير والسلام على من اتبع الهدى وكتب طليق في مستهل ذي الحجة تمام سنة اثنتي عشرة ومائة)(٣٧) .

وهذا يعني أن الدولة تشددت بطريقة دراماتيكية في ملاحقة الذين يهربون من قراهم فلم تسمح بالانتقال الا بتصاريح خاصة (سجل) والذي سمعنا عنه أولا أيام أسامة بن زيد الذي تولى خراج مصر من سنة ٩٦-٩٩/٧١٥-٧١٨ واستمر الى أيام عبيد الله وابنه القاسم كما رأينا . وقد ورد في الوثائق القبطية ما يؤكد تطبيق نظام الجواز أو تصريح التنقل اذ تتحدث احداها عن التماس ثلاثة من الرهبان للحصول على تصريح للذهاب الى الفيوم لذا فانهم يرجون الامير للحصول على تصريح لمدة ثلاثة أشهر مع العلم أنهم دفعوا الضرائب المستحقة عليهم(٣٨) . ويبدو أن نظام التصاريح استمر فيما بعد اذ نجد وثائق تعود للربع الاخير من القرن الثاني الهجري تتضمن جوازات سفر أحدها مؤرخ سنة ١٧٦/٧٩٢(٣٩)، والثاني يعود لسنة ١٨٠/٧٩٦(٤٠).

ولنلق الآن نظرة على الوثائق البردية التي عالجت قضية الهجرة بشكل مباشر أيام قره بن شريك ولنبدأ أولا بالوثائق البردية المدونة باللغة العربية ، ففي رسالة من قرة بن شريك الى باسيل صاحب كورة أشقوه ،أفروديتو بالوثائق اليونانية، فبعد المقدمة تقول الرسالة : « فان هشام بن عمر كتب الي يذكر جالية له بأرضك وقد تقدمت الى العمال وكتبت اليهم الا يؤوا جاليا فاذا جاءك كتابي هذا فادفع اليه ما كان له بأرضك من حاليته ولا أعرفن ماارددت رسائله أو كتب الي يشتكيك والسلام على من اتبع الهدى . وكتب يزيد فيجمادى الآخرة سنة احدى وتسعين »(٤١). ووثيقة أخرى من نفس الوالي الى نفس المرسل اليه تتحدث عن الغرامة التي كان قره قد فرضها على الهاربين عند العثور عليهم واعادتهم الى قراهم ، وهي ناقصة من بدايتها تقول : ... كتب الي أنك قد أرسلت الي بالنبطي .. الذي فر وبالاربعة الدنانير

وثلث الدينر غرامته » وهي مؤرخة في شهر ربيع أول من تسعين أي بُعيد وصول قرة لمصر واليا عليها مباشرة .

أما الوثائق البردية المدونة باليونانية فلدينا احداها التي تعود لفترة عبد الله ابن عبد الملك الذي يبدو أنه الذي بدأ الاجراءات ضد الهجرة وسار قرة على نهجه اذ تبين البردية رقم ١٣٣٣ من البرديات اليونانية المحفوظة في المتحف البريطاني بداية معالجة قضية الهاربين كالتالي : يقول الوالي الى عامله في كورة أشقوه : « أرسل اليهم رجالا قادرين من أهل الثقة وممن يستطيعون الكتابة وأرسل معهم تعليمات بالذهاب الى المفوضين المسؤولين عن الهاربين وليكتب بحضورهم أسماء الذين هربوا كاملة ذاكرين المكان الذي هربوا منه والى أي كورة اتجهوا ثم تسجل أسماء الذين هربوا اعادتهم الى أماكنهم وأولئك الذين يسمح لهم بالبقاء على أن يدفعوا ضرائبهم (٤٣) فيها » وتنتهي الرسالة في الحث على تنفيذ الاوامر الصادرة بدقة(٤٤) .

أما الوثائق البردية العائدة لفترة قرة بن شريك فهي الوسيلة الوحيدة الواضحة التي تبين اجراءات الدولة في مقاومة الهجرة وقد نشرت وثيقتان ضمن مجموعة ليشكوف من البرديات الجورجية الروسية تتحدثان عن التدابير ضد الهجرة أيام قرة تقول الوثيقة رقم (١) « ... في حالة وصول رسالتنا الحالية اليك اكتب الينا حالا ماذا فعلت بشأن الهاربين ... نرجو أن يكون واضحا لديك أنه في حالة عثوره (أي الرسول) علي أي لاجيء في كورتك ممن طلبنا اعادتهم الى قراهم فانه لن يقبل منك أو من أهل كورتك أي عذر بعد الآن » . ثم يطلب منه اعتقال كل من بقي من الهاربين في كورته وارساله مخفورا ... (واكتب الى صاحب الكورة التي جاءوا منها حول ارسالهم اليه ومن ثم اعادتهم الى قراهم التي هربوا منها . واحرص أن يكون كل اهتمامك لهذا الامر واكتب بدقة تامة حول عددهم لكي لا تتحمل أية مسؤولية ، واذا ما وجد رسولنا منهم شخصا واحدا فان العقاب الذي ينتظرك سيكون شديد » . والرسالة تعود لسنة ٩١/٧١٠(٤٥) . وتفصل الوثيقة رقم (٢) ضمن المجموعة نفسها الحديث عن قضية الهاربين فتقول : ـ « ... فقد أرسلنا الى أسفل الارض أشخاصا لكي يقوموا باعادة كل الاشخاص الذين هربوا من أرضك خلال العشرين سنة الماضية . وعند وصول كتابنا هذا اليك أبعث فورا ثلاثة من الرجال الموثوقين للبحث عن الهاربين وليعرفوا من أي القرى هربوا ... لاستلام من يعثر عليه ومعرفة أعدادهم لاعادتهم اليك بعد تسجيل أسمائهم ، واكتب الى رؤساء قراهم ليؤمنوا سكنهم لمدة شهر وسنقوم ان شاء الله بدفع التكاليف لهم . واذا وجد شخص من كورتك غادرها في العام الماضي وعرف أهل قريته مكان اقامته فاكتب لنا عنه مع اسم المكان الذي هرب منه لنرسله اليك ... » ويبين في نهاية الرسالة أن الذي قدم له المأوى مكلف بدفع غرامة ثقيلة(٤٦) ، ونود هنا أن ننوه أن ملاحقة الهاربين تعود الى من هرب من قريته قبل

عشرين سنة وليس الهاربين حديثا ، اضافة الى أن الدولة حاولت تقديم المأوى العاجل للهاربين لمدة شهر مما يذكر بما فعله الحجاج من تقديم السلف للفلاحين . وهنا تبدو المعونة للمساعدة على اعادة ترتيب أوضاع المعادين الى قراهم .

أما البرديـات التي نشرها Bell في مجلة Der Islam مترجمة من اليونانية الى الانكليزية ففيها كثير من الوثائق التي تلقي ضوءا ساطعا على تدابير قرة بن شريك ضد الهجرة التي أراد السيطرة عليها . ولكنه لم يوفق كما يبدو ، وهذه الوثائـق والتي تمثل رسائل الوالي المتضمنة الاوامر الصادرة بشأن الهجـرة تعود لسـنتي ٩٠ـ٩١ ، ونظرا لاهميتها في اجلاء الصورة هنا نرى استعراضها مباشرة :ـ

تتحدث البردية رقم ١٣٨٤ عن غرامات فرضها قرة على الهاربين ومن يساعدهم على الهرب أو يتوانى في منع الهرب من مسؤولي الكور ، وتشجيع عملية البحث عـن الهاربين برصد الجوائز لمن يدلي بمعلومات تعين علـى القـاء القبض عليهم . تقـول الرسالة ... (عند استلامك كتابي هذا أجمع الزعماء والجيش في كورتك واقرأ عليهم هذه الرسالة ومرهم أن يكتبوا نسخة عنها لكـل مكان في كورتك لتقـرأ على الناس وتنشر في كنائسهم) ثم يطلب ارسال من لديهم من الهاربين خلال مهلة محددة (واذا أثبت بأن لديهم هاربا فسجل اسم كل واحد منهم واسم والده والمكان الذي هرب منه وغرمه ٥ سوليدوس واجلده ٤٠ جلدة وأرسله الينا مخفورا) ... ثـم يتابع أمره : (لذا فاننا سنرسل رجلا الى كورتك لاجراء تحقيق دقيق بخصوص الهاربين واذا وجد أن أي شخص قد دخل كورتك بعد اصدار القائمـة فيجب تغريمـه ٥ سوليدوس والشخص الذي قدم له المأوى ١٠ سوليدوس وزعماء قريتـه والشرطة التابعة لـه يغرم كل منهم ٥ سوليدوس) ، ثم يعلن مكافأة لمـن يدلي بمعلومات عـن أي هارب ٢ سوليدوس ، وتنتهي الرسالة كعادة قرة في الرسائل العربية أيضا بالتهديد والوعيد اذا ما بدى من صاحب الكورة أي تقصير في تنفيذ ما صدر اليه من أوامر (٤٧) .

وتطلب الوثيقة رقم ١٣٣٤ من المرسل اليه أن يحضر الى الفسطاط ويحضر معه سجلا بأسماء الهاربين من كورته كاملة ، وذلك ضمن التقرير الذي يجب احضـاره عن أموال الكورة(٤٨) . وتحمل البردية رقم ١٣٤٣ أوامر أكثر تفصيلا مما سبق فيما يتعلق بموقف الدولة من الجلاء أو كيفية معالجته وتبدأ بالحديث عن الهاربين ، مع العلم أن بداية الوثيقة مفقودة ، اذ أمر صاحب الكورة « .. بارسالهم الينا مع عائلاتهم واكتب سجلا بأسمائهم الكاملة والاماكن التي هربوا اليها من كورتك ومقدار ممتلكاتهم بحيث يتضمن السجل أسماء كل من وجد في الكورة منتهكا للاوامر التي اصدرناها والزمن الذي مضى على هروبه في الكورة وما يملك واسماء من سـمح له بالبقاء في كورتك .. ثم يقول : أننا أمرنا رسولنا أن لا يغادرك حتى ترسل معه كل الاشخاص حتى اخرهم من عثر عليه في كورتك منذ عشرين عاما وما بعدها وترسل معه أيضا في

سجل خاص اسماء جميع الاشخاص الذين سيتم ارجاعهم .. وبعد الحديث بلهجة التهديد في حالة التقصير بفرض الغرامات المالية والعقاب على الهاربين والمسؤولين في كورتهم ومن يأويهم يطلب الوالي قراءة الرسالة على جميع سكان الكورة ونشرها في كنائسهم ، يقول :.. وإن شاء الله أننا لن ندع كورة من كور مصر الا وسنرسل لها الرجال الاكفاء والعمال المخلصين مع تعليمات بالتفتيش والبحث عن الهاربين بكل حرص ودقة . وسنقوم بتخصيص مبالغ كبيرة لكل من يقوم بالادلاء بمعلومات تتعلق بالهاربين الذين أمرنا بترحيلهم . وكل من يصل الينا أنه قدم المأوى لهارب بعد رجوع رسولنا الينا فانه سيرى أن الاموات محظوظين عندما يواجه العقاب الذي ينتظره لقاء عصيانه الاوامر »(٤٩) ، ويبدو أن كل هذا التهديد لم يجد نفعا ولم يؤد الى نتيجة مرضية ، لذا نرى الوالي يرسل رسالة أخرى وتحمل رقم ١٣٤٤ يشكو فيها بوضوح من عدم تنفيذ الاوامر وأن صاحب الكورة لم يقم بارسال أي من الهاربين اليه .. ويبدو أن الوالي لم يبق لديه الا التهديد بالرسائل ربما لان الامور وصلت درجة من عدم الانضباط جعلت أوامره دون جدوى ، لذا نجده يقول : « .. لذلك قم بحث الاشخاص في كورتك فيما يتعلق بأمر الهاربين من أنصنا لان أيا منكم لن يجد له عذرا فيما اذا عثر في المكان الذي يعيش فيه على أي من الهاربين سواء في كرمه أو ساحة بينه أو بستانه فأحرص على حياتك وحياة أهل كورتك»(٥٠) . وهذا يذكرنا بما ذكره ساويرس بن المقفع عن تعليمات أسامة بن زيد عندما طلب عدم ايواء الهاربين(٥١) . وتمثل بردية قبطية ايصالا بوصول الهاربين المعادين الى أماكنهم ، اذ أرسلت رسالة الى الوالي بخصوص بعض العائلات التي هربت الى طيبة ولكنها أعيدت من قبل حاكم المدينة الى قراها الاصلية . وتمثل هذه الوثيقة اثباتا بأن جميع هذه العائلات قد عادت فعلا ،ولذا قلنا انها تمثل ايصالا باستلام هذه العائلات فعلا(٥٢). ومن هذه الوثيقة نلاحظ بعض النجاح في ملاحقة الهاربين .

إن مثل هذه المراسلات لدليل واضح على مدى اتساع المشكلة وعلى ضيق الدولة من استفحالها . فقد بينت الوقائع أن هذه الاجراءات لم تتمكن من ايقاف الهجرة ، على الرغم من صرامتها ، والغرامات التي كانت تفرض على الهاربين وعلى من يأويهم ومن يتغاضى عنهم ، وعلى الرغم من اعلان الجوائز لمن يدلي بمعلومات تسهل مهمة التفتيش ، واللجان الخاصة التي شكلت لالقاء القبض على الهاربين واعادتهم . وتشعر الوثائق أن نجاح هذه الاجراءات كان ضئيلا ، كما تدل أن الادارة سمحت للبعض بالبقاء في مناطق الاقامة الجديدة مع التذكير بأن عليهم دفع التزاماتهم (بخاصة الجزية) فيها ، وقد يفهم من هذا اعتراف الدولة بعجزها تجاه الهجرة ولو ضمنيا. والدليل ان الدولة اضطرت للتعامل مع الواقع الجديد أن بعض القوائم الضريبية أشر فيها مقابل بعض اسماء المكلفين بكلمة « ساح »(٥٣) أي أن المعني ترك مكان اقامته وذلك

لحصر وتدقيق الضرائب كما نعتقد ، ورغم أن هذه الوثيقة تعود لفترة لاحقة الا أنها تدل على أن عملية الهجرة استمرت فيما بعد حتى ان المخزومي الذي وضع كتابه « المنهاج » في أواخر القرن السادس الهجري يتحدث عن مسألة الهاربين وعملية حصرهم في السجلات الضرائبية ويسميهم الهراب(٥٤) . ويبدو من أحد التقارير، الذي كتبه بعض الموظفين المسؤولين عن ملاحقة أحد الهاربين ، ان مسألة الفقر لا تمثل أساس الهجرة أو لا تحتل الدرجة الاولى على الاقل بالنسبة لهذه الحالة ، وهي تتحدث عن ملكية هذا الشخص الذي هرب واسمه جرجه جاء في تقرير الموظفين المكلفين بملاحقة الجلاء الى رئيسهم ما يلي : (.. فدخلنا في قريته .. فوجدنا له ١٦٢ ضانية و ٦٢ خروفا ومن البقر ٢٥ بين صغير وكبير وسبعة من البراذين وثلاثة أجمال وبكرا وخمسة أحمور بين صغير وكبير)(٥٥) . فلماذا يهرب من يملك كل هذه الماشية رغم أن التقرير لم يتطرق الى ملكيته من الارض ونستطيع أن نقول باطمئنان أنه لم يغادر قريته هربا من الجزية لانه قادر على دفعها من جهة ولان الجزية لا تسقط عنه بالهروب كما لاحظنا مما سبق من وثائق . ولذلك لابد أن يكون هروبه لسبب اخر فهل كان سوء الاوضاع الاقتصادية بشكل عام..؟، وهل كان العمل في الارض والماشية غير كاف لتلبية متطلبات الحياة اضافة للوباء . فهل كان الغلاء والوباء وراء استفحال الهروب ، أو السعي الى المدن سعيا وراء كسب أسهل ؟ . كل ذلك ممكن وان كنا نعتقد أن الغرض الاخير قد يصدق على العراق باللجوء نحو البصرة أو الكوفة ، ولكن الهجرة هنا مختلفة اذ ليس لدينا أي نوع من التذمر حول مجيء أهل القرى للمدن كالفسطاط ، ولكن هروبهم كان نحو الكور الاخرى التي لا تختلف من حيث ظروف المعيشة عن المنطقة التي هاجروا منها ، ولذلك فهذا مستبعد بالنسبة لهجرة الفلاحين في مصر . أما سوء الاحوال العامة وعدم مقدرة الارض على اعالة أهلها وتقديم ما عليهم من تكاليف فتبدو هنا أكثر قبولا ، لاننا عثرنا على وثائق يطمئن مصدروها الهاربين بأنهم لن يطلب منهم شيء سوى الجزية اذا ما عادوا الى قراهم(٥٦) .

وأخيرا نود أن نبين أن الوثائق كانت تتحدث باستمرار عن الصعيد في حين يمكننا القول أن الصورة اكتملت عن طريق ما رواه ساويرس بن المقفع لانه تحدث عن مصر السفلى ، ولا حظنا توافق ما رواه في كثير من الاحيان مع ما ورد في الوثائق الرسمية .

ويمكننا أن نتحدث عن سوء الاحوال الاقتصادية بناء على ما ذكره ساويرس الذي بين أن هذه الاحوال ساءت ابتداء من أيام عبد الله بن عبد الملك عندما تحدث عن القحط وغلاء الاسعار الذي اجتاح مصر سنة ٨٧هـ(٥٧) ، اضافة لما ذكره ابن تغري بردي من أن النيل بلغ أقل من أربعة عشر ذراعا في سنة ٨٦هـ ، وفي السنوات الثماني

التالية لم يصل فيضان النيل الى السبعة عشر ذراعا الا مرة واحـدة(٥٨) ، ومصر لا تروى الا عندما يصل النيل الى الثمانية عشر ذراعا . ولذلك لاحظنا تفاقم الهجرة وزيادة مدتها في هذه الاونة خاصة أيام قره بن شريك ، الذي انشأ ادارة خاصة وجعلها بادارة شخص يذكره ساويرس باسم عبد العزيز من سخا ، وكانت مهمته ملاحقـة الهاربين والقاء القبض عليهم وفرض عقوبـات صارمة وغرامـات عليهـم وعلى مـن يتستر عليهم ، ثم اعادتهم لقراهم(٥٩) ، ومع كل ذلك لم يكتب لقرة النجاح بايقاف الهجرة لذا تابع خلفاؤه أسـامة بن زيد وعبيد اللـه بن الحجاب وابنه القاسم المهمـة باجراءات أكثر حزما ، أما في العراق فأننا نعتقد أن مشكلة الهجرة كانت أضيق نطاقا وامكانية السيطرة عليها اكبر لانها كانت من القرى الى المدن ولذلك كانت الاجراءات اكثر نجاحا مع أنها لم توقفها تماما .

* * *

الهوامش

(١) الطبري ، محمد بن جرير (٣١٠هـ) **تاريخ الرسل والملوك** ، ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٠ ، جـ٦ ، ص ٣٨١ (الطبري) أنظر صالح أحمد العلي - **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري** ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٢٣٣ (صالح العلي ، التنظيمات) .

(٢) ساويرس بن المقفع (القرن الثالث الهجري)، **سير آباء الكنيسة القبطية في الاسكندرية** ، تحقيق س.ف سيبولد ، لبسالا ١٩٠٤ ص٨ (ساويرس) .

(٣) ساويرس ص ١٤٣ انظر المقريزي ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (٨٤٥هـ) ، الخطط المقريزية ، جزءان ، مطبعة بولاق ، القاهرة ١٨٥٣ ، أوفست ، جـ٢ ، ص٤٩٣ (المقريزي، الخطط) .

Grohmann, Adolf. **probleme der arabischen papyrusforschung, Archiv orientalni** Vol. 6. 1934. p. 128 (Grohmann, Av. or.)

(٤) ساويرس ، ص ١٤٥ .

(٥) ساويرس ، ص ١٤٩ .

(٦) أنظر الوثائق في ثنايا البحث

(٧) ساويرس ، ص ١٤٩ .

(٨) ساويرس ، ص ١٥٠ .

(٩) ساويرس ، ص ١٥١ .

(١٠) ساويرس ، ص ١٥١ .

(١١) ساويرس ، ص ١٥١ .

(١٢) ساويرس ، ص ١٥١ .

(١٣) ساويرس ، ص ١٥٢ .

(١٤) ساويرس ، ص ١٥٤ .

(١٥) جروهمان ، أدولف ، **أوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية** ، ٦ أجزاء ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، جـ٣ ، ص ٨ (جروهمان ، أوراق البردي العربية).

Becker, C. H. , **Neue arabische papyri des Aphroditofundes** , Der Islam Vol. 2 , 1911 , p. 256 Nr. 4 (Becker , NAPA , Der Islam) .

Arabische papyri des Aphroditofundes, Zeitschrift für Assyriologie , Vol. 20 , 1907. p. 83. Nr. 7 (Becker , PAF , ZA) .

Becker, Papyri Schott-Reinhandt I , Heidelberg , 1906 (Becker, PSRI) .

(١٦) البلاذري - أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩ هـ) **فتوح البلدان** ، تحقيق دي غويه ، بريل - ليدن ١٨٦٥ ص٢٩٢ - ٢٩٣، ٢٩٤، (البلاذري، فتوح) .

أنظر قدامة بن جعفر الكاتب (٣١٦ هـ) **الخراج وصنعة الكتابة** ، تحقيق محمد حسين الزبيدي ، بغداد ١٩٨١ ص ١٦٩ - ١٩٧٠ (قدامة بن جعفر - الخراج) .

(١٧) قارن مع الطبري ، جـ ٦ ، ص ٢٥٧ .

(١٨) جمال محمد جودة ، **العرب والارض في العراق في صدر الاسلام** ، عمان ، ١٩٧٩ ، ص ١١٣ جمال جودة ، العرب والارض) .

(١٩) صالح العلي ، التنظيمات ، ص ٢٣٣ .

(٢٠) **هنا يجب ملاحظة ذكر البصرة تحديدا ربما لتفشي الهجرة اليها .**

(٢١) الطبري ، جـ٦ ، ص ٣٨١ ، أنظر صالح العلي ، التنظيمات ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢٢) الجهشياري ، محمد بن عبدوس (٣٣١هـ) ، **الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٠ ص ٥٧ . (الجهشياري) .

(٢٣) المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ)، **الكامل في اللغة والادب** ، جزءان في مجلد

واحد ، مكتبة المعارف ، بيروت ؟. جـ١ ٢٩٧ (المبرد ، الكامل) .

(٢٤) ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (٢٧٦ هـ) ، **المعارف** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧، ص ٦٠١ (ابن قتيبة ، المعارف) ، الطبري ، جـ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٢٥) ساويرس ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

(٢٦) ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي (٣٥٦هـ) ، **صورة الارض** ، دار مكتبة الحياة، بيروت ص٢١١ .

(٢٧) ابن رستة ، أحمد بن علي (٢٩٠هـ) **الاعلاق النفيسة** ، تحقيق دي غوية ، بريل — ليدن ١٨٩١ أوفست مكتبة المثنى ، بغداد ض١٠٥ (ابن رسته).

(٢٨) انظر لتفصيل ذلك ، جمال جودة ، العرب والارض ص ١١٥ .

(٢٩) انظر :
F. Hussein, **Das Steuersystem in Agypten von der arabischen Eroberung bis zur machtergreifung der Iulunden 19 - 254/639 (mit besonderer Berücksichtigung der Papyrusur - Kunden)** Verlag Peter Iang, Frankfurt/M-Bern. 1982 , p. 160 (Hussein , Das Steuersystem in Agypten ..)

(٣٠) قارن مع جمال جودة ، العرب والارض ص ١١٥ :

(٣١) الجهشياري ، ص ٥٧.

(٣٢) ساويرس ، ص ١٤٣ ، المقريزي ، خطط جـ٢، ص٤٩٣ .
Grohmann, Ar. Or, Vol. 6. p. 128.

(٣٣) Till, **W. Die koptischen Ostraka der Papyrussammlung der Österreichischen Nationalbibliothek ,** Denkschr. Bd. 78, Abt, I. Wien, 1960, P. 535 Nr. 10, P. 532 Nr. 1 (Till, KOS) .

قارن مع فالح حسين ، **حول الجزية والخراج بمصر في القرن الاول الهجري** ، **المجلة العربية للعلوم الانسانية** ، مجلد ٨ عدد ٣٠ ، ١٩٨٨ ، ص٧٧ وانظر أيضا في الهامش رقم ١٦ (فالح حسين ، حول الجزية والخراج ، المجلة العربية للعلوم الانسانية) .

(٣٤) Grohmann , Ar. Or. Vol. 6, p. 147 - 148 .

(٣٥) جروهمان ، أوراق البردي العربية جـ٣ ،ص ١٣٥ وثيقة رقم (١٨٠) .

(٣٦) Becker , PSRI , p. 108 - 113 Nr. a - m .

وانظر جروهمان ، أوراق البردي العربية ، جـ٣ ، ص ٤٨ — ٤٩ وثيقة رقم (١٦٠) ص ٥٢ رقم ٦١ ص ٥٤ ، رقم (٦٢) ص٥٥ ، رقم١٦٣.

(٣٧) جروهمان ، أوراق البردي العربية ، جـ٣ ص ١١٩ وثيقة رقم ١٧٥ وانظر ص ١١٦ الوثيقة رقم ١٧٤ المؤرخة سنة ١٠٣ هـ واومدة الاجل فيها خمسة اشهر من شعبان الى ذي الحجة من نفس العام . وانظر أيضا :
Becker , PAF , AZ, Zo , p. 102 - 103 Nr. 7.

(٣٨) Till , W. **Die Koptische Rechtur kunden der papyrussammlung der Österreichischen Nationalbibliothek,** Wein , 1958 p. 27 - 28 (Till, KR) Hussein, Das Steuersystem in Ägypten - p. 164 .

(٣٩) Grohmann , Adolf. **Aprecu de papyrologie Arabe , Etudes de papyrologie,** Cairo ,1952 p. 50 (Grohmann, Apreçu.)

(٤٠) Grohmann, Ar. Or. Vol. 6. p. 392

(٤١) Becker , NAPA , Der Islam , 2, p. 257 - 258 . Nr. 6
PAF , AZ , Zo p. 96-97 , Nr. 16, PSRI , p. 96 Nr. 12

جروهمان ، أوراق البردي العربية ، جـ٣ ، ص ٢٣ – ٢٤ وثيقة رقم ١٥١ .

(٤٢) Becker , NAPA , Der Islam , 2, p. 263 Nr. 10 .

جروهمان ، أوراق البردي العربية ، جـ٣ ، ص ٢٥ – ٢٦ وثيقة رقم ١٥٢ .

(٤٣) المقصود هنا الجزية بالذات كما بينت الوثائق الاخـرى .

(٤٤) Bell , H. I. **Translation of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum,** Der Islam, 2, P. 269-70 (Bell, Der Islam) .

(٤٥) Zereteli , G. **Papyri Russ-Georg. Sammlung, Die Kome-Aphrodito Papyri der Sammlung lichacov 11,** p. 6-7, Nr. 1 (Zereteli) .

(٤٦) Zereteli , p. 9-10 Nr. 2

(٤٧) Bell, Der Islam, 2, p. 379-80

وانظر أيضا الوثيقة رقم ١٣٨٢ ص ٣٧٩ .

(٤٨) Bell, Der Islam, 2, p. 273 .

(٤٩) Bell, Der Islam, 2, p. 274-75 .

وهذا يذكر بالعقاب الذي تحدث عنه ساويرس أيام قره وبعـده .

(٥٠) Bell, Der Islam, 2, P. 275 - 76.

(٥١) انظر ساويرس ص ١٥١ .

(٥٢) Kenyon , **Greek papyri in the British museum, Catalogue withe texts Vol. IV , London , 1917 .**

حيث نشر Kenyon فيـه بعض الوثائق القبطية الى جانب الوثائق اليونانية التـي نشـرها Bell .

(٥٣) انظر جروهمان ، أوراق البردي العربيـة ، جـ٤ ، ص ١٤٠ – ١٤١ ، وثيقة رقم ٢٥٠ .

(٥٤) المخزومي ، علي بن عثمان بن يوسف القرشي المخزومي (٥٨٥هـ) ، مخطوطة ، **المنهاج في علم الخراج بمصر** ، مكتبة المتحف البريطاني رقم Add 23483 ورقة ٧٨ وجه

(٥٥) وهي غير مؤرخـة

Grohmann , Ar. Or. 6, p. 148 .

(٥٦) قارن مـع

Till, W, KR., p. 48 , 215 , 218 , 224 , 225 , 228 .

Till, Koptische Schutzbrefe Mitteilungen des Deutschen Instituts für Ägyptische Alterumskunde in Kairo. Bd. 8, Berlin, 1939, p. 84-85 Nr. 18 , 20 , 21 , p. 88, Nr. 22-28. P. 93 Nr. 39-40, P.95, Nr.41

Crum, W. E. **Coptic Ostraca « From the collections at the Egypt Exploration - Fund » .** London, 1902 p. 21 Nr. 108, 110.

Hussein, Das steuersystem in Ägypten , p. 160 .

(٥٧) ساويرس ، ص ١٤٥ .

(٥٨) ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ) .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٦ بالاوفست جـ ١ ص ٢١٣ وما بعدها .

(٥٩) قارن مع ساويرس ص ١٤٩ .

طريق الحرير ١٩٩١

الطريـق وسـيلة وصـل حضارية بين الشعوب

د. ساطع محلي
جامعة دمشق

الطريق شرط أساسي من شروط استمرار الحياة ، عليها يقضي المرء جزءا كبيرا من حياته ، وبوجودها يتقدم الانسان ويزدهر نشاطه ، وفي غيابها نكبة وعزلة قاتلة . وهي وسيلة طيبة للمعرفة والكشف ونقل البضائع والمتاع والافكار ، بواسطتها تمزج الثقافات ويتصل الانسان بالانسان في الاصقاع القريبة والبعيدة على سطح الارض . وهي ما زالت في عصر الفضاء ، بأشكالها ودرجاتها المختلفة ، لم تفقد أهميتها على مر الزمان . قطعها الناس مشيا على الاقدام وعلى ظهور الحيوانات ثم ، مع اختراع الدولاب ، بوسائط النقل المختلفة ، من العربة الى القطار الحديدي ، ثم بالسفينة والسيارة ..

وقد ازدهرت في تاريخ العالم طرق برية مهمة كانت تصل بين مناطق النشاط البشري القديمة ادت الى نشوء عدد كبير من المراكز العمرانية المستقرة كمحطات لقوافل المسافرين والبضائع في الاماكن التي كانت تتمتع بظروف طبيعية مناسبة يتوافر فيها الامن . وكانت هذه الطرق تتحاشى الاخطار وتتجنب مصاعب الطبيعة بوسائل مختلفة أهمها الانتقال من مكان الى مكان ، اذ لم تكن ، بمعظمها ، مقيدة بمسارات ثابتة على الارض الا في الامكنة التي لا يمكن التحول عنها ، كالخوانق الجبلية ومعابر الانهار . فهي في هذا المعنى حرة طليقة تسير حيث يسهل السير وتتوافر لها الحماية والطقس المناسب والماء والغذاء .

وأكثر الطرق شهرة في الماضي كانت تلك الطرق ذات الصفة الدولية ، أي التي وصلت بين الشعوب وانتقلت عليها ، بالاضافة الى البضائع ، الثقافات والافكار ، وعليها سارت قوافل التجار والمكتشفين والباحثين عن المعرفة والدعاة الى الدين قبل أن يستخدمها المحاربون والطامعون في ثروات الاخرين . وبذلك كانت طرق التجارة هي الاكثر مرونة لاستيعاب جميع النشاطات الانسانية تقريبا .

لقد تحدث الناس على طريق الكهرمان ، وهو نوع من الحجارة الكريمة خفيفة

(*) شارك د. ساطع محلي في بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » التي نفذتها منظمة اليونسكو الى آسيا الوسطى عام ١٩٩١ .

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١ .

الوزن زجاجية الشكل بنية اللون ، أصلها من تحجر صمغ الاشجار الصنوبرية الذي كانت تقذف بها أمواج بحر البلطيك على شواطىء القسم الشرقي من أوربا الشمالية. وتحدثوا على طريق القصدير الذي كان ينقل قصدير انكلترا الى البر الاوربي مارا بأودية أنهار الالبي والراين والسين والرون والدانوب ، وعلى طريق الملح والذهب ، الذي كان يعبر الصحراء الكبرى قادما من شواطىء البحر المتوسط قاصدا الى وسط القارة الافريقية والسودان . وهناك الطرقات الرومانية التي كانت تصل بين أجزاء الامبراطورية الرومانية المختلفة وتستخدم للتجارة أيضا ، وان كان الهدف الرئيسي من انشائها في الاساس السيطرة على المستعمرات وخدمة الاغراض العسكرية، ويقال بأن طولها بلغ في زمن تراجان ٨٠ الف كم ، ومنها أجزاء تشاهد حتى الان في أماكن كثيرة في القطر السوري بما يبدو من بقاياها المرصوفة بالحجارة الكبيرة وما بقي عليها من جسور وشواهد مادية أخرى .

ومثل هذه الطرقات عرفتها القارات الاخرى ومنها بلاد العالم الجديد ، ففي أمريكا الجنوبية اشتهر شعب الانكا بانشاء شبكة من الطرق التي تصل مناطق كثيرة في مرتفعات جبال الانديز بعاصمة دولة الانكا القديمة ، مدينة كوزكو . وهي الطرق التي استخدمها فيما بعد الاوربيون للتوغل في البلاد الحديثة والاستيلاء على الارض ونهب ثرواتها .

وقد انفرد من الطرق في التاريخ طريق رئيس وطرق فرعية عبرت اسيا من شرقها الى غربها ومن غربها الى شرقها ، وأتى ذكرها بأسماء مختلفة منذ ما قبل ميلاد السيد المسيح الى عصرنا الحاضر . لقد أخذت هذه الطرق اسماءها من غلبة هذا النوع أو ذاك من البضائع التي كانت تنقل عليها بوسائل النقل التقليدية المعروفة ، وهي الجمال والخيول والبغال . فهي طرق للشاي والتوابل والذهب والحجارة الكريمة، وبخاصة طرق للحرير ، وهي من جهة اخرى طرق التواصل الحضاري ونقل المعرفة، وفي الاوقات العصيبة طرق الجيوش أيام الحرب .

ومن الطرقات الاكثر شهرة في العالم القديم قبل الاسلام وبعده تلك التي كانت تنطلق من الجزيرة العربية في الشتاء والصيف الى البلاد المجاورة وتعود اليها ، وتسير عليها قوافل تتجه الى الجهات الاربع لاسيا واسيا الصغرى وأفريقيا ، في رحلات منظمة دخلت أخبارها في كتب التاريخ واشتهر منها ، غير ما اشتهر من أصناف التجارة ، أصناف من المقاصد النبيلة التي دخلت في باب التراث العربي الاسلامي خدمت الدين والمعرفة والعلم والادب .

مسار طريق الحرير : من خلال المواقع والمراكز البشرية عليه

لم يعد الاعتقاد القديم ساريا بوجود طريق واحد للحرير يصل بين الصين

والغرب، ظل محافظا على مساره طوال مئات السنين . والطرقات التجارية الاخرى التي كانت تسير عليها القوافل الى الجنوب والجنوب الغربي نحو بلاد فارس والهند والاناضول وشبه الجزيرة العربية لا يمكن اعتبارها منفصلة عنه .

ويرى أوليغ Uhlig (١) ان طريق الحرير بدأ أول ما بدأ في شرق آسيا من قانصو في « جبال السماء تيين شين » الى ما يسمى بمنطقة الغابات في المناطق الاسيوية الجنوبية من روسيا ، ومنها الى مصب نهر الدون ثم الى بحر أزوف ، ومن هناك يذهب فرع منه ليصل مناطق شمال آسيا بأوربا الشرقية والشمالية .

ويؤيد أوليغ القائلين باتجاهات ثلاثة رئيسة لطريق الحرير : الاول الذي يربط الصين بالهند وجنوب شرق آسيا ، والثاني الذي يربط الدول الاسيوية القديمة بأوربا (أو ما يعرف بطريق الحرير الشمالي أيضا) ، والثالث الاتجاه الذي عناه فرديناند فون ريشتهوفن(٢) ، وهو الطريق الجنوبي لعبور القوافل بين الصين وغرب آسيا الذي اشتهر باسم « طريق الحرير ».

وهذه الاتجاهات الرئيسة الثلاث التي تشكل المحاور الكبرى يتفرع عنها عدد من الطرق الفرعية التي خدمت خلال التاريخ الغرض نفسه ووردت في المصادر اليونانية والرومانية والعربية . والقرائن التي تدل على الصلة بينها وبين الاتجاهات الرئيسة المذكورة سابقا وجدت في عدد من المكتشفات الاثرية وأكدت على الصلات الوثيقة بينها وبين بلاد طريق الحرير ومنتجاتها الحضارية الثقافية والمادية . وأهم هذه الفروع للتاريخ العربي والاسلامي هو الفرع الذي يتجه نحو الجنوب الغربي قادما من بلاد « ما وراء النهر » وجنوبي بحر الخزر الى بلاد فارس والرافدين وبلاد الشام.

يفترق هذا الفرع لطريق الحرير على جانبه الغربي في رأي أوليغ أيضا متجها الى مدينة مرو ويحاذي الشاطىء الجنوبي لبحر الخزر ويسير الى همذان ، في الشمال الغربي من ايران ، ثم يتفرع الى فرعين اثنين اخرين ، أحدهما يذهب الى سلوقيا باتجاه الخليج العربي بينما يتجه الفرع الاخر الاكثر أهمية نحو مدينة تدمر في بادية الشام التي كانت على الدوام مركزا تجاريا متقدما بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فيها تمر جميع البضائع تقريبا التي عرفها العالم القديم وليس بضائع طريق الحرير فقط ، وفيها يجري التبادل التجاري بين جميع المناطق الحضارية في منطقة اتصال القارات القديمة الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا . ويؤكد أوليغ على أهمية تدمر بقوله : « كانت تدمر نقطة التقاء الجميع وحافظت على غناها

(١) Uhlig, H. Dieseidenstrasse 1990.

(٢) Franz H. C., Diéseidentrasse 1987.

وازدهارها التجاري مئات السنين ، بل كانت أغنى وأجمل المدن المعروفة على طريق الحرير الغربي ، وهذا ما تؤيده الاثار العظيمة التي لا تزال حتى الان بادية فيها ... ومظاهر بناء مدينة تدمر تبدي الاهتمام بالجانب التجاري الرئيس فيها فوصفها بأنها مدينة الالهة عائد الى تلك الشوارع الضخمة ذات الاعمدة والاسواق الجميلة التي كانت ممتلئة بالبضائع المتجمعة فيها من جميع أنحاء العالم » ويقدر أوليغ المسافة التي كانت تقطعها القوافل بين عاصمة الصين وتدمر بمسيرة ست سنوات للذهاب والاياب . وهذه في رأيه مسافة قصيرة في ظروف ذلك الزمن لقرب تدمر من مراكز التجارة الاخرى في جنوب الاناضول والبحر المتوسط والبتراء والبحر الاحمر فيالطريق الى الاسكندرية . وهذه الاخيرة لم تكن أهميتها التجارية بالنسبة للبضائع الثمينة تقل عن مدينة روما .

ومهما يكن من أمر فان تحديد مسار طريق الحرير الدقيق مع فروعه كان صعبا ولا يزال كذلك لاسباب كثيرة منها القطيعة الطويلة التي سببتها حدود صعبة العبور خلفتها التطورات السياسية خلال العقود الاخيرة وخاصة وجود كتل كبيرة ثلاثيمر فيها الجزء الاكبر من طريق الحرير مثل الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي ودول أوروبا والبلاد الاخرى في غربي اسيا وجنوبها الاوسط . ومنها اختلاف اسماء المراكز العمرانية والمواقع التي وردت في تراث الدول التي مر بها طريق الحرير عن الاسماء المستخدمة أو المعروفة حاليا نتيجة لاسباب كثيرة منها التحريف الذي لحق بها ومنها الاخطاء التي حصلت في النسخ والطبع ، ونتيجة للترجمة والقراءات المختلفة للاسماء الواردة في لغات متعددة . ومعرفة المراكز العمرانية والمواقع ضروريةجدا لتحديد مسار طريق الحرير لانها في الواقع نقاط مهمة وعلامات لابد من اعتمادها لتحديد مسار أي طريق في الماضي وخاصة في أوقات لم تستخدم فيها في انشاء الطرقات مادة مقاومة للطبيعة تبقي على المسارات واضحة على الارض الواسعة التي تخضع لعوامل الطبيعة غير المناسبة لبقائها ، ولعوامل بشرية واقتصادية كثيرة أدت الى اندثارها عن عمد أو عن غير قصد .

وهناك نقطة اخرى تجعل من الصعب تحديد الطريق تحديدا تاما ، وهي الدمار الذي أصاب بعض المراكز العمرانية التي كانت ، في الماضي محطات للقوافل، وجعلها تختفي نهائيا من الواقع . ولذلك لابد من التأكد من مواقعها عن طريق دراسة ميدانية علمية دقيقة تشترك فيها أساليب التنقيب والاكتشاف لتحديد الصورة الصحيحة للمواقع في سبيل التوصل لمعرفة الواقع في الماضي .

فكثيرا من المواقعالقديمة اختفت اسماؤها الحقيقية بشكل أو بأخر على الرغم من وجود آثار لمواقعها . والخطأ يحصل عند الدراسة لاسماءلاحقة بعيدة عن الاسماء

الحقيقية لها ، فهي اما أسماء أعطيت لها وهي في الواقع مجاورة أو أنها اسماءتداولها السكان في أمكنة مجاورة أو ألقاب أطلقها عليها آخرون أخذوها من الطبيعة المحيطة بها ونسبوها الى أسماء وضعوها هم . . الخ . وبذلك ضاعت الاسماء الحقيقية مع الزمن ولهذا يقترح وولغرام ايبرهارد W. Eberhardt الذي صدرت له موضوعات كثيرة حول الصين وشعوب آسيا الوسطى ، أن يحل الخلاف على صحة الاسماء القديمة للمواقع والمعامر بالاعتماد على الحفريات والتنقيب والاستدلال على مواقع المراكز المندثرة بالقرائن الموجودة في الارض مثل الحجارة والوثائق والنقوش والمخلفات المادية المختلفة . فهذه المكتشفات تعطي معلومات كثيرة عن صحة المواقع وأدوارها وعلاقاتها بمواضيع الدراسة وتحديد الطرقات والمظاهر البشرية والاقتصادية التي كانت سائدة أثناء حياتهـا .

وقضيةالتنقيب والاستكشاف هذه لمعرفة مسار طريق الحرير والنشاطات الانسانية التي رافقته طوال العصور الماضية كانت مطلبا لعدد كبير من العلماءالمشتركين في بعثة « طريق الحرير ــ طريق الحوار ١٩٩١ » وكان من التوصيات الهامة الاولى التي وجهت الى منظمة اليونسكو مديد المساعدة على كشف المواقع الاثرية المندثرة أو التي أصابها الضرر في جميع أراضي آسيا الوسطى ، وانشاء معهد للبحث العلمي ومراكز دراسة متخصصة في آسيا الوسطى لهذا الغرض ، وجمع جميع ما كتب عن طريق الحرير وحضارات الشعوب التي لها علاقة به في جميع البلاد وجميع اللغات ومتابعة البحث لاستكمال المعلومات الصحيحة حول طريق الحرير منذ نشأته وحتى الان .

طريق الحرير والشروط الجغرافية

آ ــ المحاور الرئيسة والمحاور الفرعية : طريق الحرير اذن طريق تجاري رئيس بين مراكز حضارية مهمة في قارات العالم القديم ، أوربا وآسيا ، وتتفرع عنهطرقات الفرعية ظروف التطور التاريخي لشعوب المناطق التي تمر بهـا ، وبخاصة الشروط فرعية متشعبة تذهب في جميع الاتجاهات تقريبا ، وتتحكم في مساره الرئيس وطرقاته الطبيعية ، فتؤدي الى تعطل الحركة عليها أو تعمل على تحويل اتجاهاتها للمحافظة على استمرار عملها . الا أن الاتجاه الرئيسي فيه محور يتجه في البر من سورية ، الدولة الاكثر نشاطا ، والتي تمتلك مفرق الطرق التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . ففيها دمشق ، المنفذ الرئيس الى بلاد الحجاز والى مصر ، وانطاكية التي تسلم بضائع آسيا الى مراكب البحر المتوسط لتنقلها الى بريندیزي والبندقية وجنوه ومن ثم ، عبر الطرق البرية الاوربية ، الى مدينة قادش على المحيط الاطلسي ، وفيها تدمر التي تتجه بأبوابها الشرقية الى بلاد الرافدين لتسلم البضائع

الى ثلاث طرق تجارية للحرير فيها تأكد من وجودها المنقب الانكليزي سمبسون(*) . ومن بلاد الرافدين يتجه الطريق الى ايران وافغانستان والباكستان للاتصال بالمحور الاساسي في آسيا الوسطى .

في آسيا الوسطى يمكن أيضا أن نلمح مسارين رئيسين متوازيين يتجهان من الشرق ليلتقيان في الاناضول في الغرب ويخرج منهما فرع الى سيبريا الغربية وجبال الاورال . يمر المحور الرئيس الشمالي بعدد كبير من المدن الكبيرة التي ازدهرت في الماضي ولا تزال مزدهرة في الحاضر ، وبمدن اخرى ومراكز حضرية أو بدوية كانت عامرة وانقلبت مع تحول وظيفة الطريق وانقطاعة الى خرائب ومواقع أثرية تحظى الان باهتمام عدد كبير من المؤسسات العالمية في دول اسيا الوسطى والعالم .

يمر المحور الشمالي في رأي العديد من الباحثين بمدينة سمرقند (قديما افراسياب التي خربها جنكيز) ومدينة تاشكند بعد أن يقطع نهر سرداريا ويمربمدينة انديجان شمال مدينة قوش ويتابع سيره ليمر جنوب بحيرة ايسيكول والى قوتشا وكورلا وطرفان وهامي في الشرق باتجاه الاراضي الصينية جنوب منغوليا ، أي أن هذا المحور يسير في المناطق السهلية وسفوح جبال آسيا الوسطى (جبال تيبن شين الوسطى الشمالية) محاديا مناطق صحارى آسيا الوسطى . ويضطر الى عبور عدد من الاودية الواسعة (مثل وادي فرغانا) والمعابر الجبلية السهلة مستفيدا من المصادر المائية المهمة التيتأتي من الجبال فتوفر للعابرين مياه الشرب والاستعمالات المختلفة بالاضافة الى المصادر الغذائية التي يوفرها الرعاة مربو الاغنام والخيول ، وتوافر الجمال التي كانت ، مع الخيول ، وسائط نقل هامة في المناطق الجافة وشبه الجافة التي يمر بها طريق الحرير .

والمحور الغربي ـ شرقي الموازي الاخر يمر في آسيا الوسطى على السفوح الجنوبية لجبال آلاي وتيين شين وأوديتها المتطاولة وعابرها شمال جبال البامير الشاهقة متجنبا القمم والمرتفعات (يصل ارتفاعها الى ٧٤٩٥م) . ويتجه الى الشرق من مدينة كاشفر الى الاطراف الجنوبية من حوض تاريم الجاف مار بمدن جرقند وخوتان وتشيرشيك شمال جبال كون لون متجها الى تونهوانغ بالصين ليلتقي بالمحور الشمالي الآخر الذي أتينا على ذكره . ويلتقي هذان المحوران الرئيسان بطرق موازية أخرى تصل بينهما مثل الطريق المار بكاشفر نحو الشمال الشرقي الى مدينة أكسو

(*) في وثيقة علمية قدمها في احدى ندوات « بعثة طريق الحرير ١٩٩١ » في اسيا الوسطى . وقد سبق لسميسون أن عمل في القطر العربي السوري في تل النبي مند .

شمال نهر تاريم ، أو الطريق الذي يمر بالقسم الشمالي من أفغانستان شمال جبال هندوكوش فيعبر بلخ وقندس وشمال كشمير وجنوب جبال البامير باتجاه مدينة كاشغر .

هذه المحاور الرئيسة اختارت في آسيا الوسطى المسارات المضمونة ذات المناخ الملائم لسيرها معظم أيام السنة متجنبة الاراضي الجبلية ذات البرد القارس المكسوة بالثلوج ، كما تجنبت الصحارى الجافة عن طريق اختيارها للمناطق التي يضمن حكامها سلامة القوافل أثناء عبورها . وسيان لهذه الطرق ان مرت بالحواضر الزراعية والتجارية أو بالمناطق الرعوية ، فكلا الشكلين من المواقع قاما بدور المنظم الحامي لطريق الحرير خلال تاريخه الطويل* .

ب ـ طريق الحرير ـ طريق السهب :

يبدو أن الطبيعة لعبت الدور الاساسي الاول في تحديد مسار طريق الحرير في وسط آسيا . ولكن تظل الشروط الجغرافية الاخرى هي العوامل الاولى في ذلك التطور التاريخي الهام ، وعاملا الامن والسلامة في مقدمتها .

والشروط الطبيعية يمكن تلخيصها بشرطين اثنين . أولها طبيعة الارض وتوزع الجبال والوديان والسهول في آسيا الوسطى . وثانيهما المناخ والطقس وتوزع المياه والمصادر النباتية وما يتبع ذلك من نتائج تنعكس ايجابا أو سلبا على النشاط البشري،

---

* كان هذا موضوع الندوة العلمية الاولى في بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار ١٩٩١ » في مدينة خيوه بآسيا الوسطى بين ٢ ـ ٣ أيار ١٩٩١ بعنوان « أهمية محطات القوافل والمدن على طريق الحرير الشمالي » ، وموضوع الندوة العلمية الثانية للبعثة في مدينة ألما ـ آتا بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٩١ التي ركزت على العلاقات المشتركة بين المراكز الحضرية والرعوية على طريق الحرير . فالمراكز الحضرية والمراكز الرعوية قدمت في اسيا منجزات ثقافية ناضجة متقدمة في ميادين الفكر والفن ، والثقافة بعامة بين جميع المدن والواحات ومحطات القوافل والمراكز التي ثبتت على الارض ردحا كافيا أتاح المجال لظهور نشاطات ثقافية كنت تختص بها المدن عادة .

قدم في ندوة ألما ـ آتا العلمية ٢٧ موضوعا ركزت أفكارها حول رفض الفكرة السائدة عن الدور الضئيل الذي كانت تلعبه الشعوب الرعوية في المنجزات العالمية . ودافع عدد من المتحدثين عن الدور الايجابي للشعوب الرعوية خاصة السيد سمبسون الذي اعتبر أن طريق الحرير كان بمثابة المعبر لشعوب كثيرة . منها البدوية ، حملت الحضارة الى المناطق التي زارتها ونزلت بها . فالبدو كانوا ناقلي حضارة عالمية لا تعترف بالحدود على الكرة الارضية ، كذلك فعلت مصر وبلاد الرافدين ودول الشرق الادنى التي انتشرت فيها طرق القوافل ، ومنها الطريق بين خوارزم وسيبيريا الغربية والبلطيك . كما أكدت المؤرخة الروسية السيدة ليفيا على العلاقات الطيبة التي كانت للشعوب الاسيوية البدوية مع المستقرين في مناطق العبور وأيدها الاستاذ بورياكوف من المعهد الاثاري في مدينة سمرقند باعتقاده بوجود نظام كبير متوازن مترابط بين البدو والمستقرين .

وبصورة خاصة ما يتعلق بالزراعة والتجارة ونشوء المراكز المستقرة . ومنعكساتها على جميع أنواع النشاط الاخرى ، السلمية وغير السلمية .

لقد أدى تحرك الصفيحتين ، الاسيوية الجنوبية الهندية ـ الايرانية ـ الافغانية من جهة ، والروسية ـ السيبيرية الشمالية من جهة أخرى ، أثناء حدوث ما يسمى بالالتواءات الالبية الهملائية في الحقب الجيولوجي الثالث الى ظهور معقد جبلي التوائي مرتفع (وسطي ارتفاعه ٤٠٠٠م فوق سطح البحر) في الوسط في مناطق بامير والتائي والهمالايا وقره قوروم وهندوكوش وكون لون وتيين شين . وهذه الجبال المرتفعة شكلت بسبب ارتفاعها الشديد وغطاء قممها الثلجي طوال أيام السنة تقريبا عقبة أمام المواصلات بين الجنوب والشمال ، باستثناء ممرات جبلية قليلة عبر أودية ضيقة ليس من السهل الاحتفاظ بصلاحيتها للعبور دائما . وساعدت في ذلك بقاع سهلية في الجبال صغيرة المساحة صالحة للزراعة تستطيع تقديم الشروط الضرورية للمزروعات الغذائية . كما ساعدت على الانتقال المجاري الاولى لأعظم وأكبر الانهار في آسيا الوسطى التي تتجه نجو الشمال مثل المجاري العليا لنهري سرداريا وأموداريا (سيحون وجيحون) وروافدهما . وكذلك فعلت في اتجاهات أخرى حين عبرت مجاريها الدنيا مناطق سهلية منخفضة نسبيا قليلة الامطار يشرف عليها من علو « سقف العالم القديم » ، من أمثلتها صحارى قره قوم وقوزول قوم وتاكلاماكان وغوبي . فكان لزاما على « طريق الحرير » مسايرة تضاريس آسيا الوسطى والبحث عن أقل المعابر الجبلية مشقة وأكثر الاماكن سهولة وأمانا . وهذه الشروط كانت تقدمها أطراف الجبال وهوامش الصحارى الايرانية الطورانية والاراضي المنخفضة حول بحر آرال وبحيرة بالخاش .

ومن الامور المهمة التي أثرت في مسارات طريق الحرير واستمراريتها الشروط المائية . فمعظم الامطار التي تتأثر بها آسياا الوسطى تأتي من مصدرين بحريين هامين في الغرب هما : المحيط الاطلسي والبحر المتوسط . في حين تحجب سلاسل هندوكوش وقارا قوروم وهملايا ، الامطار الموسمية الجنوبية . وتلج الرياح الشمالية الى سفوح جبال تيين شين لتسهم في اعطائها غطائها النباتي الاخضر ، في حين تندر الامطار في المناطق الداخلية المنخفضة المؤطرة بالجبال مثل حوض تاريم الواسع (زهاء ٤٠٠كم٢) الذي تعزله جبال تيين شين في الشمال وبامير في الغرب وقره قوروم وكون لون والتون داغفيا لجنوب ، وتصل الى ارتفاعات شاهقة تتراوح بين ٧٠٠٠ـ٨٠٠٠م وتترك بينها أكثر صحارى آسيا الوسطى جفافا وهي صحراء تاكلاماكان ، التي لا تصل الامطار السنوية في غربها الى أكثر من ٦٥ مم في مدينة كاشغار مثلا ، والى ٩ ـ ١١ مم فيالشرق في المنطقة المحيطة بـ « لوب نور » .

وترتفع الحرارة في الصيف في واحة طرفان في أكثر المناطق انخفاضا (ـ ١٥٤م) الى ٤٧° درجة مئوية .

وهذه الظروف المناخية الشديدة التطرف تجعل السير صعبا في جو جاف ينتشر فيه الغبار وتقل المياه ، بينما تشتد الرياح المغبرة الرملية الناشئة عن التفاوت الحراري بين قمم الجبال المحيطة المغطاة بالثلوج والمنخفضات البالغة الحرارة . ومع ذلك لم يتقاعس تجار طريق الحرير عن انشاء المدن على أطراف الصحراء المذكورة الشمالية والجنوبية لتكون مراكز راحة وتموين بالماء والغذاء .

أما في الاودية والمعابر المرتفعة التي كانت تمر بها طرق الحرير الرئيسة والفرعية فكانت الظروف المائية أحسن حالا ، اذ كان الماء يتوافر في المجاري العليا للانهار التي يغذيها ذوبان الثلوج على الجبال المرتفعة ، وعشب الماشية والغذاء توفره السهول الخصبة على ضيقها في سفوح الجبال وبخاصة الشمالية ، بالاضافة الى الواحات التي كانت تعتمد على ري الانهار والاقنية الصنعية التي برع بها سكان آسيا على غرار ما كان يجري في بادية الشام في استنباط الماء الباطني وجره الى سطح الارض بطريقة ذكية .

ويعجب المرء حقا بالجهود التي بذلها في الماضي أناس استطاعوا ، على فقرهم وعدم امتلاكهم الادوات اللازمة للتعامل مع الارض الخشنة ، لحفر أقنية باطنية تحت الارض (كهاريز) ينفذ اليها من سطح الارض بفتحات شبيهة بفتحات الابار استعملت للحفر وتستخدم لصيانة القنوات وتوسيعها ، كانت تجمع المياه الباطنية من أماكن وجودها في ذيول المرتفعات الى الاماكن الاكثر انخفاضا في دهاليز تحت الارض محمية من التبخر والتلوث ، لتخرج الى سطح الارض مشكلة سواقي جارية تروي ظمأ المحتاجين وتسقي بساتين الخضار والفاكهة (بلغ عددها في واحة طرفان ١٢٠٠ وبلغ طول الواحدة منها بين ١ و ١٠ كم) .

هذا النوع من الاقنية الباطنية (الفجارات في شمال افريقيا) استمرت في الحاضر في شكل عدد كبير من أقنية الري الحديثة الكبيرة والصغيرة في آسيا الوسطى تنقل الى مساحات واسعة من المناطق الداخلية الجافة مياه الانهار الكبيرة مثل سرداريا ومورداريا ، ومياه كثير من البحيرات الداخلية العذبة المتخلفة عن الامطار وذوبان الثلوج ، بالاضافة الى استنباط الماء الباطني بالمضخات (هنا تذكر قناة قره‌قوم وفروعها التي يبلغ طولها زهاء ١١٠٠ كم التي يطمح لايصالها الى بحر الخزر) .

هذه الطريقة في استنباط الماء الباطني واسالته على سطح الارض في سواق مكشوفة تجري فيها مياه عذبة تحمل الحياة والخير للانسان والحيوان والنبات عرفتها في القطر السوري منطقة الغوطة في دمشق ومنطقة القلمون ومناطق أخرى كثيرة في

أطراف البادية السورية . والتقنية المستخدمة فيها هي نفسها في آسيا الوسطى لان الظروف الطبيعية السائدة هي نفسها . وهذا لا يمنع من قبول التفسير الذي يؤكد وجود صلة بين زراع البلاد المختلفة في العروض المختلفة نتيجة للاتصال التاريخي القديم بين الجماعات وتبادل الخبرات خلال حقبات طويلة ، عن طريق الرحلات والانتقال الكبير بين أقطار المشرق القريب والبعيد .

ولعل من الشروط الهدرولوجية الايجابية لمنطقةآسيا الوسطى وجود بحيرة آرال في بقعة واسعة ارتخائية منخفضة من الارض تحتلها رسوبات لحقية رباعية تحتفظ بصورة جيدة بالمياه القادمة اليها من محيطها الغني بالمياه وخاصة من مياه نهري أموداريا وسردريا ، أي النهرين اللذين استحوذا على اهتمام القدماء منذ عصر اليونانين تحت اسم أراكس Araxs وأكسوس Axus بسبب غزارتهما بالماء واستطاعتهما عبور مناطق شاسعة في مجار متحولة مترنحة كانت تتغير اتجاهاتها على الدوام فتؤثر من قريب أو بعيد على مناطق استقرار البشر وتجوالهم وهذا يفسر أيضا خراب عدد كبير من المراكز العمرانية التي ترى آثارها الان في مناطق بعيدة عن مجاري المياه ، وابتعاد مجاري الماء عنها هو السبب الرئيس في خرابها ، من بين أسباب أخرى منها عدم استقرار الامن وتحول طرق التجارة عنها .

وقد تحققنا من ذلك في رحلة خاصة بثلاث طائرات هيلوكوبتر حلقت فوق « سهب الجوع » باتجاه مدينة أبحاث الفضاء السوفيتية لينينسكي في موقع بايكانور بصحراء قزقستان ومراقبة الارض من الجو ، والهبوط في عدد من التلال الاثرية التي أجريت فيها تنقيبات أيدت بشكل أكيد بما عثر فيها من أدوات وبقايا بشرية وحيوانية نشوء مراكز عمرانية كثيرة محصنة في المناطق الغربية من سرداريا وأموداريا اللذين كانا يشقان طريقهما نحو بحر الخزر في العصور الغابرة قبل أن يتحولا نحو بحيرة آرال.

ومن البقايا التي عثر عليها هناك عدد من الآنية والحلي تدل على بقايا اسلامية تلقب في لغة المنقبين الاجانب بالتركية وفيها كسرات آنية مصنوعة من الزجاج السوري.

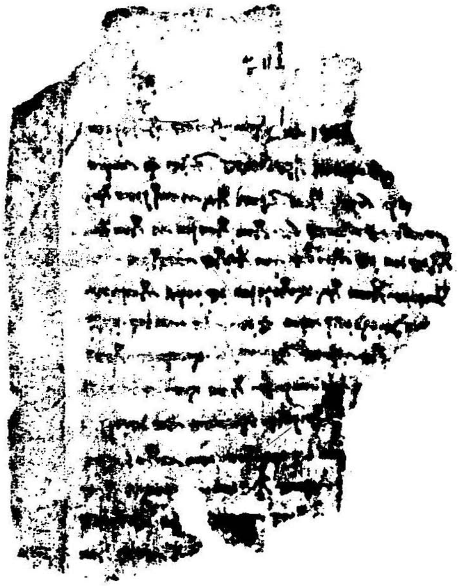
طريق الحرير في آراء علماء آسيا الوسطى
والعلاقة الوثقى بين شرق آسيا وغربها

نال « طريق الحرير » في نفوس المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب تقديرا خاصا لدوره في كشف البلاد البعيدة ونشر العقيدة واستقصاء المعارف وتبادل البضائع . وهذه غاية أشار اليها ابن خرداذبة في كتابه « المسالك والممالك » حين عدد ما كان يحمله التجار القادمون من الصين والهند من مسك وعود وكافور وذهب وحرير وبخور وقرنفل وحجارة كريمة ، في قوافل كانت في « مروج الذهب » للمسعودي

« متصلة من السند الى خراسان وكذلك الى الهند » ، وخاصة ما ارتصف على هذا الطريق من مراكز العمران الكبيرة الجميلة التي وصفها الادريسي بحماس في « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » في مثال مدينة بخارى التي « تزهى على المحاسن نظرا فرجة الارجاء والجهات كثيرة الاشجار والثمرات » ، وسمرقند « حسنة كبيرة على جنوب وادي السند فيها شوارع ومجالات وقصور سامية وفنادق وحمامات وخانات» وأيده في ذلك ابن حوقل في كتابه « صورة الارض » : « وهي مدينة فيها أسواق كبار وفيها ما في المدن العظام من المحال والحمامات والخانات والمساكن » .

وفي السنتين الماضيتين حظي طريق الحرير بعناية عدد كبير من العلماء فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي وخاصة في معاهد البحث العلمي والجامعات وأكاديميات العلوم ، في جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية قبل وأثناء التحضير لبعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » التي نظمتها اليونسكو لعام ١٩٩٠ و ١٩٩١ ، ودفعتهم الى التجاوب مع هذه المنطقة الثقافية الدولية في الهدف المعلن من قبلها ـ وهو الحوار بين الشعوب ـ السياسية الانفتاحية للدولة تجاه العالم ، وبخاصة الدول الغربية ، وجعلت العديد من علماء آسيا الوسطى يشتركون بحماس في تأييد الدور السلمي العالمي الذي كان لطريق الحرير في الماضي كصلة وصل بين الشعوب وما يمكن أن تسهم اللقاءات العالمية حول طريق الحرير في المستقبل في ترسيخ سياسة الوفاق الدولي وفتح ما كان منغلقا على العالم في آسيا أمام جميع الراغبين فيه .

والى « طريق الحرير » يعيد العالم سعدوليف A.S.Sagdulaev ازدهار النقل والتجارة وتجارة الترانزيت محليا ودوليا منذ القرن الثاني ق.م. وخاصة في باكتريا ومارغيانا والصفد ـ أي منذ بدأت حملات الاسكندر الاكبر ـ الى آسيا الوسطى ، ويركز بصورة خاصة على انتشار الافكار الروحانية ومظاهر الحضارات من بلاد فارس وبلاد الرافدين وبلاد آسيا الصغرى باتجاه آسيا الوسطى . وتذكّر السيدة مالكيفا Malkeeva بأثر الشعراء والحجاج من الاديان المختلفة ، بالاضافة الى الرحالة والتجار ، في نشر الثقافة بما في ذلك الموسيقى والغناء ، وتلك حقيقة يلاحظها المرء في التشابه بين الالات الموسيقية الوترية والمزامير المستخدمة في الهند وتركستان وآسيا الغربية (مثل آلة الدنبرة المستخدمة في آسيا الوسطى القريبة من البزق) . وكذلك يفعل شفيقياكوف A.I Schevyakov في تلمس التشابه الكبير في تراث وفولكلور شعوب المناطق ، وخاصة في القصص الشعبي والخرافات .



كتابة كنسية بالخط السيرياني القديم (اسطرنجيلي) عثر عليها في حوض تاريم
(متحف باليم في برلين)

وتدل بقايا النقود التي عثر عليها في بكتريا والصغد وخوارزم وغيرها على تشابه كبير فيما بينها يؤكد انتشار استعمالها في التجارة الرائجة آنذاك ثمنا للمواد الاساسية التي كان يرغب الناس في شرائها ومنها بشكل خاص الذهب والفضة والمرايا والبرونز والزجاج . وهذه المواد عثر عليها في أماكن كثيرة وواسعة جرى فيها التنقيب كما تقول السيدة بوغا شينكو فا G.A. Bugachenkova من بينها الزجاج السوري الذي وجد في التلال الاثرية في مناطق دلتات نهري سرداريا وأموريا (سيحون وجيحون) جنوب بحر آرال جنبا الى جنب قريبا من هياكل عظمية تعود الى فرسان قادمين من الغرب من تركيا* .

وثمة مظاهر أخرى في آسيا الوسطى تكاد تكون مألوفة تماما في الوطن العربي ، تظهر في التشابه الكبير في عادات الشعوب وتقاليدهما في الحياة اليومية ومواقفهما المشتركة بعضهما تجاه البعض الاخر وتجاه الشعوب المجاورة والقريبة . فالعقيدة

---

* والبلاد التركية بالنسبة للباحثين هناك هي البلاد الاسلامية الواقعة في الغرب والجنوب الغربي، وتعبير الثقافة التركية يعني الثقافة الاسلامية بغض النظر عن مصادرها الاصلية ، فهي ان أتت من الغرب في الكتابات الاجنبية (ومنها الروسية) تركية ولو كان مصدرها من بلاد الرافدين أو شبه الجزيرة العربية.

الاسلامية تجمع بين معظم الشعوب التي تسكن في المناطق المتاخمة لطريق الحرير . في هذه المناطق تقدس الحياة الاسرية وتتمتع المرأة بمكانة خاصة فهي دائما في الحياة العامة وراء الرجل ، ولكنها رئيسة للاسرة في جميع شؤونها البيتية الداخلية ، عليها واجب رعايتها وتنظيم البيت والقيام بالاعمال الكثيرة المطلوبة منها ، مع انصراف الرجل الى العمل خارجا للقيام بجميع الواجبات المالية تجاه أسرته .

ومن النشاطات المعتادة تنقل الرعاة وراء أغنامهم وخيولهم في المراعي التي يترددون عليها في نجعة تقليدية فيهاجرون مع حيواناتهم صيفا الى الاراضي المرتفعة والجبال ويعودون بها الى الاراضي المنخفضة شتاء ، تلازمهم وتخدم نشاطاتهم الخيام المصنوعة من اللباد (الصوف) الملون ، بالاضافة الى صناعة السجاد والمنسوجات اليدوية ذات الالوان الزاهية والملابس المزركشة ، وأغطية الرأس التي تستخدم في البيت والعمل وخاصة في الاحتفالات العامة .

والنشاطات اليومية متماثلة أيضا في جميع أنحاء آسيا الوسطى وهي قريبة من عادات الاجزاء الاخرى من آسيا ، من التعامل مع الجيران والاقارب وفقا للعادات القبلية والعصبية البدوية الى طريقة تنظيم الافراح والاتراح وتناول الاشربة والاطعمة.

ومما يذكر بالحياة البدوية المألوفة في الوطن العربي تشابه الاطعمة المعروفة والعادات المتعلقة بها واشتراك جميع جمهوريات آسيا الوسطى بها تقريبا في قزقستان أو قرغيزيا أو طاجيكستان أو أوزبكستان . هنا ينتشر لحم الغنم ، ولحم الحصان ، والحليب ومشتقاته ، وفي المقام الاول حليب الحصان أو ما يسمى هناك « الخمس » جنبا الى جنب مع أنواع الخبز المهيأة محليا وبأشكال مختلفة منها المالح والحلو ، وأنواع الاطعمة المصنوعة من الحبوب والخضار الغضة والمجففة والكثير من أصناف الطعام الاخرى .

ومهنة الرعي مهنة رئيسة في بلاد آسيا الوسطى على طريق الحرير . والتقاليد البدوية تبدو في معظم المظاهر العامة وتحكم التعامل داخل البيت وخارجه . وحب الفروسية والحفاظ على مظاهرها من الامور المقدسة ، والحصان ، كأداة للنقل وخاصة الركوب وكمادة يفتخر بها ، من المشاهد المألوفة في آسيا الوسطى أمام البيوت وفي الطرقات والمراعي . وقد يطغى منظره على قطعان الاغنام والاصناف الاخرى من السوائم . والحصان في آسيا الوسطى لا يزال يحافظ على منزلته العالية ويرافق جميع الفعاليات اليومية ويرد ذكره في جميع المناسبات تقريبا ويرافق الرجال في تجوالهم في الارياف والمدن يتباهى به المرء في الطرقات ويسود قطعان كبيرة على المروج يتحرك عليها بحرية كاملة يعنى مقتنوه بصفاء أصوله وعلو نسبه . ولبنه يفضل على جميع

الاشربة الاخرى ويرافق الشاي في الافطار والغداء والعشاء في البيوت والخيام ، في الحياة اليومية وفي المناسبات السعيدة والتعيسة .

وخيمة « اليورتا » في لغة القزق و « بوزوي » بلغة القرغيز لها في نفوس أهل آسيا الوسطى ما لخيمة البدو وبيت الشعر في بلادنا ، فهي المنزل المحبب الذي يحمله الرعاة معهم في البراري ويستخدمونه بسهولة ويسر ، ينصبونها في ربع ساعة ونيف وبها يصدون جميع عوامل الحر والبرد . وهي الان في تقالية الشعوب هناك المنزل المفضل لدى الباحثين عن الراحة والاستجمام من أهل المدن يقضون فيها ــ في أمكنة منتقاة في الارياف ــ العطل والاجازات . فهي مرنة جميلة يتباهى مستعملوها باقتنائها وامتلاك جميع الادوات الاخرى المرتبطة بها التي تساعد على تحقيق جميع الاحتياجات المطلوبة لاستراحة تطول أو تقصر في مناطق ليست أمكنة استقرار ثابت .

وخيمة « اليورتا » حجرة دائرية الشكل مصنوعة من اللباد الصوفي الملون على الغالب الذي يغلف هيكلا من أعواد الخشب تستند عليه جدران الخيمة وتستمر في السقف لتنتهي بفتحة علوية ارتفاعها زهاء ثلاثة أمتار للتهوية تفتح وتغلق حسب الحاجة كالاطراف السفلية من الجدران . والفسحة الداخلية التي يدخل اليها المرء من باب صغير خشبي على الغالب تتسع لاسرة من بضعة أشخاص تفرش أرضها بأصناف البسط والسجاد كالجدران الداخلية المستورة بأنواع زاهية الالوان من البسط المزركشة والسجاد الصوفي وجميع الانواع الثمينة من المقتنيات الاسرية التي يفاخر رب الخيمة بها مثل الفراء والوسائد للنوم وجلوس الضيوف وفرش النوم وصندوق الخشب والصور وعدة الشاي والطعام وخاصة (السماور) للشاي وزبادي القيشاني التي تستعمل لشرب الشاي وشرب لبن الخيل . وفي ركن من الاركان تبرز فيها المقتنيات المذكورة تعلق الآلة الموسيقية الوترية الرشيقة المسماة « الدنبرة » عند القزق و « القمز » عند القرغيز* ، رفيقة المغنين والمغنيات من أفراد الاسرة أو من المهتمين من الاقارب والاصدقاء وأبناء العشيرة تداعبها الانامل في ولائم اليورتا أثناء تناول الطعام على الارض أو حول المائدة المنخفضة العامرة بأنواع الطعام المحضر بالطريقة البدوية المعروفة ، وصنفه الرئيس هو اللحم الذي يطبخ خارج الخيمة في قدور كبيرة على مواقد يستخدم فيها الحطب . والمضيف ينتصب في جانب من الخيمة ليقوم بواجب الضيافة بالحث على الطعام وتناول الشاي وحليب الخيل من يدي زوجته ، أو ابنته الكبرى ، التي تبقى واقفة طوال الوقت تتفانى في الخدمة وفقا لعادات دقيقة حتى الانتهاء من الطعام ، بوقوف الضيوف ومغادرة الخيمة بالسلام « رحمة » .

* آلة بثلاثة أوتار صندوقها صغير وعنقها طويل دقيق تصاحب جميع أصناف الغناء الشعبي تقريبا ، ويمكن استخدامها مع آلات موسيقية أخرى مشابهة .

طريق الحرير ـ طريق الحوار في برامج اليونسكو

طوى النسيان سيرة طريق الحرير الجميلة بعد الدمار الذي حدث على يد قادمين من وسط آسيا وشرقها قطعوا الرؤوس وحرقوا الكتب والقوها في الانهار . لكن ردة الى الماضي التراثي حدثت في السنوات القليلة الماضية أعادت الى طريق الحرير شيئا من اعتباره ، وأخذ التلفاز في دول العالم المختلفة يعرض سلسلة من الافلام الوثائقية الشائقة لطريق الحرير صورها فريق علمي ياباني طاف مناطق واسعة في الصين وآسيا الوسطى والغربية ، ووضعت منظمة اليونسكو في برامجها الثقافية لأواخر الثمانينات ولأوائل التسعينات مشروعات ثقافية جليلة الاهمية حول طريق طريق الحرير نفذ بعضها وما زال البعض الاخر قيد التنفيذ ، ومنها تلك البعثات العلمية على طريق الحرير ، أي بعثة طريق الحرير في الصين ، وبعثة طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ ، وبعثة طريق الحرير البرية عام ١٩٩١ ، والرحلة الثالثة التي ستنفذ في العام ١٩٩٢ نحو طرق الحرير عبر سيبيريا الغربية وجبال الاورال .

١ ـ بعثة طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ :

تحديد الطريق أو الاصح الطرق البحرية أقل صعوبة على الدارس، كما أن المراكز التجارية على هذه الطرق يسهل معرفتها لاضطرار الملاحة البحرية في الماضي الى اللجوء اليها والاستراحة فيها بعد عناء طويل طوال الابحار في خضم واسع لا قرار له ، ورغبة التجار في تبادل البضائع في مواقع محددة ثابتة وراءها برّ فسيح الارجاء . وان كان ثمة تغيير في مسار طريق الملاحة فهو جزئي تفرضه طبيعة الابحار في الماء والبحث عن طريق الامان وتجنب سبل المهالك .

واليونسكو وسعت دون ريب مفهوم الطرق البحرية وجعلت امتدادها من شواطىء الصين الشرقية الى شواطىء البحر المتوسط الشمالية والشرقية والجنوبية، وهذا يدخل في مجال بحار الملاحين العرب . كما أن جزءا كبيرا من هذه البحار ، أي بحر العرب وخلجانه وجانب من المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط ، كان في معظم الاوقات في قبضة العرب والمسلمين . وجعلت المنظمة معظم الموانى الشهيرة في بحر الصين الشرقي والجنوبي وشواطىء آسيا الجنوبية الغربية وشواطىء المحيط الهندي الجنوبية وسواحل افريقيا والبحر المتوسط مراكز مهمة على طرق الحرير البحرية . وفي هذا اعتراف واضح بالاسهامات القيمة لشعوب هذه البحار في الوصل بين الحضارات المتنوعة في بلاد العالم القديم في القارات الثلاث ، آسيا وافريقيا وأوربا، منذ زهاء ٣٠٠٠ عام . واختارت الامم المتحدة في غمار التطورات العالمية المعاصرة هدفا منشودا يبغي اعادة التفاهم السلمي بين الشعوب الذي كان العرب قد حملوا لواءه

خاصة في القرنين الثامن والتاسع بسفنهم التي جابت الافاق قبل أن يتعلم البرتغاليون صناعة السفن والملاحة في القرن السادس عشر ، كما يقول السيد فريدريكو ماجور المدير العام لليونسكو في نشرة Integral Study of the Silk Roads .

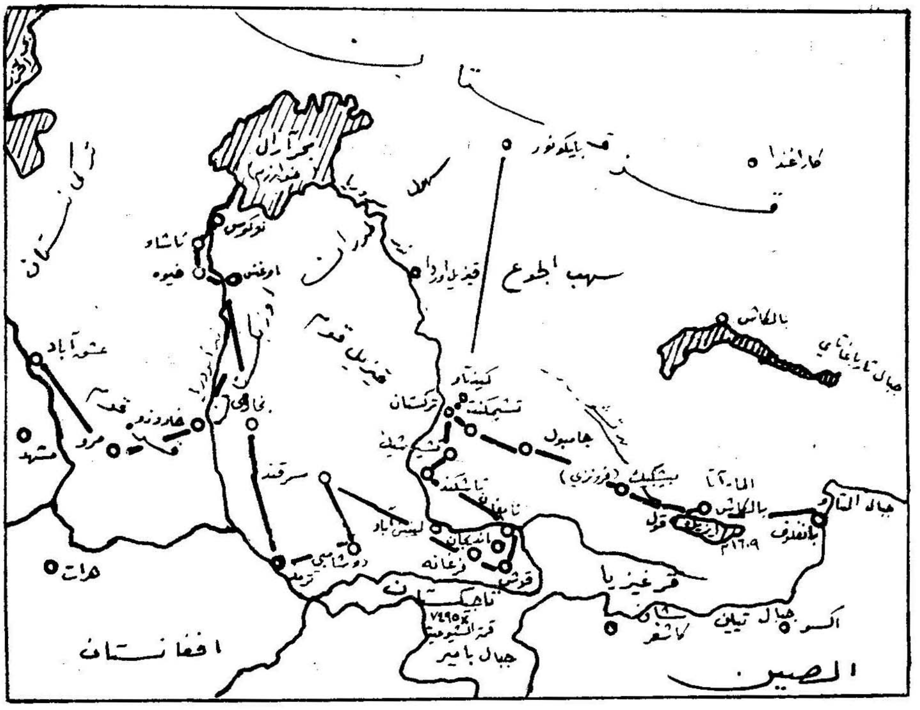
في تظاهرة اعلامية عالمية أبحرت سفينة « فلك السلام » العمانية تحمل مشتركي الرحلة البحرية لليونسكو طوال أربعة شهور من ما سمي بـ « النافذة الغربية لطريق الحرير البحرية المفتوحة على الشرق » أي من البندقية ، مدينة البحار ماركو بولو (الذي يرتبط اسمه بطريق الحرير أيضا بسبب المعلومات التي أتى بها بحار أوربي عن هذا الطريق) لتمر بشواطىء خمس عشرة دولة أوروبية وآسيوية وتصل الى مدينة أوزاكا اليابانية ، أي ميناء نانيفا القديم الذي كان يبحر منه في القرن الثامن الرهبان اليابانيون الى الصين . وحملت هذه السفينة فريقا من العلماء والمصورين اجتمعوا وتناقشوا وبحثوا وصوروا وكتبوا ليعيدوا الى الاذهان أمجاد الطرق البحرية القيمة القديمة المندثرة .

٢ ـ بعثة طريق الحرير البرية ١٩٩١ :

أما الطرق البرية فهي من وجهة نظرنا نحن العرب ذات الاهمية الاكثر في تاريخنا لمرافقتها لاكثر المنجزات الثقافية العربية الاسلامية التي بدأت بالفتوح العربية الاولى ونشر الاسلام في بلاد آسيا الوسطى . وقد أسهمت حملة منظمة اليونسكو الى آسيا الوسطى ضمن مشروع « طريق الحرير ـ طريق الحوار » في القاء الضوء مرة أخرى على مكانة الطرق البرية والادوار التي كانت لها في الماضي ويمكن أن تسهم بها في الحاضر والمستقبل ، في تقارب الشعوب وتمازج ثقافاتها .

كان عنوان البعثة وكان لي شرف الاشتراك بها «دراسة ميدانية لطرق الحرير ـ طرق الحوار » . وهي رحلة استكشاف للطرق السهبية ومعالمها والمواقع الهامة والاثار المنتشرة فيها . وبدأ تنفيذ الرحلة في ١٩ نيسان انطلاقا من مدينة عشق آباد واختتمت في ١٧ حزيران ١٩٩١ في مدينة الما ـ آتا .

كان الوصول الى نقطة الانطلاق بالطائرة ونقطة الختام بالطائرة أيضا . وأما وسيلة الانتقال في بر آسيا من الحدود الجنوبية الغربية (للاتحاد السوفياتي) الى حدود الصين فكانت بوساطة رتل من السيارات الصغيرة والكبيرة وضع بعضها تحت تصرف البعثة مرسلا مع فريق من الاداريين من باريس تحت امرة السيد ديين منسق الرحلة (وهو في الاصل من دولة السنغال) والبعض الاخر من الجمهوريات في آسيا الوسطى، مع فريق من العلماء والاداريين من أكاديميات العلوم في تلك الجمهوريات بالاضافة الى وسائط نقل أخرى كالعربات الصحية وطائرات الهيلوكوبتر .



خط سير الرحلة

كان برنامج السير على النحو التالي :

ـ التجمع في مدينة عشق آباد عاصمة جمهورية تركمانستان يوم ١٩ نيسان لمدة ثلاثة أيام . ومن النشاطات هنا زيارة آثار مدينة نيسا القديمة والسوق التقليدية .

ـ زيارة مدينة ماري يوم ٢٢ نيسان لمدة ثلاثة أيام للاطلاع على آثارها ومعالمها الهامة وتنفيذ مهمات علمية ، والاطلاع على الفلوكلور الشعبي في المنطقة .

ـ زيارة مدينة شارجو في ٢٥ ـ ٢٦ نيسان والاطلاع على تنقيبات ريتجيك ، ورحلة الى منطقة هالاج Hallaj لمشاهدة العادات والتقاليد هناك .

ـ زيارة تاشاو على نهر أموداريا وكونور اورغينش يوم ٢٧ نيسان .

ـ السفر الى مدينة نوكوس في ٢٨ نيسان والبقاء فيها يومين وزيارة متحفها ، وبحر أرال وفردخار وطويروكالا .

- زيارة أورغينش خيوه من ٣٠ نيسان الى ٤ أيار . والاشتراك بالمؤتمر العلمي حول « أهمية محطات القوافل والمدن الواقعة على طريق الحرير الشمالي » . وزيارات لمتاحف خيوه ودراسة لطوبروكالا وبيرتكول وجانباسكالا وأكاديمية العلوم في أوزبكستان .
- زيارة مدينة بخارى ومتاحفها ومكتبتها ومدارسها القديمة وقلعتها في ٤ أيار .
- زيارة غارشي في ٨ أيار وحضور بعض النشاطات الفنية المسرحية .
- ٩ أيار السفر الى مدينة ترمذ والاطلاع على معالمها .
- ١٠ – ١٣ أيار زيارة الى دوشامبي والاطلاع على معالمها ومتاحفها ومسرحها ،وزيارة وادي كارسوب على الطريق الى مدينة سمرقند .
- زيارة سمرقند بين ١٤ – ١٧ أيار والتجول في معالمها التاريخية الهامة وخاصة المدينة القديمة أفراسياب والابنية التاريخية التي رعاها تيمورلنك مثل الجوامع والمدارس والترب بالاضافة الى المرصد الفلكي فيها .
- ١٨ – ١٩ أيار زيارة لمدينة لينين آباد .
- ٢٠ – ٢٢ زيارة مدينة أوش .
- ٢٣ – ٢٤ أيار زيارة وادي فرغانا ومدينة ناماغان .
- السفر الى مدينة تاشكند في ٢٥ أيار والبقاء فيها حتى ٢٨ ، ولقاء في معهد الدراسات الشرقية والتاريخ ورحلة الى بحيرة تاشكند ، ولقاء مع اذاعة تاشكند
- ٢٩ – ٣٠ أيار رحلة الى تركستان لمدة يومين .
- ٣١ أيار زيارة مدينة شيمكنت والاطلاع على مدينة أترار القديمة التي خربها وحرقها جنكيز خان .
- زيارة مدينة جامبول في ١ حزيران في منطقة الانهار السبعة التي تعرضت للدمار والتخريب في القرن الثالث عشر . وزيارة وادي طلس الادنى في منطقة الشعوب الساردية القديمة . وزارة كوس توبي التترية القديمة وجامكيت بالاس وعدد من التلال الاثرية في دلتا نهر سرداريا (سيحون) وزيارة مدرسة سباق الخيل ومضارب خيام اليورتا ومقام زبداي .
- ٢ – ٤ حزيران السفر الى مدينة فرونزي عاصمة جمهورية قرغيزيا (الان بيشكيك وهو الاسم القديم لها) .

ـ ٥ حزيران السفر الى وادي تشو في سفوح جبال تيين شين وأرض القازاخانية والقرغيز في موقع العاصمة القديمة بلاساغون في موقع بورنا حيث توجد مكتشفات اسلامية كثيرة ومقابر كتبت شواهدها بالعربية . وخاصة زيارة الاقلية الصينية في مدينة دونغان .

ـ ٥ ـ ٧ حزيران زيارة عدد من مواقع الاثار في منطقة القرغيز وخاصة في بادوك وحضور مهرجان الفروسية ، والاطلاع على معالم شولبون آتا والمواقع الاثرية التي تعود الى العصور الحجرية على مقربة من بحيرة ايسكول ، ورحلة في السفينة في البحيرة .

ـ ٨ ـ ١٢ حزيران زيارة مدينة بانفلوف والمسجد الصيني فيها والاطلاع على معالم المنطقة قرب الحدود الصينية ، والمرور عبر ممر كيشين باتجاه مدينة الما ـ آتا .

ـ ١٣ ـ ١٧ حزيران السفر الى مدينة الما ـ آتا عاصمة جمهورية قزقستان والبقاء فيها حتى ١٦ حزيران والاشتراك بعدد من النشاطات ومنها زيارة الاكاديمية والمتاحف وعقد مؤتمر صحفي وانعقاد المؤتمر العلمي الثاني بعنوان « العلاقات بين الثقافات الحضرية والثقافات الحضرية والثقافات البدوية على طريق الحرير » ثم وضع التوصيات بعد مناقشة النتائج التي توصل اليها المشتركون ببعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » .

عناوين الموضوعات العلمية التي نوقشت في الندوات العلمية خلال بعثة طرق الحرير البحرية ١٩٩٠

ـ في البندقية بايطاليا (١٣ ـ ٢٣/١٠/١٩٩٠) : أدب الرحلات ، نشأته ودوره .

ـ أثينا باليونان (٢٥ ـ ٢٨/١٠) التطورات الثقافية والتجارية بين المشرق والعالم اليوناني .

ـ كوزاداسي بتركيا (٢٩ ـ ٣١/١٠) : آثار طريق الحرير في الثقافة التركية والفن التركي .

ـ في الاسكندرية والقاهرة والسويس بمصر (٢ ـ ٧/١١) التطورات الثقافية بين مصر والبلاد الاخرى على طريق الحرير خلال الفترة الاسلامية .

ـ في سلالة ومسقط في عمان (١٣ ـ ٢٥/١١) : أهمية التراث العماني في طرق الحرير .

ـ في كراتشي في باكستان (٢٧/١١ ـ ٣/١٢) السند والملاحة العربية ـ الثقافة والتجارة والعمران .

- في مورموغاو وغوا في الهند (٥ ــ ١٢/٩) : اللقاءات البحرية بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر .
- في كولومبو في سيريلانكا (١١ ــ ١٢/١٧) : سيريلانكا كمركز متوسط على طرق الحرير بين الشرق والغرب وكمركز تلاقي ونقل للفلسفة البوذية .
- مدراس في الهند (١٩ ــ ١٢/٢٤) الهند والعالم الروماني بين القرنين الاول والرابع الميلاديين ــ الصلات الثقافية الهندية بين القرنين الرابع والثالث عشر .
- بورت كيلانغ ومالاقا في ماليزيا (١٩٩٠/١٢/٢٨ ــ ١٩٩١/١/٦) : التقاليد البحرية الماليزية .
- سورابايا في أندونيسيا (٩ ــ ١/١٤) : المدن والموانىء على طرق الحرير .
- بانكوك في تايلاند (١٨ ــ ١/٢٣) التجارة القديمة والصلات الثقافية في جنوب شرق آسيا .
- بروناي (٢٧ ــ ١/٣١) : تأثير الطرق البحرية على ثقافة بروناي .
- مانيلا في الفلبين (٢/٣ ــ ٢/٧) : مانيلا البندقية الثانية .
- هوانغبو وغوانغز هو (كانتون) في الصين (٩ ــ ٢/١٩) الصين وطريق الحرير البحرية .
- بوزان يونكجو في كوريا (٢٢ ــ ٢/٢٦) الثقافة الكورية وطرق الحرير .
- هاكاتا أوزاكانبارا في اليابان (٢٧ ــ ٣/٩) : طرق الحرير والفن . بيت الخزينة اليابانية في نارا ــ نقل القيشاني على طرق الحرير .

لائحة الموضوعات العلمية التي نوقشت بين ١٥ ــ ١٦ حزيران ١٩٩١ حول العلاقات بين الشعوب الرعوية والمستقرين على طرق الحرير

اشترك في الندوة العلمية تحت هذا العنوان معظم العلماء في بعثة طريق الحرير ١٩٩١ ويمكن تلخيصها بما يلي :

* العلاقات التاريخية بين الصينيين المستقرين والرعاة في الشمال * أعمال استكشاف في قزقستان ونموذج من العلاقة بين الحضارة الرعوية وحضارة المستقرين * المدن والارياف في بلاد الرافدين * طريق الحرير العظيم والوضع الاتنوغرافي والانتربولوجي في أوراسيا * الازدهار في فترة كوشان وطريق الحرير * التشابه في الوظيفة والمخطط بين المنازل البدوية والمنازل الحضرية في الشرق الادنى الغربي * العلاقات بين الحضارة الرعوية والحضارات المستقرة في طريق الحرير * تقنية من

البادية والمدينة * المغول القدماء وعلاقاتهم بالشعوب المجاورة * الرعاة في منطقة آرال والخزر * آسيا الوسطى والعناصر الحضارية في الشرق الاقصى في منطقة كوريا القديمة * المجتمع الرعوي كحضارة قائمة بذاتها * الموسيقى الكورية وعلاقتها بالمسيقى الاسيوية * المدن كمنظومة واصلة بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات البدوية *

ملخص بالتوصيات النهائية التي وافق عليها أعضاء وفود بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » في مؤتمر ألما ـ آتا في ١٦ حزيران ١٩٩١

* العمل على تنظيم وتمويل زيارات للدارسين من الدول الفقيرة بمعرفة لجنة طريق الحرير لحضور المؤتمرات العلمية وزيارة المكتبات والمتاحف والاشتراك بجميع نشاطات طريق الحرير .
* نشر عدد من الكتب وتنظيم حلقات دراسة وندوات وفق برنامج لجنة اليونسكو لطريق الحرير والاحتفال بالشخصيات البارزة التي يرتبط اسمها بطريق الحرير .
* أستخدام التقنية الحديثة المتوافرة لدى اليونسكو وخاصة فيما يتعلق بوسائل الاتصال عن طريق الاقمار الصناعية وبنك المعلومات واشراك موسكو ولينغراد والجمهوريات السوفيتية بها ووضع لوائح بالكتب والنشرات والدارسين والطلاب والمنظمات التي لها علاقة بطريق الحرير .
* القيام بعمليات ترميم وحماية بوساطة لجنة خبراء بالتعاون مع جمهوريات آسيا الوسطى واستعمال كل ما يتيسر من الخبرات التقنية .
* ترحب اللجنة بمساعي الجمهوريات في الكشف عن آثارها وتحض على التوسع في دراسة التصحر في منطقة بحر آرال ونشر المعلومات عنه بالتعاون مع الاونيب.
* وضع خريطة معدلة لطريق الحرير وأدراجها في برنامج أطلس اليونسكو .
* نشر ما يتعلق بطريق الحرير وبرنامجه من خلال السينما والتلفزيون والاذاعة والمقالات في المجلات والبرامج الثقافية والرحلات .
* العمل على افتتاح مركز أو مراكز للبحث العلمي يختار مكانه أو أماكنها في جمهوريات آسيا الوسطى وبمساعدة اليونسكو .
* الدعوة لاسهام اليونسكو في الدراسات الاتنوغرافية والدينية واللغوية والفولكلورية وتقنية الصناعات التقليدية المعدنية والزجاجية والقيشاني .

* الفريق الدولي يحث اليونسكو والامم المتحدة على دعوة السلطات الافغانية والعراقية على حماية ثرواتهما الاثرية والفنية .
* وجوب ضم الجانب الغربي لطرق الحرير الى برنامج نشاطات اليونسكو المتعلقة « بطريق الحرير ـ طريق السهب » .
* العمل على حماية ودراسة وترميم زهاء ثلاثين موقعا أثريا في جمهوريات تركمانيا وأوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزيا وقزقستان بالتعاون مع حكومات هذه الجمهوريات .

وتجدر الاشارة الى الاقتراح الذي تقدم به الى منظمة اليونسكو موفد القطر العربي السوري الى بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار ١٩٩١ » وبعد التشاور مع بعض موفدي الاقطار الاسلامية الصديقة ، المتضمن دعوة الى ايلاء القطر العربي السوري أهمية خاصة في نشاطات طريق الحرير بالاضافة الى أفغانستان وايران والعراق وتركيا ، وهذا نصه :

لقد نجحت بعثة « طريق الحرير ـ طريق الحوار » في تحقيق معظم الاهداف التي نظمت الرحلة من أجلها ويسرني أن أقترح عليكم التفضل بدراسة امكانية اعطاء عنايتكم لاحد الجوانب الاخرى التي لها ارتباط وثيق بطريق الحرير ، وأعني بذلك الاهتمام بالجوانب الفكرية والعلمية التي حمل شعلتها في الماضي رواد من العلماء المسلمين في الدول التي مرت بها طريق الحرير كانت لهم الصفة الدولية فارتفعوا عن قيود الحدود القطرية وأسهموا في حضارات قيمة اشتركت جميعا في ثقافة اسلامية امتزجت بالثقافات الاخرى وأسهمت في خلق جو من التعاون الثقافي والعلمي بين جمع الامم الاخرى بغض النظر عن اختلاف الاديان والاجناس .

وتحقيقا لذلك يمكن للمنظمة الدولية اليونسكو الدعوة الى مؤتمر يمكن أن يعقد مرة واحدة أو أكثر خلال الاعوام الثلاثة القادمة في احدى الدول التي ازدهرت فيها الثقافات المذكورة مثل سورية أو افغانستان أو ايران . وتكون من بين الموضوعات الرئيسة فيه تسليط الضوء على عالم من علماء المسلمين الذين نشطوا على طريق الحرير ويمكن أن يكون التركيز مثلا على الفارابي أو الخوارزمي أو غيرهما .

* * *

المصادر والمراجـع :

ـ زيارات ميدانية لمواقع جغرافية وتاريخية وأثرية في جمهوريات اسيا الوسطى .

ـ نشرات متعددة أصدرتها اليونسكو حول طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ وطريق الحرير البرية١٩٩١.

ـ محاضر الندوات المرافقة لبعثة طريق الحرير ١٩٩١ ، ولقاءات علمية مع العلماء المشتركين في بعثة طريق الحرير ـ طريق الحوار ١٩٩١ .

ـ الموسوعة البريطانية والموسوعة الالمانية وغيرها .

ساطع محلي ، مخطوط يعد للطبع بعنوان طريق الحرير ١٩٩١ .

» محلي ، امريكا اللاتينية ١٩٨٠ .

» محلي ، افريقيا جنوبي الصحراء ١٩٨٢ .

» محلي وعبد الرحمن حميدة ، دليل العالم ـ أرقام ووقائع .

» محلي ، النقل والمواصـلات ١٩٩٠ .

عبد الرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ١٩٨٤ .

كلاوس ديثمان ، السودان ، المجلة الجغرافية ١٩٨٣ .

غازي طليمات ، من أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم لمحمد بن احمد المقدسي ـ المختار من التراث العربي ١٣، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠ .

أحمد رمضان ، الرحالة المسلمون ، دار البيان العربي .

مجموعة من المؤلفين ، أطلس التاريخ الاسلامي جامعة برستون ١٩٥٤ ، ترجمة وتحقيق ابراهيم زكي خورشيد .

Franz, H. G,. Herausg. Die Seidenstrasse . Akademisch, Druck - U. Verlag . Graz 1987.

Hallbach, Uwe . Materielle Krise. Islam u. Nation in Sowietisch . Viertalgahres Beruhte, Sept. 1991 . Hevausg . Friedrich - Ebeot - Zentralosien. Stiftung .

Uhlig, Helmut. Die Seidenot rasse , Baskei Luebbé 1990.

* * *

طريق الحرير والطرق التجارية الاقدم

د. علي أبو عساف
المديرية العامة للآثار والمتاحف

يدل اهتمام المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) بطريق الحرير، على أن هذا الطريق من عناصر التراث الحضاري العالمي الممتاز الذي نعتز به. فالطريق لم يكن تجاريا تسلكه القوافل وحسب، فعبره أتصل الشرق بالغرب، ونقل رجال القوافل معهم الافكار والخبرات في كلا الاتجاهين وفي مجالات عدة، وكانوا كثيري العدد، ينتمون الى طبقات متنوعة مختلفة، تماما كالاغراض التي سعوا من أجلها. وقد جمعوا في طريقهم الملاحظات الكثيرة عن حياة سكان المدن التي حطوا رحالهم بها، وعن عاداتهم وتقاليدهم، وصناعاتهم وزراعتهم، وافادوا منها بعد عودتهم الى أوطانهم، كما فعلوا بالنسبة الى سكان المدن التي نزلوا بها.

وقبل أن ندخل في بعض التفاصيل نشير الى أن تجار الحرير سلكوا طريقين بريين وطريق بحري، (انظر المخطط المرفق).

أول الطرق البرية يدعى طريق الواحات، الذي يمتد بين مدن الواحات في صحاري وبوادي آسيا الوسطى. وثانيها طريق البوادي الذي سيطرت عليه قبائل البدو الخيالة، وجابوا بوادي أوراسيا الى الشمال من طريق الواحات. أما الطريق البحري فهو الى الجنوب من الطريقين الاولين، ويمر في بحر الصين، والمحيط الهندي، وبحر العرب، والبحر الاحمر، ثم البحر المتوسط، ثلاثة طرق تباعدة لكنها كالشرايين في جسم واحد، هو قارة آسيا، تخترقها من الصين الى سواحل المتوسط الشرقية، وأهمها طريق الواحات الذي يهمنا في بحثنا هذا. فمتى نشأ هذا الطريق ومن أين بدأ والى اين انتهى..

لا تزال الأبحاث جارية لتحديد عصر نشوء الطريق، وأخص بالذكر منها الابحاث الاثرية. فقد قام العلماء السوفييت بتحريات سطحية وأجروا أسبارا اختبارية، في واحات صحاري أواسط آسيا، وعلى الاخص في تركستان الغربية، كشفت عن أطلال مدن وبلدان محصنة يرجح أنها تعود الى الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس والرابع ق.م. ونذكر من بين هذه المدن ياز ــ دبا (Yaz-Depe)، التي أرخت أطلالها في الفترة من القرن الثامن الى الرابع ق.م. والتي تقع في تركمانيا السوفييتية، وكيوزيلي ــ جير (Kyuzeli - gyr) في أوزبكسيا السوفييتية، والتي عاشت من القرن السادس الى الخامس ق.م. والى جانب هذه المدن المحصنة كشف عن حصون دائرية الشكل في كواي ــ كريلكان ــ كالا (Koi - Krylgan - Kala) تعود الى القرن الرابع ق.م(1). ولا شك أن هذه المدن قد حصنت ليسهل الدفاع

عنها ، ولحماية قاطنيها من هجوم الاعداء وعلى الاخص البدو الخيالة . ولا نعتقد بأن نشأتها ارتبطت بطريق الحرير ، بل ان طريق الحرير ارتبط بها ، فدخلت بعد نشأتها في النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، وأصبحت محطات قوافل تسهل حركة السير والتنقل بين جناحي قارة آسيا . فهي تعود الى العصر الاخميني ، بينما يقول الاستاذ التهايم أن التاجر الصيني الشهير تشانغ-ك-يان (Chang -K-ien) قد قاد قافلة تجارية من الشرق الى الغرب في عام /١٠٦/. مع العلم بأن التجارة مع الصين كانت نشطة منذ عام /٧٠/ق.م ، وفق ما رواه المؤرخ أبولود وروس من مدينة ارتيميتا (Artemita) الواقعة على الطريق من سلوقيا (Seleukeia) على الدجلة الى اقبتان وهيكاتوم بيلوس وبكترا(٢) .

وتظهر المكتشفات الاثرية أن التجارة مع الهند ـ أي تجارة الحرير ـ قد انتعشت في الفترة ما بين عامي ٦١ ق.م ـ ٩٠م . واذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن التأثيرات الفنية في فنون منغوليا الخارجية ، التي وفدتها من جنوب روسيا ، ومن الاغريق ، ومن البكترين ، تعود الى القرن الثاني ق.م . وأن هذه التأثيرات ما كانت إلا نتيجة علاقات تجارية طويلة ، فاننا نرجح أن النشاط التجاري بين مشارق ومغارب آسيا ، يعود في جذوره الى القرن الثاني ق.م . وهو التاريخ المقبول لنشوء طريق الحرير ، الذي دام استعماله حتى القرن الثامن ميلادي ، أي نحوا من الف عام ، وذلك إبان عصر الاسرتين الهانية والتانكية في الصين ، والعصر الساساني في بلاد فارس ، والعصر الروماني البيزنطي في بلاد غربي اسيا ، وشرقي أوروبا .

كانت تشانغان (كسيان) Changan (Xian) القطب الشرقي لطريق الحرير في الصين ، وروما قطبه الغربي ، ثم ما لبثت أن اصبحت ليونغ (Luoyang) قطبة الشرقي في الصين ، والقسطنطينية قطبه الغربي ، وقد قدّر طول هذا الطريق بنحو تسعة آلاف كم ، واجتاز مناطق خطرة مثل صحراء تكلا ـ ما كان Takla - Makan التي كانت حتى وقت قريب توصف بأنها البلاد المجهولة ، وكذلك صحاري التنشان (Tenshan) وكونلونشان (Kunlunshan) وبامير (Pamir) وقرة قوم (Karakum) وكيزيلكوم (Kyzylkum) وجبال الهندوكوش (Hindukush) (٣).

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان بلداناً عديدة ساهمت في إنشاء طريق الحرير مثل الصين ، ومنغوليا والهند والباكستان وأفغانستان والاتحاد السوفياتي وإيران والعراق وسورية وتركيا ، بالاضافة الى دول حوض البحر المتوسط الاخرى ، واليابان.

وفي هذا المكان نشير الى أن عالم الجغرافيا الشهير الالماني فرديناند ـ فون ـ رشت هوفن (Ferdinand Von Richthofen) هو الذي أطلق على هذا الطريق اسم (طريق الحرير) ، وذلك في القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين توالت الابحاث وتشعبت حوله ، ولا حاجة الى ذكر المزيد من المعلومات عنه ، بل سنعرض الى بعض صفاته ، وخصائصه ، التي تهمنا في الدراسة المقارنة بينه وبين الطرق التجارية الاقدم.

صحيح أن طريق الحرير قد ربط بين جناحي القارة الاسيوية الشرقي والغربي، غير أنه في اعتقادنا قد نشأ وتعاظم شأنه لان طرقا تجارية أخرى قد نشأت قبله ، وأن سكان هذه القارة في عصر نشوء طريق الحرير قد ساروا على تقاليد من سبقهم ، من الامم فاستفادوا من تجاربهم وزادوا عليها .

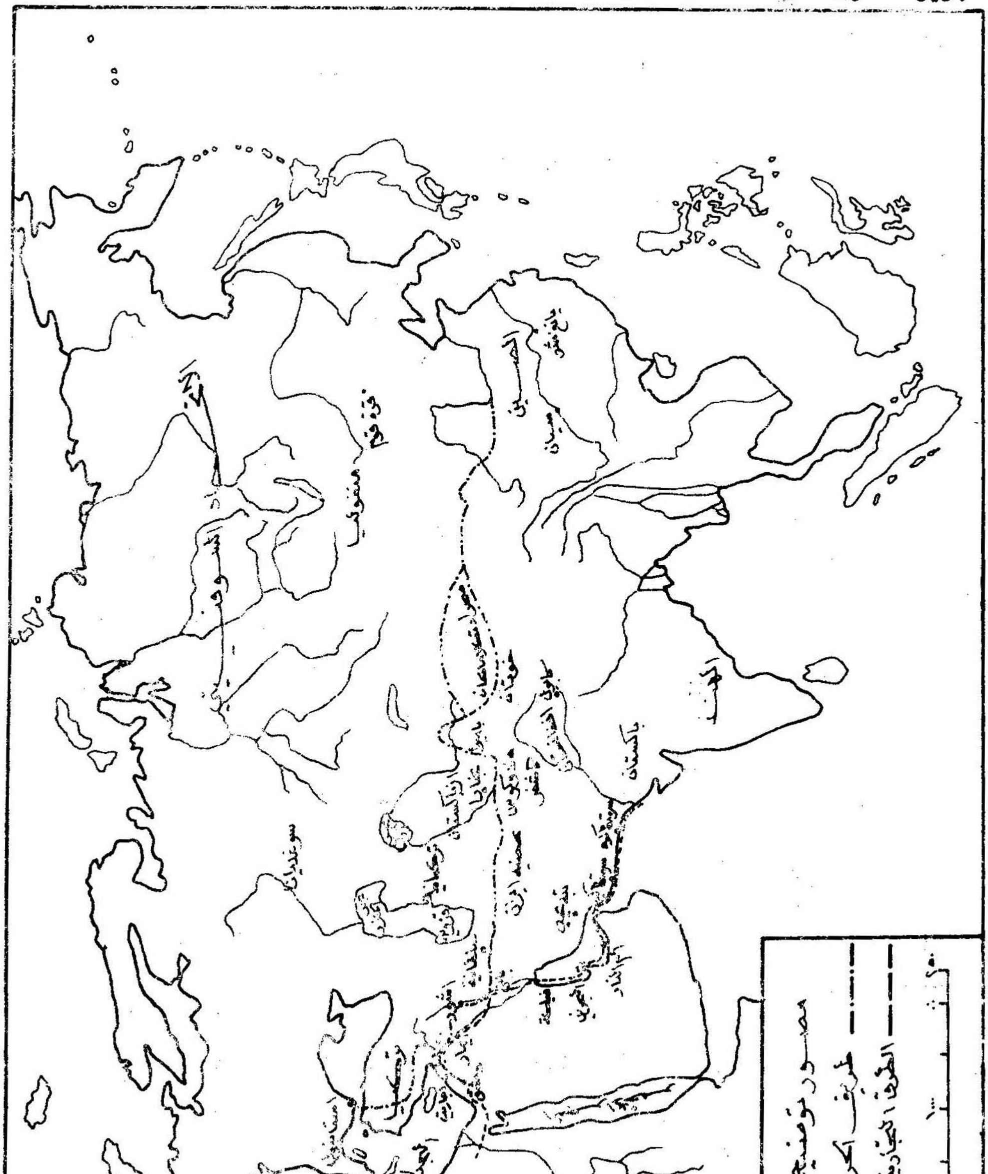
فمنذ نشأت الحضارة في بلاد النهرين والشام ، تطورت التجارة تطورا سريعا، وسعى الناس الى الحصول على بعض المواد الخام من البلدان المجاورة . وكان من بين المواد التي ازداد الطلب عليها ، منذ الالف الثالث ق.م ، الحجر الازرق اللامع ، الذي يلفت النظر بلونه وشكله ، ويرضي ذوق طبقة غنية من الناس ، تجمعت لديها ثروة مكنتها من أن تطلبه ولو في الصين . علما بأنه من الاحجار الكريمة العادية المطواعة بين أيدي الحرفيين ، وقد عثرنا على ما أنتجه هؤلاء من هذه المادة على شكل حلي ، وأختام اسطوانية ، وقطع زخرفية الخ .. في العديد من المواقع الاثرية الهامة ، مثل الوركاء وأور في جنوبي العراق ، وماري وايبلا في سورية ، وتحدثت عنه الوثائق (السومرية والاكدية ـ الايبلوية ـ والبابلية والآشورية) كسلعة تجارية هامة من غير أن تذكر مصادره . ومن المعلوم أن هذا النوع من الحجارة متوافر في أفغانستان ، لذا اهتم الباحثون بمعرفة كيفية الحصول عليه ، والطريق التي سلكها تجار هذه المادة من أفغانستان حتى تلك المدن .

أثبتت التنقيبات الاثرية التي جرت في عام ١٩٧٢ بموقع شار إيسوختا (Shar-I-Sokhta) بجنوب شرقي إيران قرب كرمان : أن حرفيي هذه المدينة ، التي لا نعرف اسمها القديم ، قد صنعوا هذه المادة في محالهم ، التي حوت بين أنقاضها على كتل من حجر اللازورد الخام والمصنع . والى الغرب من هذا الموقع نجد موقعا اخر مشابها للموقع السابق وهوتبه ـ يحيى ، الذي كان هو الاخر مركزا لتصنيع اللازورد وتجارته . ونرجح أن هذين الموقعين كانا محطتين على طريق تجارة اللازورد ، والممتد من كابول الى هذين الموقعين ، والخليج العربي(٤) .

ولما كان هذا الطريق بعيدا الى الجنوب ، عن مدن بلاد النهرين والشام التي ذكرناها أعلاه ، افترضنا وجود طريق آخر الى الشمال من هذا الطريق . وقد أثبتت التحريات الاثرية التي جرت في موقع تبه ـ هيسار الى الشرق من طهران ، أن هذه المدينة القديمة قد تاجرت بالاحجار الكريمة مثل اللازورد وغيرها ، وصنعته أيضا في مشاغلها ، وذلك منذ الالف الثالث ق.م . ومما لا شك فيه أن المحطة الثانية على هذا الطريق كانت تبه ـ سيالك الى الجنوب من طهران ، ومنها انتقلت الى بلاد النهرين والشام ومصر عبر الطرق التجارية المألوفة ، والتي امتدت من بابل الى ماري وقطنة وحاصور ثم مصر .

اذن كان هناك طريقان لهذه المادة : الاول شمالي يمتد من كابول مجتازا ايران عبر تبه هيسار وتبه سيالك الى جنوبي العراق (أو الى مدينة آشور في الشمال) ،

ومن ثم الى شمالي سورية وجنوبها حتي مصر . والثاني يمتد من كابول الى شـار السوختا ، وتبه يحيى ، فالخليج ، حيث تنقل بحريا الى سـواحل الهند ، وشـبه الجزيرة العربية .



هذا باختصار عن طريق اللازورد ، وقد ذكرنا أعلاه ، أن هذه المادة قد رغب بها الاغنياء ، وصنعت تلبية لرغباتهم كحلي وأختام وعناصر زخرفية . وفي اعتقادنا أن مادة الحرير ـ أقمشة الحرير المتنوعة ـ قد صنعت ، هي الاخرى ، خصيصا ، كي تصلح كهدايا للملوك ، والامراء ، والمشايخ ، والزعماء . وقد حملتها قوافل الجمال من محطة الى أخرى ، وقطعت بها مسافات طويلة ، الى حيث تباع لطبقات الناس التي ذكرناها أعلاه .

هذه ناحية من النواحي التي جمعت بين تجارة اللازورد وتجارة الحرير ، فكلتا المادتين كماليتان ، راجت تجارتيهما تلبية لذوق طبقات معينة من المجتمع .

وكانت مادة النحاس سلعة تجارية هامة تدخل في صناعة حاجيات عديدة منها الاسلحة والادوات المنزلية وغيرها .. الخ . ولم يكن النحاس متوافرا في بلاد النهرين والشام ، وان كانت له مناجم فقيرة في سيناء ، وأخرى في منطقة واحة البريمي على الطرف الشرقي لشبه الجزيرة العربية المتاخمة لسواحل عمان الغربية ، لذا كان لا بد لسكان هذه البلاد من استيراده من مناطق عدة .

ومن الوثائق التي اكتشفت في مدينة أور ، والتي تعود الى النصف الثاني من الالف الثالث ق.م ، نعلم أن النحاس قد أستورد من باكستان بطريق البحر ، أي بوساطة السفن التي كانت تبحر من جزيرة فيلكة حذاء الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية ، مارة بالبحرين وأم النار ، حتى مضيق هرمز ، محملة بالحبوب والسمسم والنسيج ومنها الى موانىء سوتكاكين (Sutkagen) ودور (Dor) ، وسوتكاكوه (Sotka-koh) ، حيث تفرغ حمولتها وتعود محملة بالنحاس . وهذا الطريق هو الطريق عينه الذي سلكته السفن التي نقلت سلع الحرير من الشرق الى العراق ، فالبادية الشامية ، عبر تدمر الى أنطاكية ، وبلدان البحر المتوسط(٥) .

وفي هذا السياق عن تجارة النحاس ، نعرض الى التاجر الشهير أيا ـ ناصر من مدينة أور ، الذي عاش في عصر الملك رم ـ سن (١٨٢٢ ـ ١٧٦٣ ق.م) ملك لارسا ، واكتشف بيته مع وثائقه في تلك المدينة . والذي يهمنا هنا أن هذا التاجر كان يدفع ، على الغالب ، ثمن النحاس وغيره من الحاجيات الفضية ، مما يدل على أن الفضة كانت متداولة كمادة تقدر على أساسها قيمة السلع التجارية . وقد كانت قيمة الفضة مستقرة نسبيا ، ومرتبطة بنقاء هذه المادة ووزنها . وهي فوق ذلك غالية الثمن ، خفيفة الوزن ، يصطحبها التاجر معه بسهولة لدفع أثمان بضائعه . والى جانب هذه الخاصة الممتازة ، فان الفضة لا تتشوه بسهولة ، وتحفظ لفترات طويلة .

ولذلك قامت في هذا العصر ، وعلى هذا الشكل ، مقام النقود وان لم تكن مسكوكة(٦) ، وازداد استعمالها باطراد بما يتناسب وحجم التجارة . وهذا يذكر بظاهرة ازدياد صك العملة الفضية عند البارثيين في ايران في عهد متري ـ داتس الثاني (Mithridates II) ، وذلك بسبب ازدهار التجارة مع الصين وخاصة تجارة الحرير(٧) .

أشرنا أعلاه الى المكتشفات الاثرية في تركستان الشرقية والغربية ، وقلنا أن مدن واحات تركستان المحصنة قد دخلت في الحركة التجارية بين الشرق والغرب . وقد لعبت دورا نشيطا في حركات النقل والسير والتجارة ، وتاجرت بالسلع التي اتتها من الشرق والغرب . وجنت من ذلك فوائد عديدة ، إما على شكل ضرائب استوفتها مباشرة من القوافل ، أو أتتها مما جمعته ممالك البدو ، التي كانت تسيطر على مدن الواحات . ونذكر من هذه الممالك تشيونغ ـ نو (Xiongnu) ، التي حلت محل يوزيهي (Yuezhi) ، وغزت مدن الواحات في شرق تركستان ، كما فعل غيرها من قبائل البدو في أواسط آسيا . ومن المواد التي تاجرت بها اليشب الذي كان يُنتج من منطقة كنلون (Kunlun) ، وينقل الى الصين بوساطة الكوش (يوزيهي — Yuezhi — الذين نقلوا ايضا الحجر الفيروزي والتمائم المعروفة بخرزة العين من آسيا الغربية ، وعلى الاخص من سيناء ، الى الصين ، حيث كانت تندرج مع التحف الهامة . ولها قيمة عالية . وبالمقابل فان مدن واحات تركستان الشرقية ، قد نقلت من الصين منسوجات البروكار والاسلحة الحديدية ، التي كانت مشهورة باسم حرير ـ سيرس ، والخناجر الحديدية(Sers Silk and Iron Blade) . وانطلاقا من هذه التسمية ، يُعتقد أن قبائل السيرس (= Yuezhi وفيما بعد Gush) ، هي التي قامت بهذه المهمة في شرق تركستان(٨) .

ومما يدل على أهمية هذه القبائل ، وعراقة تجارتها بالحرير ، أن أسم الحرير في الصين وايران ، وفي بعض البلدان الاوروبية ، مثل اليونان وايطاليا قد اشتق من اسمها . أو صيغ منه بتحويرات وتبديلات طفيفة . فاسم الحرير باللغة الصينية (سي) و (سيار) . وفي بلاد فارس سيريه وفي السنسكريتية سيراي . أما في التوخارية فنجد كلمة ساريق تدخل على ثوب الحرير ، وهي شبيهة بالكلمة الفارسية سيريه ، التي انتقلت الى العربية بصيغة السَّرَقَة وتعني الشقة من الحرير (٩) .

كان هذا بعضا من ملامح الدور الذي لعبته تركستان الشرقية في طريق الحرير، وهو لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبته تركستان الغربية والمملكة البارثية ، التي كانت أقوى الممالك التي أسسها البدو الخيالة في آسيا .

قام البارثيون بدور الوسيط في التجارة الدولية ، فقد نقلوا السلع التجارية الآتية من الشرق الى دول البحر المتوسط حتى روما . ومن المرجح أيضا أنهم عملوا على نقل بعض السلع التجارية ، التي أتت من روما وسورية ، كالاواني الزجاجية، والتمائم الزجاجية (خرزة العين) ، والكتان ، والمنتوجات الذهبية ، والفضية ، والاواني الفخارية ، الى الشرق . وبذلك تضاعف دخلهم ، وجنوا الارباح الطائلة من هذه الوساطة (١٠) .

ويُستفاد مما ذكرنا أعلاه أن ممالك المدن التركستانية ، والمملكة البارثية ، قد قامت بدور الوسيط في تجارة طريق الحرير . وهذا يذكرنا بدور كل من إيمار وماري على الفرات .

تقع ماري على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، وتحيط بها السهول الخصبة ، التي تروى من مياهه . وقد ذكرت في وثائقها أسماء العديد من المدن والمناطق القريبة والبعيدة ، مثل تلمون (البحرين) ، وحاصور بسهل الحولة في فلسطين ، وجبلة / بيبلوس ، أجاريت ، وحتوشة في الاناضول ، والاشيا / قبرص ، وكبتارو / كريت .

وما كان لهذه الاسماء أن يتردد ذكرها في وثائق ماري ، لولا مكانة هذه المدينة الاستراتيجية البالغة الاهمية ، ومكانتها التجارية العالية ، اضافة الى أنها تمتاز بموقع متوسط في بلاد النهرين وتخرج منها طرق عدة ، ومنها الطريق الصحراوية التي تمتد على ضفة الفرات اليمنى ، ثم تعبر الصحراء مرورا بواحاتها ، كالطيبة ، والكوم ، والسخنة ، ثم تدمر فقطنة . ومن قطنة تسير غربا الى الساحل ، أو نحو الجنوب الغربي الى فلسطين فمصر .

ان طريق الضفة اليمنى هذه تستمر حتى إيمار ، ومنه تتجه غربا الى حلب ، فساحل المتوسط ، أو شمالا الى كركميش ، فهضبة الاناضول ، أو جنوبا لتلتقي بطريق البادية التي ذكرناها . والى جانب هاتين الطريقين ، ثمة طريق محاذية للخابور ، تصل ماري بآشور ، أو بهضبة الاناضول .

كان لملوك ماري قوافل تجارية خاصة بهم يرسلونها الى تلمون / البحرين ، أو الى بابل ، كما كانت تحط فيها قوافل التجار الآتية من تلمون ، أو من أماكن أخرى من شمال سورية . ولذلك كان لها دور مزدوج ، كمحطة لمرور القوافل ، أو لتفريغ البضائع ثم اعادة شحنها الى أماكن أخرى . ومن المواد التي وردت الى ماري ووزعت منها الى بلاد النهرين ، وسورية ، التوتياء والنحاس والخشب .

نعمت ماري بهذا الموقع الاستراتيجي الهام ، فزادت ثروتها من الضرائب التي فرضتها على التجارة ، أو من الهدايا التي حملها التجار الى القصر الملكي ، والى أمثالهم من تجار ماري ، أو من الارباح التي حصلت عليها من تبادل البضائع . وفي الوقت نفسه كان هذا الموقع وبالا عليها ، فهاجمها حمورابي ، وأحرقها ، حتى يبقي السيطرة على الطرق التجارية في يد بابل .

وكما ذكرنا أعلاه ، فان هذا الحدث قد تكرر في تركستان الشرقية ، على أيدي قبيلة شيونغ ـ نو ، التي طردت قبيلة يوزهي ، وسيطرت على محطات القوافل ، لتتحكم بالطرق التجارية وتقوم بدور تجاري مزدوج .

وتمتعت إيمار بموقع استراتيجي هام كماري ، وقامت بدور بارز في تجارة المنطقة يفوق دور ماري . وقد عرف أهلها كيف يحافظون على التوازن بين مصالح الدول القوية المجاورة ، مثل ماري وإيبلا ، ويمحاد / حلب ، وكركميش . وفي إيمار تجمع أشخاص كثيرون من الشرق والغرب وانتشر تجارها في جميع مناطق الشرق الاوسط تقريبا . وقد عانت هذه المدينة من غزوات البدو ، وخاصة عشائر البنيامين ، التي سطا أفرادها على القوافل التجارية ونهبوها ، أو رعت قطعانهم حقولها الزراعية ،

فانخفض انتاجها من الحبوب . وقد أشرنا الى هذه الحالة لانها كانت شديدة التأثير على إيمار ، لانها لم تقوَ على مخاصمة البدو ، كممالك ماري ويمحاد وكركميش وتوتول التي اتقت شرور البدو ، وقاومتهم ، بخلاف إيمار هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، نرى أن هذه الحالة قد تكررت مرة أخرى في مدن الواحات بأواسط آسية ، التي مر بها طريق الحرير ، فقد أحيطت تلك المدن بالاسوار المنيعة الحصينة لحمايتها من هجوم البدو الخيالة ، الذين كانوا يغيرون على القوافل بين الفينة والاخرى لسلب البضائع أو لتقاضي الفدية عنها .

وفوق هذا كله ، ساهم البدو الخيالة في نقل البضائع الحريرية من الصين نحو الغرب عبر بوادي أوراسيا ، فأصبحوا المنافسين الرئيسين لسكان وتجار مدن الواحات(١١) . لقد دخل البدو الخيالة ، في أقاصي الشمال من القارة الاسيوية ،في تنافس شديد مع مدن الواحات للسيطرة على الخطوط التجارية بين الشرق والغرب، كما تثبت الوثائق التاريخية . لقد حاولت كل من مملكتي خوتان (Khotan) وسوغديانا (Sogdiana) ، وغيرها من ممالك الواحات ، أن تنتج الحرير في القرنين الرابع والخامس ق.م . وتدخل في تنافس شديد مع المنتجين الاخرين ، وتنقله نحو الغرب . ولتحقيق هذه الغاية كان على مشاهير تجار سوغديانا ، أن يقيموا علاقات متينة مع البدو الخيالة ، مثل قبيلتي الترك (Turk) وأليغور (Uighur) ، حتى يتمكنوا من تصريف بضائعهم(١٢) .

إن هذه السياسة التي سارت عليها خوتان وسوغديانا ، كانت قد سبقت اليها إيمار في القرن التاسع عشر من الالف الثاني ق.م . وكما أسلفنا لم تكن لدى إيمار قوات كافية لشن الغارات ، أو مهاجمة مدن أخرى ، أو قبائل البدو في أراضيها ، لذلك وطدت العلاقات معهم وآوت الفارين منهم في أراضيها اتقاء لشرهم ، ولم تستجب الى طلبات ملكي ماري يخدون ـ ليم ، وزمري ليم للتحالف معهما ضد عشائر البنياميين الذين انتشروا على ضفاف الفرات بين هاتين المدينتين .

وكما ذكرنا في البداية ، لم يكن طريق الحرير طريقا تجاريا وحسب ، بل سار فيه هواة الرحلات ، ورجال الدين ، نذكر منهم الراهب البوذي فكسيان (Faxian) من إقليم جين (Jin) الشرقي ، الذي قام برحلة شاقة عبر الصحاري الجليدية في القطب الشمالي والبامير ليصل الى الهند ويزور أماكن العبادة البوذية ، ومنها عاد الى الصين بطريق البحر . وبعده بسنوات قام راهب بوذي آخر هوشوان ـ زوانـغ (Xuan Zhuang) برحلة من دون ـ هوانغ (Dunhuang) الى تركستان الغربية، ثم الهند ليجمع المخطوطات البوذية وينقلها الى الصين ، ولما عاد الى الصين ، ترجمها الى الصينية ، وتمتع بحماية الامبراطور تايزونغ (Taizong) من سلالة التانج . وقد ساعد هذا الراهب على نقل البوذية الى الصين بوساطة الطلاب اليابانيين ،الذين تتلمذوا على يديه .

إن هذه الظاهرة ، ظاهرة الرحيل من بلد الى آخر طلبا للتعرف على المعتقد الديني ، والايمان به ، شديدة البروز في الديانات القديمة ببلادنا ، مثل ظاهرة نقل

تمثال رب من مدينة الى اخرى ، ونحن هنا لا ندخل في تحليل مدلولية هذه الظاهرة، بل نعرض الى وقائعها بغرض المقارنة .

كان الرب هدد أعلى أرباب مدينة إيمار / مسكنة ، والبدو والحضر يحجون الى بيته في إيمار . ففي رسالة لاجي ايل ، نجد إشارة الى شخص يدعى ياكون ـ حمو، قريب أيالم ملك أباتم ، التي كانت في المنطقة المجاورة لقلعة جعبر على ضفة الفرات اليسرى (قبالة مدينة الثورة) . وكان قد رغب في زيارة إيمـار ، لتقديم الاضاحي لأربابها . فكان له ما أراد ، وبحماية الملك أيالم ملك أباتم . وهو لم يقطع المسافـة الطويلة ، التي قطعها الرهبان البوذيون من الصين الى الهند ، إنما جمعت بينهم فكرة واحدة ، هي السفر والتنقل للقيام بواجبات دينية تحت حماية ملك . كان ذلك في عهد زمري ليم ملك ماري (١٧٨٢ ـ ١٧٥٩) ، الذي هو نفسه قـدم الاضاحي الى الرب دجن في مدينة توتول ، قرب الرقة (لعلها تل البيعة شرقي الرقة) .

لم يكن زمري ليم الملك الوحيد ، الذي قدم الاضاحي للرب دجن ، بل نجد أن بانوما ـ هدد ، ملك زلماقم (على البليخ بين الرقة وتل أبيض ، ولعلهـا تـل حمام التركمان) ، قد أراد ، هو الاخر تقديم الضحية الى الرب دجن التوتولي ، فأجيب الى طلبه ، شريطة أن يحضر برفقة عشرين رجلا فقط(١٣). وذلك حسب نصيحةإيمار. إن هذه الظاهرة قد تندرج تحت عنوان وحدة دينية جمعت بين مدينتين في منطقـة واحدة ، ولعلها مشابهة للوحدة الدينية بين بعض أقاليم الهند والسند مـن جهـة والصين وتركستان من جهة اخرى ، وهي الدول التي زاد طريق الحرير من تقاربها.

صراع القوى على الطرق التجارية :

عندما اعتلى يوليوس قيصر عرش روما ، وضع نصب عينيه قهر المملكة البارثية أولا ، ثم السيطرة على التجارة المزدهرة بين الشرق والغرب . إلا أن موته الفجائي عام ٤٤ ق.م ، لم يمكنه من تحقيق هذا الهدف ، ولم يتمكن خلفه ماركوس أنطونيوس من تحقيقه أيضا ، بل لحقت به ، على يد البارثيين هزيمة نكراء . وبعـد ذلك تأرجحت العلاقات بين روما والبارثيين بين فتور وصداقة ، وازداد حجم السلع الشرقية الواردة الى ايطاليا زيادة كبيرة ، ومعظمها كان من السلع الكمالية . وتوسعت شبكة الطرق التجارية الى مناطق النفوذ الروماني حتى لا تكون تحت سيطرة دولة واحدة ،فازدادت أهمية تدمر ، كمركز تجاري هام ، تقاد اليه القوافل الآتية والغادية من والى المملكـة البارثية والامبراطورية الرومانية(١٤) .

وقبل ذلك بمئات السنين ، كان الصراع على أشده بين ماري وإيبـلا للسيطرة على الطرق التجارية بين بلاد النهرين والشام ، في منتصف الالف الثالث ق.م . ثـم احتدم الصراع بين أكد وإيبلا للغاية نفسها ، فانتصرت أكـد على إيبـلا في عصـر نارام ـ سن (٢٢٥٩ ـ ٢٢٢٣) ق.م .

ولما انتقلت السلطة الى القبائل العربية الكنعانية الآمورية عند نهاية الالف الثالث ق.م ، شهد القرنان الاولان من الالف الثاني ق.م نشوء ممالك عديدة في بلاد النهرين والشام ، تصارعت على السلطة ، وتنافست على فرض هيمنتها على الطرق التجارية. وفعل حمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠) ما فعله نارأم ـ سن الاكدي فوحد بلاد النهرين ، واتجه غربا نحو الشام ، فاحتل ماري ودمرها ، وسيطر على بلاد آشور . وبذلك يكون قد سيطر على الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

وبتهديم ماري ، تحولت عنها طريق بابل ـ آسيا الصغرى ، الى آشور فشوبات انليل وكركميش ، ومن آشور اتجهت الى دور كتليمو على البليخ ، ثم الى ترقا على الفرات ، ومنها الى إيمار فحلب .... الخ .

لا شك أن الطرق التجارية بين الشرق والغرب ، قد عرفت باقة منوعة من أمهر التجار ، ذوي الشأن في ازدهار التجارة ، وتطوير العلاقات بين الدول وتقويتها ، ونذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر ، التاجر مان ـ ياخ الصفدي (Soghdian) الذي أسهم اسهاما جليلا في تحسين وتنمية التجارة بين الشرق والغرب ، وقد ترأس بعثة بلاده التجارية الى دايزابولوس ، وخاكان الغربية التركية ، وتنقل بين معسكر خاكان في وادي يول دوز ، وستي سفون (عاصمة الاسرة الساسانية) ، وبيزنطة ، حتى يبيع الحرير الصيني . وبالمقابل ، قدمت بعثة يرأسها اليوناني زي مارخوس الى معسكر خاكان أوفدتها بيزنطة . واذا عدنا الى القرن الثامن عشر ق.م ، وجدنا أن ملك ماري زمري ليم كان له سفير في كركميش ، وهو صدقم لاناسي ، يهتم بالامور التجارية ، ويعمل على تقويتها .

أما في إيمار ، فقد كان هناك وكلاء تجاريون يسهلون عمليات الترانزيت ونقل البضائع وتخزينها . ونذكر من تجار إيمار التاجر (هاباتان) ، الذي كان له مقر في ماري ، يعمل به موظفون ينظمون حركة نقل بضائع هذا التاجر بين ماري وإيمار(١٥) .

فيما مضى من سطور ، أبرزنا بعض معالم الشبه بين طريق الحرير والطرق التجارية في مشرقنا العربي ، في الالف الثالث والقرنين الاولين من الالف الثاني ق.م . من غير أن نظهر أوجه الخلاف والافتراق . وعلينا أن نقر حقيقة هامة ، وهي أن الكثير من الاسس والقواعد التجارية لا تتغير ،من ذلك الطرق، المحطات ، الاسواق، الموانيء، الضرائب ، الارباح ، اختيار البضائع التي تناسب أذواق الناس ... الخ . ونتيجة لما تقدم ، نرى أن أسس وقواعد التجارة ، قد صيغت في هذه المنطقة ، وان مبدعي حضارة بلادنا قد طوروا هذه الاسس ، ونشروها في بلاد الجوار ، الذين قاموا هم بدورهم ، فاستفادوا منها واضافوا اليها .

الحــواشـــي

(١) The grand Exhibition of Silk Road Civilizations. The Oasis and Steppe Routes, Nara (1988) Catalogue p. 13 - 14 .

(٢) F. Altheim , Welteschichte Asiens Im Griechischen Zeitalter Halle (1947) , p. 347f.

(٣) المصدر المذكور في الهامش رقم /١/ ، ص ١٢ .

(٤) H. Klengel , Handel und Handler Im Alten Orient , Leipziq (1979) p. 25f.

(٥) The grand Exhibition of Silk Road Civilizations . The Sea Routes Nara (1988) Catalogue p. 154 .

(٦) H. Klengel , op. Cit . p. 36f.

(٧) F. Altheim . op. Cit . p. 348 .

(٨) The Grand Exhibition of Silk Road Civilizations , The Oasis and Steppe Routes . p. 14 .

(٩) F. Altheim . Op. Cit . p. 66 - 68 .

(١٠) F. Altheim . Op. Cit. p. 14 .

(١١) نفس المصدر المذكور في اللاحظة رقم ٩ ـ صفحة ١٥ وما بعد .

(١٢) نفس المصدر المذكور في اللاحظة ١٠ ص ١٦ ـ ١٧ .

(١٣) Jean - Marie Durand , La Cité - État D'Imâr a L'époque des Rois De Mari , MARI 6 (1990) , p. 50 - 51 .

(١٤) The Exhibition of Civilization of Syria , (1988) , p. 156 .

(١٥) Jean - Marie Durand, Op. Cit, p. 75.

طريق الحرير بين ابن بطوطة و ماركو بولو

د. عبد الرحمن حميدة
جامعة دمشق

من غير اليسير على الباحثين تفسير قيام وازدهار وجلال مدن عريقة ، كانت تؤلف معالم الطريق البري الآسيوي العظيم ، كتدمر والري (قرب طهران الحالية) والرقة وبالس وبخارى وكاشغر ، دون التعرض لمواد أولية ثمينة كانت ترد من الشرق الاقصى ، مرورا بالمدن المذكورة ، وهي الحرير والحجارة الكريمة من ياقوت وعقيق ولازورد ، والفراء الذي كان يجلب من مجاهل سيبيريا .

ولكن اذا كانت طريق الحرير تبدأ شرقا من الصين فقد كانت تخترق فيافي منغوليا وحوض نهر تاريم الصحراوي وفجاج وممرات أفغانستان وبلاد فارس ، كي تخترق بلاد الرافدين ومنها الى بلاد الشام ، كي تتفرع الى فرعين . الاول : بري يخترق الاناضول الى القسطنطينية ، عاصمة بيزنطة ، ومن ثم مقر الخلافة العثمانية بعد عام ١٤٥٣م (٨٥٧ هـ) لمدة أربعة قرون من الزمن ، أو نحو موانيء البحر الابيض المتوسط ، مثل اسكندرونة وطرابلس كي تنطلق المراكب منها الى جنوة أو البندقية ، أو مرسيليا .

ولقد ظلت هذا الطريق مهوى أفئدة تجار أوروبا ومغامريها وسبب الشعور المرير بالحسد لديهم تجاه تجار المشرق العربي ، في مصر أو بلاد الشام ، الذين كانت توابل الشرق الاقصى والحرير والحجارة الكريمة تمر من خلال أيديهم ويجنون من ورائها الارباح الطائلة ، اذ كانوا مضطرين ، صاغرين ، الى شرائها بوساطة المشارقة القسرية .

ومن المفارقات العجيبة أن يقصد الصين ، مصدر الحرير ، الذي كانت تتلهف على شرائه الاوساط المترفة ، بعد تحويل شرانقه الى أقمشة ، طبعا ، من شعوب الشرق الادنى وأوروبا وأفريقيا ، أقول أن يقصد بلاد الشرق الاقصى اثنان من مشاهير الرحالة ، ينتسب أولهما الى دولة ذات تقاليد بحرية عريقة ، هي جمهورية البندقية ، وأقصد به ماركو بولو M. Polo ، الذي بلغ الصين عن طريق البر ، عن سابق تصميم ، في حين بلغ ابن بطوطة الطنجي الصين ذاتها ، ولكن عن طريق البحر ، بصورة رئيسة ، وهو المنحدر من قبيلة لواته البربرية ، والمنتسب الى مملكة المغرب التي لم تكن تملك أسطولا كبيرا ولا تقاليد بحرية عريقة ، حتى أن سلفه الرحالة ابن جبير

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١ .

قصد الحج على متن سفينة جنوية . كيف لا وقد أطلق العرب على البحر المتوسط اسم بحر الروم ، بعد أفول نجم سيادتهم عن حوضه ، اللهم الا في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م . وقد كانت آخر محاولة للبحرية العربية في عهد معاوية سنة ٦٧٤م ولكن الاسطول العربي اضطر للانسحاب بعد أن استعمل البيزنطيون النار اليونانية ، وقال شاعر عربي :

البحر مرّ المذاق صعب ... لا جُعلت حاجتي اليه

أليس ماء ونحن طين؟ ... فما عسى صرنا اليه

كما روي عن الشاعر أبو العرب الصقلي يشكو ضعف قوة العرب البحرية بالموازنة مع بحرية بيزنطة وأسطول جمهوريتي البندقية وجنوة :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى ... وأعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفين به ... الا على غررٍ والبرّ للعرب

وكان على العرب عامة والمسلمين خاصة أن ينتظروا حتى القرن السادس عشر الى أن يظهر خير الدين بربروس أمير البحرِ في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني ، الذي قهر أسطول آندريا دوريا الجنوي (١٤٦٦ - ١٥٦٠) والذي سبق له بدوره أن قهر الاتراك في معركة بلانوزا Planoza ، أو بعبارة أخرى أعاد بربروس ذكرى انتصار معركة ذات الصواري في أيام الخليفة معاوية الاول .

* * *

واذا كان ماركو بولو ينحدر من أسرة تملك بيوتات تجارية ، في موانىء شرقي البحر الابيض المتوسط ، وكان يريد استكشاف الطريق التجارية البرية الذي كان حكرا على المسلمين ، مما يجعل من ماركو بولو شبيها في دوافعه بكريستوف كولومب الذي كان يبحث عن طريق تقوده للهند مصدر التوابل وسلع الشرق الاقصى للتخلص من هيمنة العرب على تجارة هذه المواد الغالية ، فان ابن بطوطة كان أقرب الى سائح وصوفي وعالم فقيه .

والواقع لم تحقق معرفة الارض ، في أوروبا ، خلال الفترة الممتدة من عصر الاسكندر المقدوني الكبير أو الثالث (٣٥٦ ق.م - ٣٢٣ ق.م) حتى القرن الثاني عشر الميلادي ، أي تقدم يستحق الذكر . وظلت جغرافية بطليموس هي المصدر الكبير للمعلومات الجغرافية عن العالم . وبالطبع كانت هناك رحلات وأسفار ، فوق متن البحار وعلى الطرق البرية ، قام بها العرب منذ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) بلغوا فيها الصين ذاتها برا أو بحرا .

ولهذا كان لاول كتاب يظهر في لغة أوروبية بعد فراغ في قائمة المستكشفين امتد على ١٥٠٠ عام في القارة الاوروبية وهو كتاب ماركو بولـو ، صداه الواسـع المدى وتأثيره . ففي خلال هذه الحقبة لم يرد ذكر للقارة السوداء أو آسيا البعيدة ، غير أن التعطش للمعرفة ظل يقظا ومتحفزا ، ومتجها نحو قطب الفضول العلمي ، أي نحـو الهند ، وكان هاجس ارتياد طرق الشرق الاقصى ، الذي حققه الاسـكندر ، والذي شغف به آخرون من قبله ، أقول راح هذا الهاجس يدغدغ بشكل مكتـوم ، وخـلال خمسة عشر قرنا ، ادمغة سكان السواحل الشمالية للبحر المتوسط . وقبل أن يندفع كريستوف كولومب فوق عباب بحر الظلمات (المحيط الاطلنطي) كانت أوروبا ترسل رهبانها ، وتجارها ، وسواحها ، نحو مجاهل الاراضي الشرقية . فلم يقم فاسـكو دوغاما برحلته ، التي طاف بها حول أفريقيا واكتشف رأس الرجاء الصالح ، وتوقف في موزمبيق وبلغ الهند ، وما كانت رحلة كريستوف كولومب ، الا بقصد الاستيلاء على الكنوز الاسطورية التي كتب عنها رحالة سابقون ، والتي لا يمكن بلوغها الا بالالتفاف من خلف الحاجز الاسلامي الذي كان يغلق الطريق في ذلك العصـر في وجـه النفوذ الغربي الى الصين .

فحتى ذلك الوقت كان الشرق ، في أنظار الاوروبيين ، مرادفا للرعب والمخاوف بعد فشل الحملات الصليبية المتتالية . وفي أعقاب الاجتياح المغولي الكبير الذي لـم تنج منه أوروبا الا بمعجزة في ١٢٤١ م ، لم تحقق السفارتان اللتـان قام بهما عدد من الرهبان الفرنسيسكان أي نجاح يذكر ، والتي كانت أولاهما برئاسـة جان دوپـلان كارپـان Carpin (١٢٤٥ ـ ١٢٤٧م) ، والثانيـة بقيـادة غليـوم دو روبـرك G. de Rubrock (١٢٥٣–١٢٥٤م) ، بعد أن وصلا الى كورو كوروم ، عاصمة المغول في أواسط القرن الثالث عشر ، وكانت مهمتهما تنحصر في تسليم (الخان الكبير) رسالتين من البابا اينوسان الرابع ولويس التاسع ، ملك فرنسا وقائد آخر الحملات الصليبية . وقد رجع پلان دو كارپان الى أوروبا حاملا الجواب الشهير من امبراطور المغول والذي يقول فيه : « نحن نعبد الرب ، وبالاستعانة به ، سنقوم بغمـر الارض بالاطلال بدءا من الشرق حتى الغرب » .

ومن الجدير بالذكر أيضا التنويه برحلة بنيامين الطليطلي ، الذي يعود أصلا الى اقليم نافار في اسبانيا ، والذي قام قبل قرن من رحلة ماركو بولو وظل خلال ١٤ عاما يرتاد أرجاء آسيا بقصد « زيارة واحصاء كل اليهـود من أتباع الديانـة الموسـوية المنتشرين على سطح الارض » . وقد ارتحـل بنيامين المذكور مـن القسطنطينية الى بغداد ، ومنها الى سمرقند وجزيرة سرنديب (سـيلان أو سيريلانكا الحالية) وبلـغ الصين كي يعود الى الحبشة ، وقدم ملاحظات أدت لتوسـيع المعلومات الجغرافيـة الاوروبية في ذلك العصر ، عن أصقاع آسيا الداخلية .

ماركو بولو (١٢٥٤ – ١٣٢٤) :

وقد كانت أسرة بولو Polo تملك مؤسسة تجارية عريقة في القسطنطينية ، ومكتبا تجاريا فرعيا هاما في شبه جزيرة القرم ، كما كانت أسرة بولو ، في الوقت ذاته على اتصال وثيق مع بلاد الشام ، ولا سيما في حلب «خان البنادقة» ، ومع امبراطورية التتر ، وهذا عندما قام الاخوان نيكولو ، وعمه ماتيو ، بالانطلاق في سنة ١٢٦١ نحو الصين ، وجرى لهما استقبال في بلاط الامبراطور كوبيلاي خان(١) الذي عهد اليهما بمهمة السعي لدى البابا لارسال « مائة من علماء وجهابذة الفنون السبعة » . وبعد عودتهما الى البندقية في ١٢٦٩ استأنفا رحلة العودة الى الصين مصحوبين بالشاب ماركو ، الذي كان عمره آنئذ ١٧ عاما ، وحملهم البابا غريغوار العاشر رسالة وهدايا للامبراطور كوبيلاي ، الذي استقبلهما سنة ١٢٧٥ في مقره الصيفي في مدينة شانغدو (كايبينغ اليوم) بعد رحلة استغرقت ٤ سنوات ، اجتازوا خلالها بلاد فارس وهضبة بامير والتركستان الشرقية ، وطريق غانسو (اليوم كانسو) وبلاد خطاي (الصين الحالية) . ولم يغادروا الشرق الاقصى الا بعد ١٦ عاما ، أي في ١٢٩١ ، كي يبلغوا موطنهم في البندقية في عام ١٢٩٥ .

وكانت بداية الرحلة التي اشترك فيها ماركو ، في عام ١٢٧١ ، انطلاقا من ميناء باياس في صدر خليج اسكندرون وقضت ثلاثة أعوام ونصف نحو بكين ، من أقصر طريق ، أي من جنوبي الجبال السماوية في سلسلة تيان شان . وقد بلغوا أولا مدينة ايسوس Issus ، رأس خط التجارة الآسيوية ، والذي لم يحيدوا عن ركوب مساره . وفي أرمينية زاروا أولا قمة جبل آرارات ، حيث زعم ماركو أن فيه بقية سفينة نوح عليه السلام . أما بحر الخزر الذي كان يمخر عبابه آنئذ البحارة الجنويون، منافسو البنادقة ، فقد ذكر ماركو وجود منابع النفط ، الذي كان يستخدم كوقود وكعلاج ضد جرب الابل . ومن هناك انحدر نحو هرمز في مدخل الخليج العربي حيث كانت تتفرغ حمولة المراكب ، المجدولة بالالياف ، من بضائع الهند .

ثم صعد الركب نحو الشمال ونحو الشرق مرورا بصحارى تحوي مدنا مزدهرة الى أن بلغوا سابورغان التي تشتهر « ببطيخ أكثر حلاوة من العسل » ووصلوا مدينة بلخ عند التخوم الشمالية الشرقية لبلاد فارس ، واقليم بادخشان ، الواقع بين جبال

---

(١) كوبيلاي : امبراطور الصين من عام ١٢٥٩ الى ١٢٩٤ . ولد حوالي العام ١٢١٤ ، وأبوه طولوي، حفيد جنكيز خان . وأسس أسرة يوان Yuan التي حكمت الامبراطورية بين ١٢٨٠ – ١٣٦٨ . وأخذ على عاتقه الاستيلاء على امبراطورية سونغ . ولكنه اصطدم باليابان والهند الصينية . وقد أخضع لسلطته ملوك آنام وتشامبا وبورما . وكان عليه أن يحارب ضد عمه كايدو ممثل حزب المنغول القديم . وقد دان الصينيون لسلطته بعد تبني عاداتهم وحمى البوذية . وقد عهد لماركو بولو بسفارة سياسية دبلوماسية .

هندكوش ونهر آموداريا ، حيث كانت الاسرة المالكة هناك تدعي أنها تنحدر من الاسكندر المكدوني الكبير .

وبعد أن غادرت القافلة هذا القطر الغني بالياقوت الاحمر ، واللازورد ، والفضة بلغت هضبة بامير التي قدم عنها ماركو ، لأول مرة ، وصفا مستفيضا ، ثم وصلت البعثة سهل كاشغر ، أي سلكت الطريق التي سبق أن سارت فيه قافلة الاخوين بولو ، خلال رحلتها الاولى ، واجتازت شارخان الواقعة عند تخوم امبراطورية الخان الكبير « الذي تجرف أنهاره الاحجار الكريمة الثمينة حتى السهل ، ومن هناك ترسل الى الصين كي تباع هناك » .

ومن هذه البلاد غير الواضحة المعالم والتحديد ، وصل البنادقة الثلاثة ، بعد أن اخترقوا صحراء لوب ، الى أول مدينة صينية هي مدينة ساتشيئو ، ومنها الى كابيتشو (خان خو حاليا) حيث مكثوا هناك عاما كاملا . ولما كانت اهتماماتهم تتمحور حول المعلومات الاقتصادية ، فقد درسوا ، بامعان ، كل معالم المنطقة ، واندفعوا حتى انهم جمعوا عينات من وبر بقر اليال الذي يعيش في الهضاب الجبلية ، ولا سيما في التيبت ، والذي قاموا بغزله فيما بعد في البندقية ووجدوا أنه أكثر نعومة من الحرير ذاته . وبعد أن زاروا صحراء قره قوروم بلغوا مدينة تندوك الواقعة الى الغرب من النهر الاصفر (هوانغهو) . وتابعوا طريقهم نحو سينداكو وتشانغنور حيث أقام الخان الكبير قصرا لممارسة هوايته في قنص النمور والحمر الوحشية ، ولكن دون أن يأتوا على ذكر السور العظيم ولو بكلمة واحدة . وأخيرا وبعد ثلاثة أعوام ونصف من الاسفار ، وعند مدينة كايبيفو ، تمكنوا من مقابلة الامبراطور كوبيلاي ، في مقره الصيفي ، والذي لا تزال أطلاله ماثلة ، على مسافة ٢٠٠ كم الى الشمال من عاصمة الصين الحالية ، بكين . .

وهناك ، قدموا تقريرا عن رحلتهم « لسيد كل تتر العالم ، أي من تتر المشرق الى تتر المغرب » . وكان عمر الامبراطور ذي العينين السوداوين والبشرة الفاتحة اللون ، اربعة وخمسون عاما ، وكان ربع القامة ويميل للبدانة . وكان يقطن مقصورة ، مقطورة ، مصنوعة من قصب البامبو المزوّق بالذهب ، والتي كانت تتنقل من وقت لآخر ضمن حديقة حيوانات حقيقية يقع القصر داخلها . وكان بمقدور هذا القائد الكبير أن يعبىء جيشا مقداره نصف مليون محارب ، وهو رقم هائل في ذلك العصر ، وكان بلاطه يفوق في فخامته وفي بهائه كل أمثاله على سطح الارض . وقد اختار عاصمة له المدينة الصينية « كامبالوك » القريبة من بكين ، والتي كانت مركزا ثقافيا ، أقام فيه سنة ١٢٧٩ م مرصدا يشرف عليه اختصاصي بيزنطي . وكان يضم كل الادوات

المعروفة في ذلك الزمن ، وكانت هذه المؤسسة العلمية تمثل نوعا من جامعة يدّرس فيها علماء من كل العقائد والمذاهب .

وكان يسكن في العاصمة كامبالوك التي كانت تتمركز فيها الحكومة اثنا عشر من الاعيان الكبار الذين يحكمون أربعة وثلاثين اقليما تتألف من مجموعها الامبراطورية المترامية الاطراف . وكان حكمهم ميسورا الى حد كبير بفضل منظومة طـرق تؤلف شبكة تعمل فوقها خدمات بريدية تضم ۱۰۰۰۰ محطة وتستخدم مائتي ألف رأس من الخيــل .

وكانت هذه المدينة متصلة بنهر اليانغتسه ، أكبر أنهار الصين ، بقناة تمتد لاكثر من ۱۰۰۰ كم مجهزة بهويسات وبطريق جانبية . وكان يسمح عرضها وطولها وعمقهـا للمراكب الكبيرة أن تسير فيها بسهولة . وقد تراءى نهر اليانغتسه للرحالة ماركو بولو كأهم شريان ملاحي داخلي رآه في حياته ، وهو يروي ١٦ اقليما ويربط بين ۲۰۰ مدينة كبيرة وتشهد سجلات الجمرك على مرور ۲۰۰۰۰۰ مركب فيه في اتجاه واحد سنويا.

ولم تكن مدينة كامبالوك هي الوحيدة التي أثارت اعجاب ماركو بولو . فقد جرى تعيينه حاكما على مدينة لا تقل من حيث عدد سكانها عن العاصمة ذاتها ، وهي كينساي (هانغتشيئو حاليا) وكان محيطها يمتد على ۱۰۰ فرسخ (۱) وكانت تماثل البندقية لأنها كانت قائمة فوق العديد من أذرع نهر تسيانتانغ، على مسافة غير بعيدة عن البحر. وكانت هذه المدينة تضم ٦٠٠٠٠٠ عمارة ، و ٤٠٠٠ حمام تسخن مياهها على الفحم الحجري المستخرج من جبال كاتاي Cathey وكانت تحوي أيضا بحيرة داخلية يبلغ طولها ٤٠ فرسخا(۲) ، ويتجول فوقها ۱۰۰۰ زورق للمتعة والتنزه ، هذا فضلا عـن القصور والاديرة والكنائس ، ومئات الجسور . وكان شارعها الكبير الذي يبلغ عرضه أكثر من ۱۱۰ م يخترق تسعة أسواق كبيرة ، بالاضافة الى شوارعها الثانوية الفرعية المبلطة والمجهزة بالمجاري وأحياء أطبائها وأحياء خاصة بعلماء الفلك ، وكانت تؤوي قرابة ۳ ملايين نسمة .

وكانت هذه المدينة العملاقة عاصمة اقليم مانزي الذي فتحـه كوبيلاي وكانت حاضرة ١٤٠ بلدة من أصل ۱۲۰۰ مدينة تقع ضمن الممالك التسع في المنطقة . وكانت مركزا تجاريا تعجز أوروبا عن تكوين فكرة عنها ، وكان تموينها لوحده يفترض وجود تنظيم غير معهود في الغرب . ويقدم ماركو بولو مثالا عن وزن الفلفل الذي كان ضروريا لاستهلاكها اليومي ، وهو ٩٥٨٩ رطلا أو ٨ر٤ طونات . هذا كما كانت أيضا مكان لهو ،

---

(۱) الفرسخ طوله ، عند ماركو بولو ، ٥ر٥٧٥م ، أي محيط المدينة كان يمتد على ٥ر٥٧كم .
(۲) أو ۲۷ كم .

ففي جزيرتي بحيرتها الداخلية كانت تجري حفلات أفراح عديـدة . وكانت تسـير في شارعها الرئيس عربات خاصة بالاثرياء وعلّية القوم للاستمتاع بالاحتفالات السريـة ضمن مقصورات مشيدة في حدائق كانوا يدعون اليها أصدقاءهم .

وكانت هذه الحياة الحثيثة والمتناسقة تفترض وجود اقتصاد منظم ولا سـيما وجود نظام مالي راقٍ . وقد لاحظ ماركو بولو ، بدهشة ، أن المبادلات كانت ترتكز على عملة رسمية أو « سندات ممهورة بخاتم الامبراطور كوبيلاي » وكانت قيمتهـا تتراوح بين نصف درهم و ١٠ دنانير ذهبية ، يصدرها مصرف حكومي ، وتتألف من ورق أسود مستمد من لحاء شجر التوت . وكان الناس يدفعون للمصرف ، وذلك عدة مرات في العام ، ما يملكون من ذهب وفضة وأحجار كريمة، مقابل هذه العملة الورقية . وعلى نقيض ذلك كان بمقدورهم أن يستردوا منها حسب حاجاتهم . وهنا اكتشف هذا التاجر البندقي العملة المصرفية .

وقد مكث ماركو بولو في خدمة الامبراطور كوبيلاي مدة سبعة عشر عاما ، وعهد اليه فيها بالعديد من البعثات الرسمية كما قام ، وهذا لحسابه الخاص ، بعدة رحلات اندفع فيها حتى التيبت ، من أجل عقد صفقات تجارية شخصية ، وكذلك الى مختلف الاقاليم الصينية ، احداها من بكين الى اقليم يونان والاخرى من بكين الى فوجيـان Fou-Kien والى الهند وربما الى بلاد زيبانغو (اليابان) . وقـد أخذ على عاتقـه القيام بالعديد من المهام التي أوكلت اليه بانتظار فرصة موائمة لمغادرة البلاد . وجاءت الفرصة السانحة أخيرا . فقد جهز كوبيلاي ابنته التي خطبها الامير المنغولي آرغون ، الذي كان يحكم بلاد فارس ، وأوكل أمرها الى ماركو بولو الذي قرر أن يسلك الطريق البحرية . وقد وُضع تحت تصرفه أسطول مؤلف من ١٤ سفينة مجهـزة لرحلـة تستغرق عامين . وكانت هـذه المراكب من النمط المألوف ، مجهزة بالعديد مـن القمريات المريحة ، وبستائر كتيمة مطلية بالقار .

غادر ماركو بولو ميناء زيتون (بين آموي وفوتشيئو) نحو العام ١٢٩١ م وبلغ اقليم كوشنشين في الهند الصينية الذي سبق له أن زاره ، ثم أقلع باتجاه صومطرة التي اعتقد أنها جزيرة « جاوه الصغرى » ومكث مدة خمسة شهور في هذه الجزيـرة بانتظار الرياح الموائمة . وقد استغل هذه الفرصة لدراسـة الجزيرة بأن قام فيهـا بالعديد من الرحلات حيث التقى ببشر ذوي أذناب (قردة) وبالكركدن ، الذي قيل له أن لسانه لوحده ، هو أخطر ما فيه بسبب الاشواك المسلح بها . وتذوق خمر النخيل المشهور كعلاج ضد مرض الاستسقاء ، ومرض الاكتئاب ، كما اكتشف نخيل الخبـز الذي ينتج دقيقا ، كما حصل على حبوب نبات هيماتوسيلون hématosylon الـذي يعرف عند الصباغين باسم « برازيل » والذي حاول أقلمة زراعته في أوروبا .

ومن صومطرة ، التي كان يخشى فيها أكلة لحوم البشر الذين كانوا يفترسون الكهول والعجائز من أهلهم ، اتجه ماركو بولو نحو جزر نيكوبار ثم الى سيلان التي وجدها صغيرة ، وتصور أنها تغوص في الماء « بسبب رياح الشمال العنيفة » . وقد تفاوض مع ملكها ، الذي كان يملك أكبر ياقوتة بالعالم ، بقصد شرائها مقابل « قيمة مدينة » لحساب الخان الكبير . ولكن الملك رفض العرض . وقدم له طاسة من المعدن الثمين ، وبعض شعرات آدم ، الذي يقع ضريحه ، حسب اعتقاد مسلمي المنطقة ، في قمة جبل يحمل اسمه .

وانطلق الاسطول صاعدا في اتجاه الشمال مواكبا سواحل الهند وبلوشستان . ووجد نفسه في بحر كان ، في ذلك الزمن ، مجالا خاصا بالملاحين العرب الذين قدموا لماركو بولو ، عن طيب خاطر ، معلومات عن البلاد النائية التي يمكنه ارتيادها ، وكان بذلك أول أوروبي يذكر جزيرة مدغسكر التي ربما التبس عليه أمرها مع المنطقة القارية أي « موغاديشو » عاصمة الصومال ، لانه يروي أنها مأهولة بالابل وبالفيلة التي كان يثيرها سكان الجزر بقصد تهييجها عند احتدام المعارك . غير ان ملاحظة هامة استقاها من العرب عن « رأس كوريانتس » أي « رأس التيارات » والذي كان الملاحون العرب لا يغامرون بالابتعاد لما وراءه خوفا من أن تجرف سفنهم نحو الجنوب بتأثير تيار موزمبيق الشديد . وهكذا ندرك السبب الذي جعل طريق « رأس الرجاء الصالح » البحرية مجهولة وتحاشاها الملاحون العرب من الشرق ، ولم تكتشف فعلا الا بجهد اناس قادمين من الطرف الآخر من القارة السوداء ، أي البرتغاليين ، وبعد قرنين من الزمن .

ونقل ماركو بولو أيضا بعض الاخبار عن جزيرة زنجبار ، وعن جزر يصعب الاقتراب منها حيث يسود فيها طائر يفرد جناحيه على مسافة ٥٠ مترا ، هو الرخ ، الذي أثار مخاوف الخان الكبير ذاته . وقد جلب بعض المستكشفين الذين أرسلهم ريشة منه ذات أبعاد مذهلة فضلا عن أنباء أخرى مثيرة ومستغربة .

ويجب أن نرى في ذلك تلميحا عن النعامة التي كانت تدعى آبيرونيس Aepyronis والتي انقرضت تماما في هذه الايام والتي تعتبر بيوضها أساس هذه الاسطورة .

وأخيرا بلغت الحملة هرمز وسلم ماركو بولو لابن آرغون الاميرة التي تكفل بايصالها لخطيبها . وبعد أن حصل على خفارة قوية بلغ مدينة طرابزون والقسطنطينية ومن ثم مدينة تغرومونت . وفي عام ١٢٩٥ م وصل البنادقة الثلاثة الى موطنهم حيث وجدوا عائلتهم التي استقبلتهم ببرود بعد غياب استمر ربع قرن وتصورت أن هناك خدعة . وقد أثار هؤلاء الجوالة الدؤوبون على حب الاستكشاف الارتياب في كل مكان أكثر مما حازوا الاعجاب .

غير أن أبناء أسرة بولو الثلاثة لم يستغربوا ما لاقوه بعد أن كشفوا عن هويتهم. ولما برهنوا على صدقهم بنثر الثروات التي حملوها معهم أطراهم مواطنوهم وحكومتهم على مآثرهم ، كما أن ماركو بولو الذي لم يسأم من ذكر ملايين الامبراطور كوبيلاي لقبوه « السيد مليون » وتقلد مناصب سامية . وفي العام التالي سقط ماركو بولو أسيرا في معركة كورزدلا في ١٢٩٨ بأيدي الجنويين على اثر هزيمة البندقية وخلال أسره الذي استغرق ثلاثة أعوام أملى على رفيقه بالسجن روتيشيللو Rutichello من أهالي مدينة بيزا الايطالية كتابه الشهير « عجائب العالم » .

وكتاب « عجائب العالم » أكثر من سرد بسيط لرحلة ، فهو لوحة جغرافية واتنية éthnique واقتصادية عن الصين ، ولائحة عن معتقداتها ومذاهبها ومؤسساتها ومنتخبات عن العديد من حكايات تتعلق بماضيها الاسطوري ، ولا سيما عن جنكيزخان وحتى عن الملك يوحنا الحبشي ، وأخيرا هي تأريخ لمدة خمسة عشر عاما من النشاط السياسي . وتبدو مذكرات ماركو بولو ، طبعا ، مشتملة أحيانا على ثغرات ، أو مغلوطة ، وهذا ما جردها من كثير من الاعتبار لدى معاصريه ، حتى لقد ناشدوه وهو على فراش الموت أن ينتزع « الاكاذيب » من كتابه . ولا يصمد هذا البندقي دائما أمام اغراء تزويق روايته ، أو المبالغة بأدواره التي لعبها ، والاحداث التي ساهم فيها . ولكن اذا كانت رواياته لا تخلو من نزوات فهي الاولى ، لدى الاوروبيين ، التي تعطي لمحة تامة عن آسيا ، وتظل الوحيدة التي تصف مناطق لا تزال ، حتى اليوم ، بحاجة للمزيد من المعرفة مما لا يحول بيننا وبين الذهول أمام الروح النقادة التي يذكر بها المصادر التي اعتمد عليها في رواية الاحداث ، وأخلاق الاقوام والاصقاع التي أتيحت له فرصة رؤيتها رأي العين وأن يختبرها بنفسه . واذا كان ماركو لم يتعلم أكثر من نتف من اللغة الصينية ، فان معرفته كانت متعمقة في المنغولية ولا سيما الفارسية ، وهي اللغة الشائعة حينذاك في كل من الصين الوسطى والشرقية في مجال المبادلات الثقافية والتجارية ولا سيما بيوتات تجارة الحرير التي كانت ترجح الطريق البرية الجافة بدلا عن الطريق البحرية التي تعرض هذه المادة الحساسة للتلف السريع بسبب شدة الرطوبة . وأخيرا فان اتساع مروحة أخباره يعود ، بالاضافة الى طول أمد اقامته ، الى البعثات العديدة التي سنحت له فرصة القيام بها بتكليف من امبراطور ذكي يهتم بجمع كل الوثائق الاتنوغرافية عن أقطار شديدة التباين ، لا سيما وان الامبراطور عهد اليه بأمر ادارة ضريبة الملح ، هذا فضلا عن سفارتيه الرسميتين الى بلاد شامبا وسيلان ، وهما من الاصقاع التي زارها في طريق عودته الى أوروبا بطريق بحار الجنوب .

واذا كانت اهتمامات ماركو بولو ، بالدرجة الاولى ، تجارية ولحساب والده وعمه فقد عرف كيف يمارس الملاحظة المباشرة وأن يستغل تحقيقاته غير المباشرة عن طريق

المعلومات التي كان يستقيها من أفواه الذين صادفهم . واذا كانت حياته تبدو وكأنها سارت في جو رائع وممتع فانها تدين للاختلافات القائمة بين الحضارتين الصينية والاوروبية ، لان الاخيرة كانت تمثل الطرف الهزيل أمام الاولى ، لان الاوروبيين كانوا يفتنون بسحرها عند الكلام عن السقوف الذهبية ، وعن الاصداف الحاوية على اللؤلؤ .

أما من وجهة النظر الى اثارة الحماسة عن البحث عن الذهب الوهاج ، ومن الزاوية العلمية ، فان ماركو بولو قد أرسى قواعد صلبة تثير حماسة الجغرافيين من ناحية ، وطرح بالنسبة للمغامرين ، في الطرف الغربي من العالم ، مذاقا شهيا عن قطر عجيب ، هو الصين خاصة ، والشرق الاقصى ، مصدر الحرير ، بعامة .

هذا وقد ضاع المخطوط الاصلي الذي كتبه روتيشيللو بلغة مختلطة بلغة البندقية « ميليونة » ولكن نجاح هذه القصة بلغ درجة جعلته ينقل بسرعة الى معظم اللغات الرومانية والايطالية . وقد تم حتى الآن احصاء ١٤٣ مخطوطة . ولكن أفضلها هو المخطوط الفرنسي الايطالي ، ورقمه ١١١٦ ، في المكتبة الوطنية في باريس ، وعنوانه « كتاب عجائب العالم » الذي كان يملكه دوق دو بيري ، في باريس ، سنة ١٤٠٠م . وهناك ترجمة لا تينية قام بها ف. بيبينو في فلورنسة سنة ١٣٤٠ ، أما النص الايطالي بقلم راموزيو ، وعنوانه « رحلات بحرية وبرية » فتاريخه ١٥٥٩ . غير ان اكتشاف مخطوط في ميلانو عام ١٧٩٥ هو نسخة منقولة عن مخطوط لاتيني في ١٤٧٠ عثر عليه في طيطلة ، قاد الى ظهور ثلاث طبعات بالايطالية على يد ف . بينيديتو (فلورنسا ١٩٢٨ وتورينو ١٩٦٢) وبالانكليزية على يد مول A.C. Moule وبيليوت Pilliot (لندن ١٩٣٨) وبالفرنسية بجهود هامبيس L. Hembis في باريس سنة ١٩٥٥ .

ابن بطوطة (٧٠٢ هـ ـ ٧٧٩ هـ) ـ (١٣٠٣ ـ ١٣٧٧ م) :

كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي عالما في الشريعة والفقه تخرج من معاهد طنجة . رأت عيناه النور لاول مرة في شهر شباط ـ آذار ١٣٠٣م / (٧٠٢هـ) ومنها جاء لقبه بالطنجي والذي غلبت عليه الشهرة العالمية وهي « ابن بطوطة » .

واذا كان سلفه ماركو بولو الذي يكبره بنحو ٤٩ عاما من حيث العمر قد انحدر، كما سبق ورأينا ، من أسرة تجارية عريقة ، فقد كان ابن بطوطة مدفوعا بالورع والتقوى لأداء فريضة الحج وارتياد طريق الحرير ، عن غير قصد ولا تصميم مسبق ، ولكن من الجنوب ، وهي الطريق التي سلكها ماركو بولو في عودته الى موطنه . بيد أن المسالك التي اختارها ، أو التي فرضتها الاقدار عليه ، تدل على أن هوايته الحقيقية هي الرحلة وحب الاستطلاع ، أو السياحة على أبعد تقدير .

فبعد أن اجتاز افريقيا الشمالية كلها بلغ وادي النيل وصعد في اتجاه معاكس لمجراه حتى الشلالات . ولكن نشوب حرب في تلك المناطق جعلته يقفل راجعا نحو الدلتا ، وارتحل بحرا الى بلاد الشام ، وزار دمشق وهي « شامة على خد العالم » كما يقول ، حيث كان الطاعون يجتث أرواح قرابة ٢٤٠٠٠ نسمة يوميا ، فقصد بغداد وأصفهان . ومن هناك سار مع ركب الحجيج الى مكة المكرمة من طريق غير مباشرة وأقام فيها ثلاثة أعوام قبل أن يزور بلاد النجاشي مرورا بميناء عدن .

وبعد فترة انكفأ ابن بطوطة نحو آسيا وانطلق من سيراف الى هرمز وزار بلاد العجم ، وعاد الى مكة ، واجتاز البلاد المصرية من جديد كي يبلغ الاناضول الذي كان يعاني من غليان سياسي شديد ، فقد كانت دولتا جنوه والبندقية في حالة صراع مرير للسيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقي والقسطنطينية ومصر ، كما كان القبجق يتنازعون لاستلاب بقايا دولة السلاجقة .

ومر من ميناء سينوب على البحر الاسود التي كان أميرها يلجأ الى القرصنة ويعمد الى اغراق المراكب المعادية بثقبها مستعينا بغطاسين أثناء المعركة ، كما تفعل الضفادع البشرية في أيامنا . وبلغ شبه جزيرة القرم وتجول في بلاد السلطان محمد أوزبك خان في خيمة محمولة فوق مركبة حسب الطراز التتري . وقد استقبله السلطان وأعجب ابن بطوطة بعاصمته الجوالة ، وبأواني مائدته الذهبية ، وبثرواته الواردة من الهند ومن الصين . وقد اندفع حتى بلاد بلغار ، وهي منطقة قازان وأوفا، على نهر الفولغا الاوسط ، حيث تكون الليالي قصيرة صيفا ، وكان يتوقف لزيارة «بلاد الشفق » حيث يقسر الجليد على استبدال الكلاب بالخيول لجر الزحافات . غير انه عدل عن هذه الرغبة ، وعاد الى بلاد القبجق حيث طلب السماح له بمرافقة قافلة احدى زوجات السلطان في زيارتها لوالدها الامبراطور آندرونيك الثالث . وقد كان بصحبة الاميرة بيلون وبصحبة خمسمائة فارس ومائتي مملوك ، وألفي رأس من الخيل ، وثلاثمائة ثور ، ومائتي جمل ، وأربعمائة مركبة ومسجد محمول ، وواكبت القافلة ساحل البحر الاسود الشمالي، واجتاز دلتا نهر الدانوب حتى بلغ القسطنطينية التي كانت أجراس كنائسها تزلزل الافق ، واذا كان قد عجز عن زيارة كنيسة القديسة صوفيا بحسبانه مسلما فقد حظي بزيارة الامبراطور وباستقبال لائق .

وبعد اقامة استغرقت شهرا في القسطنطينية عاد في قلب فصل الشتاء الى بلاد القبجق وهو مدوج بجلود الذئاب في حين كانت تتدلى من شعر لحيته حبات الجليد. وبعد أن اجتاز نهر الفولغا (نهر الاثل) وزار بخارى وبلغ سمرقند « احدى أجمل مدن الدنيا » ذات القصور والجنان الرائعة ، والعديد من الطواحين القائمة على نهر الخزاف . ومن هناك بلغ نهر الهندوس وأقام ثلاثة أعوام في دلهي (دهلي) حيث شغل

منصب القضاء ، وشهد عن كثب السلطان محمد شاه الرهيب الذي كانت أفياله تقذف المحكومين بالاعدام في الهواء كي تتلقفهم بأنيابها المجهزة بخناجر حادة .

وفي عام ١٣٤٢/م (٧٤٣ هـ) أراد السلطان أن يبالغ في اكرام ضيفه فعهد اليه بمهمة شاقة لدى امبراطور الصين . وتشكلت فرقة مؤلفة من ٢٠٠٠ فارس لمصاحبة الرسول السامي الذي حمل الكثير من العطور والاقمشة والرقيق فضلا عن الهدايا الاخرى . غير أن القافلة تعرضت للنهب أثناء الطريق ، ولم يتم انقاذ ابن بطوطة الا بمساعدة أحد الزنوج المرافقين ، فعاد الى دهلي ، وحصل على أموال جديدة لتجهيز قافلة ثانية ، واستأنف سيره حتى بلغ ساحل مالابار . وفي قاليقوت ، ظل ابن بطوطة ينتظر ثلاثة شهور ، بين الحدائق العائمة التي كان يزرع فيها الصينيون الزنجبيل ، وهو يرقب هبوب رياح طيبة ، ولكن في عشية الاقلاع غرقت سفنه الاربع عشرة مع كل ما فيها من رجال بفعل عاصفة مدمرة .

وبعد أن اعتراه الارهاق تخلى عن مسؤولياته كسفير وقصد جزر المالديف (الدبل)، وتزوج فيها وقضى هناك فترة سعيدة من حياته اذ تسنم منصب القضاء الى أن قسره الوزير الاول الى الرحيل ، فقصد ساحل كوروماندل الهندي ولكن الرياح دفعته نحو جزيرة سيلان (سيريلانكا) حيث سلبه القراصنة كل ممتلكاته المنقولة فعاد الى قاليقوت على بحر عمان والتي انطلق منها نحو صومطرة ووصل اليها أثناء استعراض مروع قام خلاله رجل بجز رقبته أمام السلطان تكريما له . وقد منحه هذا الامير كل ما يلزمه للانطلاق نحو الصين ، وظل يمخر عباب البحر خلال بضعة أشهر فوق « بحر ساكن » هو المحيط الهادي ، فبلغ كيلوكا ، وهي مدينة لم يمكن تحديدها حتى الان ، وتجول في أرجاء الصين في شتى الاتجاهات ، كما شهد جنازة الخان الكبير ، الذي كان سلفه ماركو بولو في خدمته وأسهب في الكلام عنه ، ويذكر أن ضريحه كان مليئا بجثث المحظيات . وقد جرت تضحية عشرة فرسان ذبحا فوق تل الضريح .

غير أن ابن بطوطة اضطر بعد قليل لمغادرة البلاد التي كانت فريسة اضطرابات سياسية ، دون أن يرى سور الصين العظيم الذي كان يلهب خياله . وعاد الى موطنه طنجة عام ١٣٤٩م / (٧٥٠ هـ) مرورا بجزيرة صومطرة وهرمز ومكة المكرمة ، وبلغ فاس حيث اختصه السلطان المريني بكل ترحاب لائق ، ولكنه لم يلبث أن كلفه السلطان بسفارة باتجاه السودان حيث زار بلاد حوض النيجر الذي التبس عليه بنهر النيل .

وفي فاس وفي بلاط السلطان المريني أملى ابن بطوطة رحلته على الكاتب الشاعر ابن جزّي الكلبي (المتوفي عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) والذي زوقها بأسلوبه الخاص ومنحها عنوان « تحفة النظار في عجائب الامصار » الشهير بكتاب « رحلة ابن بطوطة » .

الخلاصـــة :

نستشف من استعراض رحلتي ابن بطوطة وماركو بولو أن اكتشاف الصين وارتياد أرجائها كان هاجس العديد من أبناء الامم التي تعيش في قارتي أوروبا وافريقيا. واذا كان لطريق الحرير الارجحية البرية نظرا لقصر المسافة ونظرا لرفد مادة الحرير بمواد ومنتجات لا تقل أهمية كالاحجار الثمينة والفراء وأحيانا التوابل القادمة من الهند ، مثلما نلاحظ شدة اختلاف الدوافع لدى الرحالتين في تحمل المشاق والمخاطرة، ولكنهما أفلحا في فرض اسميهما على التاريخ ودخلا عالم الخالدين من أوسع أبوابه .

مراجع البحث

آندريه ميكيل ، جغرافية دار الاسلام البشرية ، جزآن ، ترجمة ابراهيم خوري ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٣ .

د. شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية ، بغداد ١٩٧٥ .

د. شاكر خصباك ، كتابات مضيئة في التراث ، بغداد ١٩٧٩ .

اغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، الادارة الثقافية ، الجامعة العربية ، الخرطوم ، ١٩٦١ .

د. عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٤ .

ابن بطوطة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠ .

د. ابراهيم أحمد العدوي ، ابن بطوطة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ .

فؤاد أفرام البستاني ، ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٣٧ ، الروائع ، جزآن .

أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى ، ابن بطوطة ، القاهرة ١٩٣٩ .

نفيس أحمد ، الفكر الجغرافي في التراث الجغرافي الاسلامي ، ترجمة فتحي عثمان ، دار القلم ، الكويت ١٩٧٨

د. حسن محمد فهيم ، أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٩ .

أحمد أبو سعد ، ادب الرحلات ، دار الشرق الجديد ، بيروت ١٩٦١ .

René Glozier, **Les Etapes de la Géographie** P.U.F., Paris 1949 .

Macel Griault, **Les Grands Explorateurs,** P.U.F., Paris 1946.

حوار الحضارات على طريـق الحرير
بين الصين والشـام

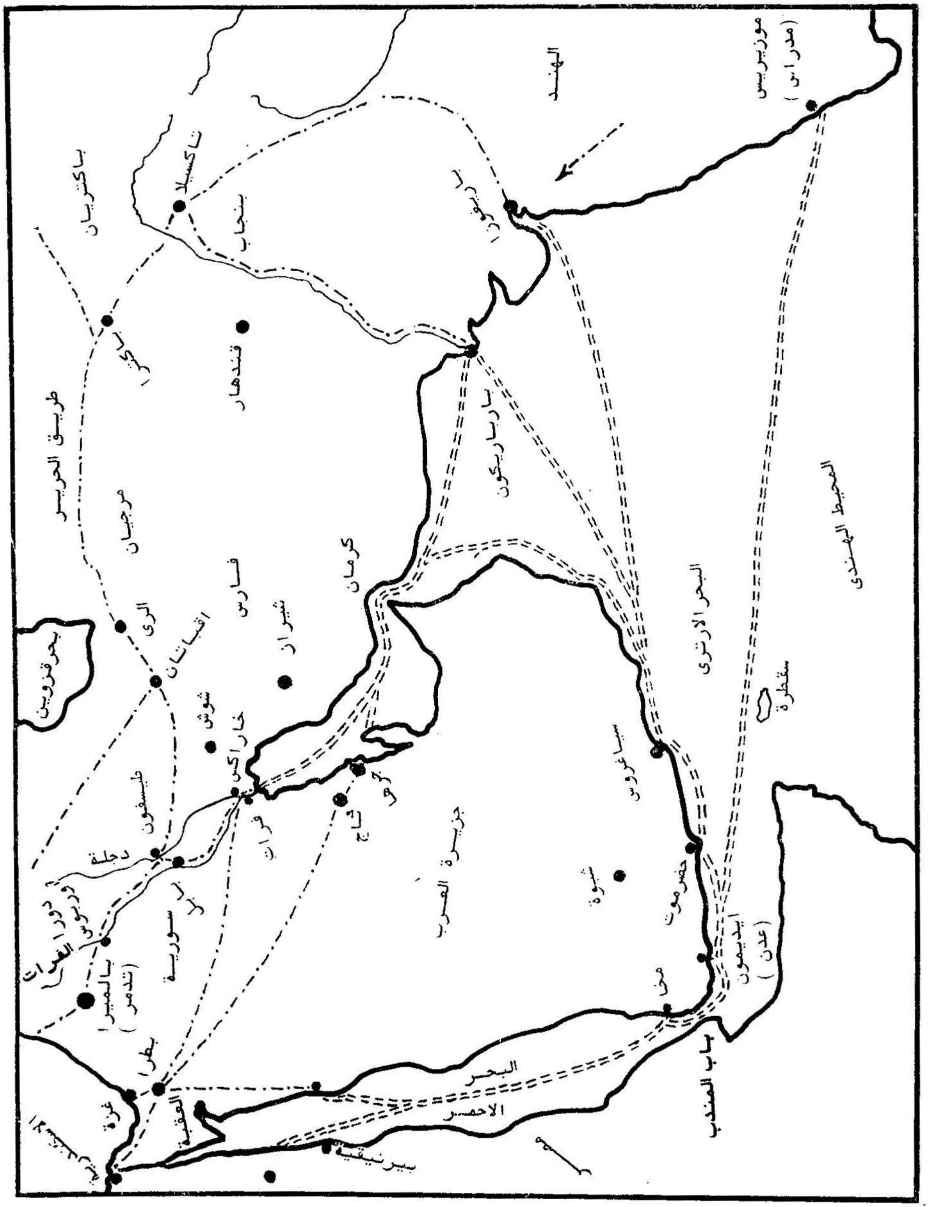
د. محمد حرب فرزات
جامعـة دمشـق

بعد الاستطلاعات العلمية والتنقيبات التي أجريت في كثير من المواقع الاثريـة والتاريخية في آسية الوسطى اتسعت أعمال المنقبين الاثريين والباحثين الصينيين بحثا عن مراكز الحضارات القديمة . وكان من محصلة هذه الجهود العلمية المتكاملة تحديد منازل ومحطـات ومواقف على طول عدد من الطرق كانت متصلة فيما بينها وتمثل معا شبكة لطرق القوافل القديمة المعروفة **بطريق الحرير** . وقد تمكن الباحثـون بعد سنوات من العمل المتواصل من اكتشاف طريق سير القوافل التي كانت تصل ما بين عالمين ، الصين في الشرق الاقصى وحوض البحر المتوسط في الشرق الادنى ، مرورا ببلاد الترك وفارس والمشرق العربي طوال قرون عديدة امتدت ما بين القرنين الثاني والرابـع عشر للميلاد .

١ ــ بلاد الصين بلاد الحرير :

ولئن كان مصدر دودة القز أو دودة الحرير ، من جبال أسام في شمال الهنـد ومن بلاد البنغال ، فانه في شمال الصين تعلم الانسان لاول مرة كيف ينسج خيوط الحرير من الشرنقة . وقد تم هذا الانجاز العظيم في تاريخ الحضارة الانسانية في حوض نهر تاريم في ما يعرف بتركستان الصينية .

ولقد وصف الكتاب الصينيون هذه المنطقة الزراعية الغنية التي تتألف مـن قوسين حول صحراء غوبي شمالي نهر تاريم وجنوبيه ، وهو يشق طريقه الى أن يضيع في مستنقعات لوب نور الهائلة .لكن الصحراء كانت تصارع المروج الخضراء باستمرار وتتقدم مهددة حياة السكان الرعاةالرحل الذين لجؤوا الى الواحات الخصبة ليؤسسوا فيها تجمعاتهم العمرانية التي اعتمدت الزراعة أساسا لاقتصادها ، فتحولت بجهـد الانسان كل واحة الى مدينة في جنة تغدق خيراتها الوفيرة من القمح والثمار والزهور. ومن أهم واحات القوس الشمالي طرفان وقره شهر وكوتشا وأقصو وأوتش طرفان وكاشغر . أما أهم المدن في واحات القوس الواقع جنوبي الصحرء فهي ليولان وخوطان ويرقند . ويتكلم السكان في هذه المناطق لهجات هندو ــ اوربية ولهم صلات ثقافية تربطهم بالهند وايران . واذا ما بدا السكان في أيامنا هذه متأثرين عرقيا بالترك فـان ملامح سحناتهم تحمل أيضا تأثير الايرانيين القدماء .


الهند
موزيريس (مدراس)
باكتريان
تاكسيلا
قندهار
طريق الحرير
مرجيان
كرمان
فارس
شيراز
الري
اقباتان
بحر قزوين
شوش
خاراكس
طيسفون
دجلة
الفرات
(تدمر)
سورية
جزيرة العرب
شبوة
حضرموت
مخا
(عدن)
سقطرة
البحر الارترى
المحيط الهندى
البحر
الاحمر
باب المندب
العقبة
غزة
برنيقية

ولقد قامت في هذه الواحات ممالك مستقلة كونت محطات على طريق الحرير الذي بقي قرونا عاملا للاتصال بين طرفي الحضارة في العالم القديم ، الصين في الشرق الاقصى من جهة وشبه القارة الهندية والعالم الايراني وبلاد شرقي البحر المتوسط من جهة اخرى . وقد جنت هذه الممالك الصغيرة المستقلة من قيامها بدور الوسيط بين دائرتي الحضارة الكبيرتين في العالم القديم ثروات كبرى جعلتها من أغنى بلاد العالم وهدفا للطامعين من الفاتحين .

وتذكر المصادر القديمة المعروفة أن خيوط الحرير كانت تمثل موردا من موارد الثروة للمناطق التي تقابل ما يعرف حاليا باقليمي شان سي وهونان(١). وكانت تنسج من هذه الخيوط أصناف متعددة من النسيج الحريري الملون الجميل .

وكان مصدر دودة القز (باللاتينية **S'aeta**) التي تفرز خيوطا ناعمة ولامعة اكتشفت أهميتها في صناعة النسيج الحريري الطبيعي الذي كان مصدره الاول من جبال أسام في شمال الهند ومن بلاد بنغال ، ولكن في شمال الصين وفي مناطق الواحات التي نتحدث عنها تعلم الانسان لاول مرة كيف يغزل خيوط الحرير الطبيعي . وكيف يصنع من هذه الخيوط نسيجا . وبقيت شعوب الشرق الاقصى تحتكر صناعة الحرير وتصدره لتجني الارباح الوفيرة من تجارته في العصور القديمة الى أن تعرفت الشعوب الاخرى على هذه المادة الثمينة ، فانتقلت الى العالم اليوناني ــ الروماني الذي تمكن من الوصول اليه مباشرة بوسائله الخاصة حتى انتقلت تجارته الى أيدي العرب في العصور الوسطى ، وبقي في أيديهم حتى الحروب الصليبية التي شنها الغرب الاوربي على الشرق العربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والتي كان من نتائجها البعيدة اضعاف العالم العربي الاسلامي ووصول الاوربيين عن طريق المواصلات البحرية الى بلاد الشرق عبر المحيط الهندي منذ مطلع القرن السادس عشر مباشرة ودون وسطاء. وتحت حكم أسرة **هان** (٢٠٦ ق.م ــ ٩ م) كانت لفائف الحرير تستخدم كالنقد في التبادل الرسمي مع القصور ، قبل أن تتطور هذه الوسيلة الى ما أصبح فيما بعد الورق الحريري (الكاغد) . وقد اشتهر الصينيون ، الذين حملوا اسمهم من اسم أسرة (تصين) التي حكمت البلاد بين (٢٢١ ــ ٢٠٦ ق.م) وعملت على اقامة حكم مركزي وشيدت سور الصين العظيم ، باسم آخر (سيريس) الذي كان الرومان يطلقونه عليهم ، وهي تسمية مشتقة من الكلمة الصينية (سو) التي تدل باللغة الصينية على الحرير . أما العرب فدعوا الصين الشمالية بلاد الخطا(٢) ، وهو الاسم الذي يذكر به الصينيون عند العرب والروس .

ولكن موادا أخرى كانت تستخدم للتبادل الى جانب الحرير في ذلك العصر من تاريخ الصين القديم ومنها الحجارة الكريمة كاليشب (الجات) ، الذي كان يمكن

الحصول عليه بكثرة من الحافة الغربية لضفاف حوض نهر تاريم ؛ وكذلك الاصداف والودع التي كان مصدرها على الارجح من الاتصال بملاحي المحيط الهندي من جزر ملديف الى الجنوب الغربي من الساحل الهندي الجنوبي .

٢ ـ التوسع الصيني نحو حوض تاريم : بلاد الواحات

عمل القادة الصينيون طوال القرن الاول الميلادي من أجل السيطرة على حوض تاريم . وسعت الاسرات الحاكمة المتعاقبة الى المحافظة على الانجاز الاستراتيجي الذي تحقق على أيدي قادة عسكريين عظام كانوا يتسمون ببعد النظر . وظلت الصين تتحكم بالمواقع المهمة وأقامت سلسلة من الاستحكامات والمحطات في هذه المنطقة الواقعة في الشمال الغربي من أرض الصين قرونا امتدت حتى عصر المغول (القرن الثالث عشرم.) عندما استولى على البلاد قبلاي خان ، فانتقلت السيادة على الطريق الى أيدي الفاتحين المغول الذين امتد نفوذهم على معظم العالم القديم من الصين الى أرض الجزيرة والشام .

ويرجع الدور الاكبر في بسط سيطرة الصين على حوض تاريم الى القائد **پان تشأو** (القرن الاول ـ القرن الثاني م) الذي بدأ تحركه بضربة قاضية وجهها الى أولى الممالك الصغيرة التي وقفت في طريقه ، وهي مملكة (لوب نور) منفذا لخطة هجومية لم تترك لخصمه أية فرصة للدفاع . واقتحم (عرين النمر) كما قيل ، بلا شفقة . ثم أخضع مملكة خوطان التي تتمتع بموقع استراتيجي على الطريق الفرعية المتجهة الى الجنوب حتى وصل الى مملكة كاشغر غربا حيث فرض أحد أتباعه المؤيدين لسياسته ملكا عليها(٢) مكرر .

وهكذا بدا هذا القائد الجسور متحكما بمقدرات حوض نهر تاريم والمنطقة المحيطة به أمام تحركات الشعوب والقبائل المجاورة . وهو لئن تمكن من عقد تحالفات محلية واقليمية لتعزيز موقفه بزرع بذور الخلافات بين الحكام في فترة ما ، فان ذلك لم يكن دون صعوبات مخيفة عندما قامت ضد الحكم الصيني وسياسته التوسعية ثورة عارمة فاجأت القائد پان تشأو وكادت أن تؤدي الى تدمير كل ما حققه من انجاز عسكري استراتيجي عندما تلقى الاوامر من الحكومة المركزية في العاصمة الصينية تسانغ نفان بترك كاشغر والتراجع الى مواقع وراءها .

لكن القائد الصيني ، ونظرا للاهمية الاستراتيجية الكبرى لموقع كاشغر ، تظاهر بتنفيذ الامر ، لكنه أوجد ظروفا مكنته من العودة الى مواقعه السابقة وبسط سيطرته على حوض نهر تاريم كله لقطع دابر هجمات الهون المتكررة والمتوقعة دائما . وكانت طريقته في احكام قبضته على المنطقة هي في اتباع سياسة صارمة في تجنيد الشعوب

المعادية لمحاربة بعضها بعضا مستعينا بموارد من البلاد المحتلة والمخضعة ، وهي عين السياسة الامبريالية التوسعية التي كان يتبعها الرومان في توسيع سيطرتهم في حوض البحر المتوسط .

وهكذا كانت جحافل الجيوش الصينية تبسط سيطرتها وراء حدودها على الاراضي الخصبة والمراعي العظيمة الشاسعة في يرقند وخوطان . ولم يكن بوسع الحكومة المركزية أن تتجاهل ، بعد الانتصارات الحاسمة التي أدت الى الاستيلاء على أراضي ست وثلاثين مملكة في حوض تاريم ، خطط پان تشأو ونصائحه السديدة التي أدت الى احتواء خطر الهون على الجبهة الشمالية الغربية (المنغولية) والى وضع حد للتدخل الهندي ـ السكيذي الممتد من التبت وافغانستان لنجدة مملكة كوتشا (كوشان) ، ومد نفوذه الى الممرات المعلقة في هضبة بامير التي اعترف أمراؤها به وبحكومته وأرسلوا الى البلاط الصيني الهدايا معالسفارات فاعترفت الحكومةبدورها أخيرا بمنجزات القائد الكبير ومنحته لقب (الحامي العام لبلاد الغرب) أي نائبالملك والحاكم الفعلي لمناطق اسية الوسطى التي أدخلت في اطار الاستراتيجية الصينية. وهكذا نجحت الصين في وضع يدها على نقطة الانطلاق لما عرف بعدئذ بطريق الحرير وفرضت حمايتها على هذه الطريق الدولية في ظل السلام الصيني الطويل .

بعد انتصارات بان تشأو أصبح العالم الصيني على اتصال مباشر مع العالم الايراني وأصبح الصينيون أكثر قربا من الغرب . ففي عام ٩٧ م . كلف القائد الصيني أحد مساعديه كينغ ـ بينغ بمهمة دبلوماسية لدى المملكة الفرثية لاقامة علاقاتتجارية ودبلوماسية معها ثم التمهيد لتجاوز هذه الدولة الكبرى الفاصلة للوصول الى العالم الروماني لوضع قواعد لعلاقات مباشرة معه ، في الوقت الذي كانت فيه رومة تتلمس طرقا للوصول الى الشرق .

وانه لمن المثير أن يتعرف الصينيون على الواقع العالمي آنذاك وأن يتطلعوا الى الاتصال بعالم البحر المتوسط وحضارته . ولكن يبدو أن كينغ بينغ خاف الاقدام على هذه المهمة الخطيرة فترك نفسه يقع في أيدي الفرثيين ، ومن المرجح أن الفرثيين ساورتهم شكوك من تحالف يمكن ان يحصرهم بين فكي كماشة اذا ما تم أي اتصال دبلوماسي بين الصين التي أصبحت على حدودهم الشرقية والرومان الذين كانوا يواجهونهم على الجبهة الغربية . فلهذا كانوا يبذلون قصارى جهودهم لمنع دخول أي وسيط آخر سواهم على طريق الحرير البرية .

وتؤيد دراسات أشار اليها كورنمان للتحركات الرومانية للاتصال بالشرقالاقصى

هذه المساعي المتزامنة بين العالمين الصيني والمتوسطي(٣) . فمنذ وصول رومة الى المشرق العربي في القرن الاول ق.م ارادت أن ترث التقاليد التجارية لدول المنطقة ولا سيما البطالمة الذين كانوا يتعاملون مع الدول التجارية العربية ، وعلى رأسها الانباط واليمن . ولقد أرادت الامبراطورية الرومانية انتضع يدهاعلى التجارة البحرية بين البحر الاحمر والمحيط الهندي لتأمين وصول التوابل والعطور والاقمشة النفيسة من بلاد العالم الهندي والشرق الاقصى . وكان التجار العرب والهنود يحتكرون ، كل في منطقة نفوذه ، تجارة هذه البضائع منذ عصور بعيدة الى أن جاء الرومان الذين أرادوا وضعها تحت سيطرتهم وأنفقوا في سبيل ذلك الفضة والذهب كما يدل على ذلك انتشار النقود على الطريق التجارية وفي المحطات لتي كانت تتوقف فيها(٤) .

٣ ـ الفرثيون على طريق الحرير :

ورث الفرثيون (٢٤٧ ـ ٢١٢ ق.م) كل ما كان عرفه الشرق القديم من تقاليد وخبرات في ميادين التجارة في العصور السابقة . فالاخمينيون قبلهم اهتموا فيما بين القرنين السادس والرابع ق.م بالطرق التجارية البرية لتسهيل الاتصال بين ارجاء امبراطوريتهم الواسعة الممتدة من الهند واسية الوسطى شرقا الى الحوض الشرقي للمتوسط غربا ، وهذه الامبراطورية الشرقية الشاملة ورثت بدورها دور حضارات عريقة عرفها الشرق العربي بين الرافدين والنيل . ولضرورات استراتيجية فرضتها الحروب الميدية بين دول بلاد اليونان ومملكة فارس أمر الملك داريوش بشق طريق امتدت ١٦٧٧ ميلا شيدت لحراستها المحارس والمواقع والمعسكرات والمحطات بين أفسوس على بحر ايجة وسوسة (الشوش) في جنوب غربي ايران ، وبشق طريقاخرى بين بابل واقباتانا (همذان) وكابول .

وحافظ السلوقيون على التقاليد القديمة وعملوا على تنفيذ شبكة طرق وصلت ما بين سلوقية على الفرات وباكترا (زارياسيا) عبر اقباتان ومرو للالتقاء بالقوافل على الطرق القادمة من الهند والصين . وعندما استقلت باكتريان (٢٥٠ ـ ١٣٩ ق.م) عن المملكة السلوقية أقامت شبكة طرق اتصلت بالصين وسيبيريا والهند وايران أتجهت الى مركز هذه الدولة التي تلاقت فيها الحضارتان الهندية والهلينية ، الى تاكسيلا في أفغانستان . وتتصل هذه الطرقات غربا بمراكز الحضارة والتجارة في المشرق العربي حتى أنطاكية والاسكندرية في قلب العالم الهلنستي والروماني .وعندما انتقلت مقدرات الامور الى **الفرثيين** (٢٤٧ق.م ـ ٢٢٤م) الذين أسسوا دولة في البلاد الواقعة جنوبي بحر قزوين (الخزر) ، استرد العالم الايراني القديم دوره ، ووقفت هذه الدولة سدا منيعا في وجه التوسع الروماني على خط الجزيرة والفرات ، وشكلت بالتالي حاجزا في طريق الاتصال المباشر على طريق الحرير بين الصين والامبراطورية

الرومانية . واحتكروا لانفسهم دور الوسيط وفرضوا على القوافل العابرة الرسوم والمكوس . وقد جعل الفرثيون عاصمتهم في هيكاتومبيلوس على الطريق بين سلوقية غربا وباكترا شرقا ، ثم تتصل الطريق ببلاد كوشان (ذات الالف مدينة) ، في آسية الوسطى شمالا فتتكامل عندئذ حلقات الاتصال حتى حوض تاريم في شمال غربي الصين .

لكن السلسلة لم تمتد بعد ذلك طويلا . فقد بدأت الاضطرابات تجتاح العالم القديم منذ بداية القرن الثالث الميلادي مهددة كل جزء من الـ ٢٥٠٠ ميل ، الممتدة من سورية غربا الى حوض تاريم شرقا . واضطر الصينيون الى الانسحاب من موقعهم وقطعوا الطرق الرئيسية التي كانت تحت سيطرتهم . ووجد كل من العالمين الصيني والروماني نفسه واقعا تحت وطأة ضغط الشعوب الزاحفة من الداخل نحو هذا الخط التجاري العظيم . وكان من جراء ذلك ضعف الطلب على المواد المستوردة من البلاد الاجنبية وقل حجم التبادل الذي كان مزدهرا في أيام السلم الصيني ، لكنه لم يتلاش وانتقل جزء من الفعالية التجارية الى طرق أخرى أكثر امنا ويسرا .

٤ ـ طريق الحرير البرية : من انطاكية الى الشرق :

بينما كان الصينيون يحكمون قبضتهم على منطلق طريق الحرير ومساره من الصين باتجاه الغرب كان تجار الحوض الشرقي للمتوسط يسعون الى الوصول الى معلومات عن هذه الطريق دون الخضوع للوسطاء الفرثيين . فقد حدث أن تاجرا كان يقيم في سورية وله اسم اغريقي ـ روماني ، مايس تيسيانوس Maes Titianos أعد برنامجا لمساعدة عملائه ووكلائه الذين كان يتعامل معهم في نشاطه التجاري ، على التعرف على طريق الحرير للتخلص من المتاعب التي يفرضها الفرثيون ، بالاستعانة بالمعلومات المعروفة وما يمكن اضافتها اليها من مصادر اخرى . وقد وصف الفلكي والجغرافي اليوناني الاسكندري بطلميوس (٨٥ ـ ١٦١م) طريق الحرير بدقة ملفتة للنظر بعد أن رجع الى مؤلفين سابقين له مثل مارين الصوري وغيره عند اعداد كتابه (الجغرافية)(٥) الذي بقي المرجع الاساس في موضوعه حتى القرن السادس عشر. ومن هذه المراجع الكلاسيكية يمكن التعرف على السبل التي كان يتم بها لاتصال بين طرفي العالم القديم في الشرق الادنى وفي الشرق الاقصى :

كان التجار السوريون ينطلقون من انطاكية عاصمةسورية الرومانية، على المجرى الاسفل لنهر العاصي باتجاهالشرق مارين بحلب ثم يجتازون الفرات عند هيرابوليس= جرابلس على الفرات ثم يعبرون أراضي الجزيرة وبعدئذ يتجهون الى المدن الرئيسية الواقعة على الطريق في شمال ايران : اقباتان (همذان) ثم الري فمدينة هيكاتومبيلوس

على ساحل بحر قزوين (الخزر)ومنها الى باكترا = بلخ ومن هناك يجد التجار طريقا لهم الى هضبة بامير وممراتها . في هذه المنطقة كان يلتقي التجار المشرقيون والصينيون ويبادل كل طرف الطرف الاخر بما عنده : الحرير من الصين والتوابل والقرفة وعشبة الراوند مقابل الحجارة الكريمة ، الجات = اليشب من خوطان والسجاد من كشمير وفارس ، والعاج والماس من الهند. وكان أهم موقع يتم عنده مثل هذا اللقاء بين الشعوب والحضارات عند البرج الحجري الواقع على السفح الصيني لجبال كوميداي . وقد يمكن تحديد هذا المكان في نقطة عند الجنوب الغربي من يرقند او غربي كاشغر في ودي ألاي . من هنا يتفرع طريق الحرير الى فرع شمالي مارا بايسدون سيريكا التي يتحدثعنها جغرافيو الاسكندرية المصريون حتى يصل الى داكساتا التي تعد بوابة بلاد اليشب (وهو اسم أخر كان يطلق على الصين) على حافة تون هوانغ التي تنتهي اليها أيضا الطريق الفرعية الجنوبية ، وتتجه الطريق بعدئذ الى توغارا التي يمكن ان تكون هي كان تشيو التي تنتهي اليها كل الطرق القادمة مناسيةالوسطى.

وكان حجم التبادل التجاريمرتبطا بالظروفالداخلية للعالمين الرومانيوالصيني. وكانت الحروب عاملا مؤثرا في اضعاف وتيرة التبادل دائما كما وقع عند نشوب الحروب بين الرومان من جهة والدولتين الايرانيتينالمتتابعتين الفرثية ثمالساسانية من جهة أخرى . فقد تأثرت الحركة التجارية بتحرك الجيوش على طرق القوافل وعلى مقربة من المدن ومحطات المواصلات .

ولقد حاول الصينيون منذ مطلع القرن الثالث احتواء تقدم المنشوريين نحو مناطق نفوذهم في شمال البلاد وقاموا بانشاء سور الصين العظيم نحو ٢٠٠م . وفي الوقت نفسه بدأ الجرمان يتحركون في أوربة نحو خطوط الدفاع الرومانية . وعلى الرغم من قدرة الدول على المقاومة والبقاء مدة طويلة فان ضعفها كان يزداد الى أن واجهت انهيارها ونهايتها أمام قوى عاتية لا تقاوم . وكان من مظاهر التغيير المتسارع في العالم القديم سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية٤٧٦م المتزامن مع تقدم الهون في أصقاع من الصين والهند حيث سقطت أسرة غوبتا على أيدي قبائل الهون التيهددت أيضا بعض مناطق ايران الشمالية .

وقد قلص انهيار النظام الامبراطوري الروماني في الغرب واجتياح القبائل الجرمانية العالم الروماني القديم الطلب على المواد الكمالية المستوردة من الشرق، لكن الجزء الشرقي من الامبراطورية ، والذي استطاع الصمود أمام العواصف بقي يستفيد من التجارة الدولية مع الشرق الاقصى حتى قدوم العرب في القرن السابع، ولكن هذه المصالح التجارية لم يكن بالامكان المحافظةعليها دائما دون الصدام أو التفاهم مع القوة الدولية المقابلة للامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وهي الامبراطورية الساسانية التي ورثت الامبراطورية الفرثية منذ ٢٢٦ م .

لم يقتصر اهتمام هاتين الدولتين الكبيرتين المتعاصرتين على تقاسم النفوذ على الطرق بين البحر الاسود وبحر قزوين (الخزر) وهو ما تسبب في الصراع على تخوم بلاد القفقاس وأرض الجزيرة في سورية ، بل تجاوز ذلك الى طرق المواصلات والخطوط الدفاعية على التخوم السورية والعربية والتي تتصل بالطرق الكبرى ذات الاهمية التجارية الدولية التي تمر عبر البادية العربية السورية الى الفرات والخليج أو بمحاذاة البحر الاحمر حتى اليمن ، وكان كل من الدولتين يهدف الى بسط سيطرته عليها والتحكم بالمفارق والمحطات المؤدية اليها .

٥ ـ طريق الحرير البرية : من الصين الى الغرب .

تنطلق هذه الطريق(٦) من تون (دون) ـ هوانغ في شمال الصين ، وتتجه نحو الغرب وتتفرع الى فرعين: يتجه **أحدهما** جنوبا ويتجه **الثاني** شمالي صحراء تكلاماكان، ثم يلتقيان قرب يرقند عند كاشغر (كاشي) وتعبر الطريق هضاب البامير وممرات فرغانة الى المدن الهامة في آسية الوسطى طاشقند ، وسمرقند ومرو ومن هناك تتجه الطريق جنوبا الى هرات في أفغانستان ثم كرمان وبرسبوليس (اصطخر) وأبلة الواقعة على رأس الخليج العربي بينما تتجه طريق أخرى شمالا الى هيكاتومبيلوس ومنها الى اقباتان وطيسفون (المدائن) ثم الى دورا أوربوس (الصالحية على الفرات) باتجاه تدمر وأنطاكية . وهكذا تلتقي طرق القوافل القادمة من الشرق بطرق القوافل المتجهة الى الشرق الاقصى .

وهناك طريق أخرى **ثالثة** يمكن استخدامها اذا ما كان السلم سائدا في آسية الوسطى وتحت سيطرة سلطة حاكمة قوية ، وتنطلق هذه الطريق من أن يشي الواقعة الى الشرق من تون هوانغ وتصعد شمالا الى جبال تين شان ، ثم تجتاز نهر ايلي الذي يصب في بحيرة بلكاش وتتابع بعد ذلك توجهها غربا باتجاه فرغانة لتلتحق بطريق القوافل الرئيسية في كوكاند ومنها الى طاشقند وسمرقند . وفي موقع ما على هذه الطريق من باكتريا على سفوح هضبة بامير الى فرغانة تقع محطة البرج الحجري الذي مر ذكره وتحدث عنه بلينوس انه كان موقعا للتبادل بين التجار الفرس والتجار القادمين من الشرق الاقصى . وفي نقاط من هذه المواقع على الطريق كان يتلاقى تجار ومسافرون من الصين بتجار من الفرثيين واليونان والسوريين ، فلقد دلت الكشوف الاثرية على آثار مهمة من عصر تانغ منها مدينة نازحي Nazhi التي تسمى حاليا فاكساري في قلب صحراء تكلاماكان ، وحصن أكوسراك الذي يبلغ طوله ٢٥٠ م . واكتشفت على الطريق مقابر وبقايا أناس من أعراق مختلفة وخيول . واكتشفت باتجاه بامير آثار المدينة الحجرية القديمة تاشكوركان ، التي ما تزال آثار حصونها منتصبة على المنصة المتجهة الى أفغانستان وشمال حوض السند .

٦ ـ محطات على طريق الحرير :

كانت الواحات عديدة في حوض تاريم في تركستان الصينية ، وقد صارت مراكز للتبادل التجاري والثقافي ، بين بوذيين من الهند وصينيين وأناس كثيرين من شعوب أخرى . فمن أهم هذه المراكز البوذية : كيوسي أو كوتشا Guga ما بين القرنين الخامس والسادس وكهوف قيزيل وهي من أجمل المعابد البوذية في المنطقة ، وتعود الى ما بين القرنين الرابع والرابع عشر ، وكهوف كومتورا التي كانت معابد استولى عليها الصينيون في القرن الثامن .

في هذه المواقع تبرز نماذج مهمة من الاعمال الفنية الخشبية النفيسة الملونة بالاحمر وبرسوم تصور أشكالا لراقصين يستتر بعضهم بأقنعة تمثل رؤوس حيوانات. وتعكس الرسوم التي تبدو بجدة ملفتة للنظر مفاهيم المجتمع البوذي ، ومنها مواكب الموت الجنزية تقود فيها نساء بملابس شفافة موكب الموت الحزين بينما يعظ واعظ من الكهنة عند رأس الميت . وفي أحد هذه الكهوف ما يزال يبدو تمثال بوذا معلما .

كان حكام **مملكة كوتشا** والطبقة العليا في المجتمع من الطوخاريين ، ولغتهم هندية ـ أوربية ، ولون بشرتهم فاتح وشعورهم شقراء وعيونهم زرقاء . ويبدو في الرسوم رجال ونساء بأثواب فاخرة تذكر بأثواب الارستقراطيين في العصور الوسطى الاوربية. وهناك رسوم تمثل ولادة بوذا ، ومناظر طبيعية جميلة مزدانة بالنباتات والازهار . وقد استولى الصينيون على هذه المدينة في العام ٦٤٨م بعد دمار كبير أصاب المدينة التي أصبحت بعدئذ جزءا من الامبراطورية الصينية .

ومن **المحطات المهمة مدينة خوطان** Khotan على نهر خوطان داريا ، وفي هذا الموقع تمتد انقاض عاصمة مملكة يخطان أو أوطان على طريق الحرير . وكانت هذه المملكة تابعة للهون حتى ٧٣م ثم وقعت تحت نفوذ الصين ، حتى القرن التاسع عندما امتد نفوذ العرب حتى التبت وتركستان الصينية . وتعود الآثار التي كشفت في موقع رواق (القرن ٣ ــ ٧) وفي موقعي دندان ويليق (القرن ٦ ــ ٧) الى مخلفات ثقافات هندية وايرانية . ففي رواق دير بوذي يتألف من برج مربع الشكل متأثر بفن قندهار ومحاط ببهو مربع (٤٣ × ٥٠ر٤٩ م) . وهناك تأثيرات هندية قديمة تعود الى عهد غوبتا (القرن ٥و٦) ونجد تأثيرات قوية للفنون الهندية في دندان ويليق ، وبخاصة شكل شيفا بثلاثة رؤوس . وأما التأثيرات الايرانية فتبدو واضحة في وجوه لأشخاص ملتحين يشار اليهم بالبطل الاسطوري الايراني رستم واله الحرير ، وهناك رسوم لفرسان ولراكبي الابل .

وهناك محطة يجدر ذكرها هي مدينة شور تشوك Chortchuq في تركستان الصينية بين كوتشا وقرة شهر ، والتي تعود الى ما بين القرنين السادس والثامن .

وقد كانت محطة مهمة للقوافل على طريق الحرير الشمالية . وقد كشف المنقبون فيها عن معابد وكهوف وفيها تأثيرات فنون الهند القديمة في عصورها المتأخرة(٧) .

٧ ـ بلاد سيراندا : التنقيبات الاثرية ونتائجها الباهرة .

أطلق الجغرافيون والرحالة الكلاسيكيون اسم بلاد سيراندا Serinda للاشارة الى البلاد الصينية ـ الهندية المتجاورة وتتألف من بلاد سيريكا وهو ما اصطلح على تسميته بلاد الصين المحاذية لمنطقة شمال الهند الواقعة وراء نهر الغانج التي كانت مصدر الحرير . وينطبق اسم سيراندا على بلاد تركستان الصينية حيث اجتمع تأثير فن بلاد قندهارا وايران الساسانية والصين .

وقد أفادت هذه المنطقة الواقعة على طريق الحرير من وضعها في حركة التجارة الدولية طوال ثمانية القرون الاولى من الميلاد . ثم انكفأت هذه المنطقة على نفسها وتدهورت أحوال العمران في مدن الواحات وغمرتها رمال الصحراء التي كانت تحملها الرياح العاتية والمتحركة كأمواج البحر الى أن كشفت عنها أعمال المنقبين عن الاثار .

ومنذ القرن الماضي وخلال النصف الاول من القرن العشرين قامت بعثات من دول أوربية ، من روسية وفرنسة وانكلترة ، ومن اليابان بالتنقيب في مواقع أثرية وتاريخية عديدة على طول هذه الطريق وكشفوا النقاب عن آثار اختفت عن الانظار قرونا وأصبحت بعد دراستها وحفظها شواهد على تلاقي الحضارات والحوار فيما بينها عبر العصور وهي تبدو في ما تمثله من فن تشكيلي تركيبي في التصوير والنحت والعمارة ، وفي تنوع الشواهد المكتوبة التي عثر عليها وهي مخطوطات صينية وهندية وايرانية وتركية وسريانية نسطورية ويونانية وعربية .

ولكن الحكومة الصينية عملت بعد الحرب العالمية الثانية على متابعة الجهود التي بذلت في السابق ولا سيما في المواقع الصينية الواقعة في المراحل الاولى من الطريق لاستكمال الصورة التي تكونت من نتائج التنقيبات في منطقة آسية الوسطى .

وقد تمكن الباحثون من تحديد المحطات والمواقف والمنازل التي كانت علامات مميزة للقوافل التي كانت تتحرك ما بين الصين والبحر المتوسط مرورا بايران والمشرق العربي طوال قرون امتدت حتى القرن الرابع عشر . فبعد ان تسير القافلة محاذية نهر (ثي) كانت تتجه نحو الغرب الى أن تصل الى خيان يانغ ، وهي مدينة حدودية ينتصب عندها (الماولينغ) ، وهو ضريح الامبراطور وودي (١٤٠ ـ ٨٧ ق.م .) ، من أسرة هان ، وما يزال هذا الضريح محتفظا بما فيه والى جانبه عدد من الاضرحة لبعض عظماء البلاط .

وفي موقع آخر بعد أن تنحرف الطريق نحو الشمال الغربي تصل أمام (زاولينغ) وهو الضريح الضخم للامبراطور تاي زنغ (٥٩٩ ـ ٦٤٩م .) وهو مؤسس أسرة تانغ ٦١٨ ـ ٩٠٧ م) ؛ وحول الضريح مائة واثنان وستون قبرا لأتباعه المخلصين . ويظهر بعد ذلك (الكيالينغ) وهو ضريح الامبراطور جاوزنغ (٦٢٨ ـ ٦٨٣ م.) والى جانبه ضريح قرينته الامبراطور ووزتيان .

ولا تظهر اولى الآثار البوذية هندية التأثير الا في دافوسي ، وفيها توجد كهوف محفورة في الصخور وتعود الى ما بين القرنين الرابع والسابع للميلاد . وبعد اجتياز مرتفعات لونغ كسي Longxi التي تنتشر فيها مواقع أثرية كثيرة من الكهوف والمعابد وخرائب مدينة جينشنغ القديمة التي تقوم محلها الان لانزو ، تصل الطرق الرئيسية الى ممر هكسي ، الذي هو معبر طبيعي ومفلاق حقيقي لطريق الحرير يتحكم بنقطة الاتصال بين العالمين الهندي والصيني . وقد حصن هذا الممر من أيام أسرة هان بمراكز المراقبة العسكرية واليه كانت تصل قطعان الخيول التي كان الصينيون يقايضونها مع شعوب السهوب مقابل الحرير .

ويمكن تتبع تطور هذا التلاقي بين الاعراق والثقافات والمعتقدات واللغات على امتداد القرون . فلقد وجدت كهوف بوذية ثم مدينة زانغ يي ثم غانزو = كاميثيو التي ذكرها ماركو بولو الرحالة الايطالي المشهور (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤) ، والذي زار الصين وكان في السابعة عشرة من عمره وأقام فيها وتحدث عنها في قصة رحلته(٨) . وكان معاصرا للرحالة العربي المغربي ابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧ م) .

ووجدت بالقرب من مدينة سوزو = جيوكان في الصحراء ، في موقع دنغ يازو ، قبور عظيمة زينت برسوم ملونة من القرن الخامس وبقايا حصون : جوايوجوانوكوبو أو سوو يانغ ، وهي من القرن السابع ، ويانغ جوان ، وكسياو فانغ بان ، (هيكانغ)، وكذلك قبور مبنية بالآجر المختوم . وقد أظهرت هذه الآثار الصينية للعيان ودرست بالتفصيل . وتعزز كل هذه النتائج ما كانت قد توصلت اليه الدراسات الاثرية والتاريخية التي اهتمت من قبل بالطريق عند انطلاقها من دون هوانغ في شمال الصين باتجاه الغرب الى آسيا الوسطى . وقد أكدت نتائج التنقيب أهمية دون هوانغ بوصفها موقعا مهما متقدما للتبادل بين الشرق والغرب ولامتداد البوذية نحو هذه المنطقة من بلاد الصين الشمالية بما كانت تحمله من عقائد وثقافة ومفاهيم في الفنون التشكيلية .

وفي عصر أسرة هان الذي امتد ما بين القرن الثاني ق.م الى بدايات القرن الثالث للميلاد تقدمت البوذية الى بلاد الصين خلال القرن الاول الميلادي ، وكانت الطريق الجنوبية هي التي كانت تفضلها قيادات القوافل بسبب الاخطار المحتملة من

تحركات شعوب شمالية . ثم تحاذي الطريق الجانب الشمالي لصحراء تاكليما كان لتتجه الى كومول (كامي) ومن هناك تجتاز جبال تيان ـ شـان لتتصل الى باركـول المحاطة بعدد من حصون المراقبة والمدن المجهزة لاستقبال القوافل ، وهي من القـرن السابع ، مثل يي قو ، وباي تنـغ (جي مار) التي وجدت آثارها على مسافة تبعـد عشرة كم الى الشمال من المدينة الحالية .

ولكن الطريق الشمالية لقيت أيضا عناية الباحثين ، فهذه الطريق تجتاز الـي لتصل الى سويي Suiye (توكماك) في بلاد القرغيز ، المشهورة بتربية الخيـول التي نالت اعجاب أباطرة الصين من أسرة هان ، والغنية بالمواقع الاثرية القديمة .

وتجتاز الطريق بعد ذلك وهـدة طرفان ، وهي واحـة ضخمة شمال صحراء تاكليماكان في غور يهبط الى ١٥٤ م تحت سطح البحر عند نهاية تركستان الصينية . وهناك عثر علماء الآثار الصينيون على آثار مدن عديدة مثل مدينة جياو هي ومدينـة جاو شانغ التي أعيد بناؤها في عصر تانغ ، وعلى آثار بوذية في أماكن عديدة وكهـوف للعبادة والاعتكاف ، وقبور مزينة بأشـكال بديعة ، عثر فيها على مئـات الوثائـق والمصنفات ورسوم على الحرير من عصر أسرة تانغ أيضا .

واذا ما اتجهت القافلة أكثر نحو الجنوب اقتربت من حوض نهر تاريم عـلى طريق معلمة بالشواخص للهداية على الطريق كالحصون وأبراج الرصد والمنازل والقبور مثل قره شهر ويانقي حتى تبلغ مراكز اللقاء بين القادمين من الجهات المختلفة . ومن هناك يلتحق التجار الصينيون عن طريق سواحل بحر آرال بالقوافل التي وصلت الى المراكز الهندية ـ الهلينية والفارسية مثل إي خانم ومرو ومن هناك يسلمون القيـاد الى التجار الفرثيين أو الفرس ثم الى التجار السوريين واليونانيين .

وطريق أخرى تمر عبر كاشغر او يرقند وهي مدينة شاش ، وهمـا موقعـان بلغهما العرب في فتوحاتهم منذ العصر الاموي ((القرن الثامن) . وقد كشفت على هذا الطريق بقايا أثرية مهمة ومثيرة في أماكن متعددة منها بالازاغون في أكبكشيم في قيرغيزيا ، وفي لولان الواقعة في صحراء لوب نور التي وجدت فيها اجساد تجففت لاشخاص شقر الشـعور .

وبعد مضي قرون أظهرت التنقيبات للعيان آثار المدن والحصون الواقعة في قلب صحراء تاكليماكان ، كما تم التعرف على أنقاض عدد من المعابد البوذية ومنها تييغمو ودافولوك . وتضاف هذه النتائج التي أدت اليها التنقيبات التـي تمت حديثا الـى النتائج التي تم التوصل اليها في مواقع نيا ودندان اوليك وفي خوطان شـورتشوك وتومشوك . وقد كانت هذه الاخيرة محطة مهمة على طريق الحرير وتعود آثارها الى ما بين القرنين الثالث والخامس .

وعلى الطريق المتجهة بعد ذلك الى هضبة بامير جرت تنقيبات مهمة في موقـع تشكرغان ، وهي مدينة الحجر التي ما تزال حصونها قائمة على المصطبة التي تؤدي الى مدن قندهار وبشاور وهدّا وتاكسيلا وهي المعابر التي تقود الى كابول ومنهـا تنطلق القوافل باتجاه الطرق المتجهة نحو الغرب التي تعاقب على مراقبتها الفرس ثم الفرثيون والساسانيون .

لم يكن لهذا التحرك الواسع للجنود والتجار والرحالة والمسافرين أن يحـرك النقود والديباج والمعادن والحلي والحجارة الكريمة وحسب بل كان وسـيطا ناقـلا للافكار والثقافات . فعلى هذه الطريق كانت تتحرك جماعات بعقائدها ولغاتها وثقافاتها من البوذيين والمسيحيين النساطرة المشرقيين والهلينيين والزرادشتينية والمسلمين. وبين هذه العقائد حققت البوذيـة انتصارات كبـيرة على هـذه الطريق الـى جانب الانتصارات التي حققها تقدم الاسلام .

ولقد أسرع الكهان البوذيون الذين تقدموا من جهات التبت وشمال غربي الهند وأفغانستان للالتحاق بالقوافل القادمة من المشرق المتوسـطي على طريـق الحريـر الدولية . فعلى هذه الطريق وشعابها تقدمت البوذية في بلاد الصين بينما تقدم الاسلام في شمال ايران وآسية الوسطى .

ويمكن القول ان البوذية تأخرت في الوصول الى الصين اذا ما عرفنا أن بوذا مات نحو ٤٨٣ ق.م . وكان من أوائل المشجعين للبوذية في الصين الامير تشو الذي كانت له ممتلكات على مصب نهر يانغ تسو ، فقد شجع تأسيس أول جماعة بوذية في البلاد كانت نواة لتأسيس البوذية في الصين ونشرها (القرن الاول م) . وهكذا عرف العالم الصيني هذه الديانة القادمة من العالم الهندي وجبال الهملايا ، ولكن الصينيين لـم يتقبلوها بسهولة ولم يؤمنوا بها بترحيب ، فقد كانت لهم عقائدهم القديمة من الطاوية والكونفوشيوسية . وكان موقف امبراطورية الصين من العقيـدة الجديدة كموقـف الامبراطورية الرومانية من المسيحية القادمة من سورية وبلاد المشرق في زمن الاباطرة الانطونيين . ولكن على طريق الحرير وفروعه ومعابره ومحطاته ومفترقاته انتشرت البوذية في أوساط واسعة من الصين(٩) .

فعلى هذه الطريق حمل المبشرون البوذيون والتجار تأثير الهند الاصلية وتأثير الهند المهلنة ، ونقلوا مـع بضائعهم وفي لفائف الحرير نتاج العقـول وابداع الايدي الصناع ، ووصل المبشرون أول الامر الى خوطان ثم انتشروا بعد ذلك في حوض وادي تاريم . وهناك في خوطان تمكنت بعثة أوريل ستاين من كشف النقاب عن نقد روماني يعود الى عصر الامبراطور ڤالنس(١٠) (ت ٣٧٨م) بالاضافة الى آثار هندية ـ هلنستية من القرن الثالث .

ولم تكن المؤثرات الهندية البوذية وحدها المهمة على هذه الطريق . فلقد كان تأثير الايرانيين والعرب المسلمين كبيرا في القرون التالية لظهور الاسلام (بين القرنين الاول والسادس الهجريين ، والثالث عشر م) . ويتحدث عن هذا الاتصال بين العالم العربي الاسلامي والعالم الصيني كثير من الرحالة والمؤرخين العرب ومن أهمهم المسعودي (ت ٣٤٥هـ/٩٥٨م) وابن بطوطة (عاش في القرن الثامن هـ = الثالث عشر م)(١١) . ويؤكد التراث الجغرافي العربي استمرار الاتصالات والعلاقات التجارية بين الشرق الاقصى وبلاد شرقي البحر المتوسط، ولم تكن شبكة طريق الحرير البرية هي الطريق الوحيدة للمواصلات . فللطريق البحرية بين الشرق والغرب تقاليدها التي تعود الى قرون بعيدة ، وترقى الى جذور العلاقات التجارية والحضارية بين بلاد المشرق العربي القديم وعالم المحيط الهندي ما بين الالف الثالث والقرن الرابع ق.م. عندما اقتحمت جيوش الاسكندر المقدوني الامبراطورية الفارسية واجتاحت بلاد الشرق وعوالمه المجهولة(١٢) .

٨ ـ الطريق البحرية الى الشرق الاقصى :

كانت هناك طريق أخرى للمواصلات بين عالم حوض المتوسط وبلاد الشرق الاقصى عن طريق المحيط الهندي . فبعد أن كانت الرحلات البحرية تسير محاذية سواحل هذا المحيط قرونا عديدة بسفن قليلة الحمولة ، أصبحت الطريق البحرية أكثر يسرا بعد تعرف الملاحين اليونانيين زمن الامبراطور اغسطس على حركة الرياح الموسمية في مطلع القرن الاول ق.م ، واخذوا يزاحمون الملاحين المصريين والفينيقيين والعرب اليمنيين على الطريق بين البحر الاحمر والساحل الغربي لشبه القارة الهندية. ومنذ ذلك الحين أخذت سفن بسعة ٥٠٠ طن تبحر صيفا باتجاه الموانىء الهندية عند مصب نهر السند مستفيدة من حركة الرياح الموسمية لتعود هذه السفن شتاء ، بعد أن تتغير حركة الرياح الى الاتجاه المعاكس ، محملة بالبضائع من الهند والجزر ومن منتجات الصين وبلاد الشرق الاقصى .

وبعد وصول الصينيين الى هايفونغ (على الساحل الشمالي لفيتنام) من المحتمل أن يكون اللقاء بين التجار الصينيين القادمين من الهند عند (جواق إيو) على مصب نهر الميكونغ الى الجنوب من مدينة هوشي منه = سايغون سابقا(١٣) .

ومن هذه المحطة المهمة على طريق القوافل والسفن بين الصين والهند عبر شبه ملاقا في شبه جزيرة ملايو، كان يجري شكل من أشكال اللقاء بين الثقافات . وقد بقي هذا اللقاء تقليديا على مر العصور ، وذكر كثيرا في المصادر العربية وفي المرويات الادبية الشعبية ، مرتبطا ببلاد الواق الواق التي لم يتفق الباحثون على تحديد موقعها(١٤).

ويقول الاستاذ أندريه ميكيل ان واق الواق بلد غير محدود من الشرق الاقصى ، وقد يكون موقعه وراء الصين في الجنوب أو الشرق الاقصيين ، ويشير اليه أحيانا في اليابان ، أو مدغشقر في شرقي افريقية(١٥) . في حين أن الباحث شوقي عبد القوي عثمان يرفض ما ذهب اليه بعضهم من أن واق الواق هي جزيرة بورنيو (جزيرة في أندونيسية) لان اسمها عند العرب معروف ، وهي الزابج ، كما أن بلادا بعيدة هي السلي قد تكون الفيليبين أو كوريا . فهذه المناطق معروفة بأسمائها . لكنه يرجح مثل أندريه ميكيل أنها اليابان(١٦) .

ومهما يكن فاننا نرى أن بلاد واق الواق التي يتردد ذكرها في المصادر العربية في الحديث عن بلاد على الطرق البحرية الى الصين بمحاذاة سواحل ملاقا هي على الاغلب (**جو اق إيو**) عند مصب نهر ميكونغ الذي يشكل حداً طبيعيا ومكانا مناسبا للقاء بين القادمين من الصين والقادمين من الهند ، بالاضافة الى التشابه الكبير في نطق الاسم في المصادر المحلية والعربية . ففي هذا العالم الشرقي الساحر بلاد تزخر بالخيرات ، واقعة على تخوم التجارة الدولية ، وهي ما تزال تحتفظ بدورها حتى أيامنا هذه ، وان تحرك موقعها الى أماكن أخرى قريبة منها بحكم تبدل الظروف التاريخية، فالدور القديم لمدن مثل كانتون على ساحل الصين وهايفونغ على ساحل فيتنام وجو أق إيو على مصب الميكونغ وملاقا ، كالدور الذي تقوم به مدن هونغ كونغ وجزيرة تايوان وسنغافورة في أيامنا هذه.

فمن ذلك الشرق القصي كانوا يستوردون التوابل والفلفل والعاج وجلود النمور والعنبر الاسمر والبخور والحجارة الكريمة والرقيق ويصدرون اليه الابنوس والزجاج والفخار والعطور والذهب والاقمشة . وقد ساعد وصول البضائع المرغوبة عن طريق البحر على انخفاض سعر الحرير في أسواق حوض البحر المتوسط والى انتشار ادخال التوابل الشرقية والهندية في المطبخ الروماني . وكان من شأن الاقبال على طلب التوابل أن الطريق البحرية صارت تعرف بعدئذ بطريق التوابل والبهارات . وقد صرفت الامبراطورية الرومانية كثيرا من جهودها للتحكم بهذه الطريق ولكن حجم التجارة كان مرتبطا بالظروف الداخلية غير المستقرة للعالمين الروماني والصيني . فكتاب الحوليات في المراجع الكلاسيكية يعلموننا عن وصول تاجر رومانيعام ١٦٦م الى الصين قال انه موفد من قبل الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦٠ ــ ١٨٠) ، وقد وصل عن طريق البحر من وراء نيّان وهي منطقة أنام الشمالية في فيتنام حاليا .

لقد أرادت الامبراطورية الرومانية منذ سيطرتها على الدول الهلنستية في الشرق العربي في القرن الاول ق.م أن ترث تجارة الحرير والتوابل والعطور والمواد النفيسة المستوردة من بلاد الشرق والتي كان يحتكرها التجار العرب والهنود ، كل في منطقة

نفوذه بين البحر الاحمر والمحيط الهندي ، منذ عصور بعيدة حتى أيام البطالمة والسلوقيين والانباط والتدمريين واليمنيين . ولئن كانت رومة قد أفادت من الدور الذي كانت تقوم به التجارة العربية ـ الهندية البرية والبحرية فانها كانت تجد في الفرثيين عقبة في طريقها لانهم بحكم موقعهم كان باستطاعتهم أن يسدوا طريق الاتصال المباشر بين الصين والبحر المتوسط .

وكان الاباطرة الرومان منذ أيام اغسطس يبدون اعجابهم بالحرير الصيني الذي كان يستورد الى سورية لصنع ملابس الامبراطور(١٧) . وبعد استيلاء الرومان على مصر وسورية وضعوا أيديهم على طريق البحر الاحمر (الخليج العربي آنذاك Sinus Arabius وعلى البحر الارتري وهو الاسم القديم لبحر العرب(١٨) . وأخذوا يدرسون المؤلفات التي كتبها مؤرخون وجغرافيون يونان ورومان ومنهم ايراتوستنيس (الهليني المصري الاسكندري ، من القرن الثالث ق.م .) واسترابون (٥٨ ق.م — ٢٥ م) ، وبلينوس (القرن الاول م.) وبطليموس (القرن الثاني م.) . وقد يكون أهم الاعمال الكلاسيكية عن البحر الارتري ، كتاب لمؤلف يوناني مجهول بعنوان « دليل الطواف حول البحر الارتري »(١٩) الذي يبدو أن معلوماته تعود الى عصور مختلفة ما بين القرنين الثالث والاول ق.م . وهو مرشد عملي للملاحين يدل على الطرق والمسافات والاعماق المعروفة آنذاك وهو يضم جملة من الفوائد للمسافرين يمكن أن تساعدهم في معاملاتهم وغدا هذا الكتاب الان وثيقة هامة تقدم معلومات جغرافية وتاريخيه عن بعض البلاد الواقعة على طريق الملاحة بين البحر الاحمر والساحل الهندي (٢٠) .

كان التجار العرب يسيطرون على الطرق بين خليج عدن والخليج العربي والساحل الهندي وعندما كانت تصل بضائع الشرق بحرا الى موانيء الخليج العربي واليمن كانت تحمل باشراف رؤساء القبائل من جرها (العقير على ساحل الاحساء) الى تاج ثم الى دومة الجندل وتيماء فالبتراء . وهناك طريق أخرى تنطلق من خراكس (المحمرة) باتجاه الشمال الغربي ، وكانت هناك طريق تنقل البخور من حضرموت مرورا بنجران ومكة الى البتراء .

وفي العصر الهلنستي السلوقي ثم في العصر الروماني أضحت انطاكية هي نهاية المطاف تنتهي اليها طرق القوافل القادمة من خراكس على الخليج ومن حضرموت وعدن عن طريق الوسطاء الانباط ثم التدمريين .

ولكن لنقل البضائع الى موانيء الامبراطورية الرومانية كانت قوافل أخرى تتجه على الطريق القديم الى الرها ومنها عبر شعاب اسية الصغرى الى الموانيء على

سواحل البحر ، في الوقت الذي كانت تتلقى حمولة قوافل أخرى قادمة من الجزيرة العليا عن طريق نصيبين .

أما القوافل القادمة من الجنوب فكانت تحط في لوكي كومه على الساحل الشمالي للبحر الاحمر ثم تحمل على قوافل برية الى غزة ومنها تصدر برا الى مصر وبحرا الى مدن المتوسط ، ويصف استرابون سيطرة الانباط على جزء كبير من شبكة القوافل بين مصر والخليج وبين غزة والحجاز . مما أثار مطامع الرومان الذي كانوا وضعوا أيديهم بقوة على المحطات الرئيسية على الطريق الشمالية في سورية منذ أيام تراجان (٧٥م) ، ما بين تدمر والرصافة . ولم يعد الرومان بحاجة الى خدمات الأنباط ودور الوسيط الذي كانوا يتولونه ، فتم القضاء على مملكة الانباط التي كانت تمتد أراضيها على جنوبي فلسطين والاردن وخليج العقبة وشبه جزيرة سيناء وهي منطقة مهمة في الخطة الاستراتيجية الرومانية لتحكمها بعقد المواصلات البرية والبحرية ، وأسست بدلا عنها الولاية العربية (١٠٦م) . وانتقل مركز الثقل بعدئذ الى عاصمة عربية أخرى: **تدمر** .

ففي العصر الهلنستي استطاعت تدمر أن تستجلب اليها خطوط القوافل لتكون محطة بين الفرات من جهة وحمص وأنطاكية من جهة اخرى . وعندما نهضت تدمر لتصبح قوة اقتصادية وسياسية في القرن الثاني م ، أخذت تتلاشى أهمية الطريق البرية نظرا للاوضاع السائدة في مناطق تركستان الصينية ، وسيراندا (الهند الصينية) ، مما أعاق وصول بضائع الشرق الاقصى عن هذه الطريق ،وعندئذ عمل التدمريون على تسلم مقاليد التجارة الرافدية نحو الغرب وقادوا القوافل من خراكس وأبولوجوس (المحمرة والابلة) الى مواقعهم المتقدمة على الفرات : دورا أوربوس وحلبية وزلابية(٢١) . ولكن من المدهش أنه كان للتدمريين مراكب تسير الى الهند لتجلب البضائع الشرقية من ميناء بربريكوم(٢٢) . ولقد نعمت تدمر بثروة هائلة في القرنين الثاني والثالث . مكنتها من تشييد مدينة عظيمة وعمران لم يعرفه الشرق من قبل ومن القيام بدور تاريخي عظيم في الشرق العربي حتى تدمير المدينة في ٢٧٣م.

ولكن أهم ميناء على الحوض الشرقي للبحر المتوسط في عصر الامبراطورية العامة هي الاسكندرية ، التي كان عدد سكانها في القرن الثاني يقرب من نصف مليون نسمة، وكانت تتلقى بضائع الشرق من السفن القادمة من هرمز على الخليج ومن عدن في اليمن ، ومن برنيقة عى البحر الاحمر ، ومن الاسكندرية كانت مصر تصدر بضائعها وبضائع المرور الى سائر موانىء البحر المتوسط . وبين هذه البضائع المرغوبة في الاسواق الاقمشة الكتانية المصرية والورق البردي والبخور والصمغ واللؤلؤ من بلاد

العرب والاقمشة الحريرية من الصين والهند والعطور والحجارة الكريمةوالزجاج ، والحبوب لتغذية سكان الامبراطورية(٢٣) .

ولقد ارتبطت أوضاع التجارة الدولية بعد القرن الثالث الميلادي بالاستراتيجية المتضاربة لكل من امبراطوريتي فارس وبيزنطة اللتين ورثتا العداء القديم بين الفرثيين والرومان والنزاع التقليدي للسيطرة على طرق المواصلات . وفي معالجتها للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية وانعكاساتها على العلاقات الاقتصادية اهتمت الباحثة الروسية ن.بيغولفسكيا بالقوى المتنافسة على طريق الحرير وعلى طريق البخور(٢٤) . واستندت الباحثة الى المصادر القديمة والكلاسيكية البيزنطية والسريانية لتحليل تطور العلاقات التجارية البيزنطية مع دول الجزيرة العربية والقوى الاقتصادية فيها . وكان من الواضح ان البحر الارتري (الاحمر) كان حلقة الاتصال بين الهند والمناطق العربية التي تسيطر عليها الدولة البيزنطية. وفي القرنالسادس كان يوجد خط ملاحي بين أيلة ـ العقبة وساحل الهند عبر البحر الاحمر وجنوبي الجزيرة العربية . وتتضح من دراسة هذه المرحلة من تاريخ العلاقات في المنطقة الصلات الوثيقة والترابط العميق الجذور بين فلسطين وبلاد النخيل ، وهي فينيقيون كما يسميها الكتاب والمؤرخون اليونان ، أي الحجاز ، وبلاد حمير (اليمن) .

وفي شهادة لبروقوبيوس القيساري (من قيسارية ٤٨٠ ـ ٥٦٥) الذي كتب كتابا مهما عن عصر جوستنيان ، تتضح أشكال الصراع على طرق التجارة في الجزيرة العربية ق. الاسلام والتي كان محورها التحكم بتجارة الهند والشرق الاقصى . يقول بروقوبيوس :

« لم يكن بمقدور الاثيوبيين (الاحباش) شراء الحرير من الهند ، إذ ان التجار الفرس اعتادوا الوصول قبل غيرهم الى الثغور التي تقف عندها السفن الهندية ، لأنهم يقطنون بلادا مجاورة لهم فيشترون جميع حمولتها »(٢٥) .

ومن المعروف أن الإثيوبيين كانوا حلفاء بيزنطة . وان دراسة الباحثة الروسية تلقي مزيدا من الضوء على تحركات الامبراطورية البيزنطية في الجزيرة العربية عن طريق الحبشة . فحملات أبرهة في الجزيرة العربية في القرن السادس ، ينبغي أن تربط بالحروب الفارسية ـ البيزنطية التي اندلعت ما بين ٥٤٠ ـ ٥٤٦ م ، وفيها انضم الحميريون الى الاحباش والبيزنطيين ضد الفرس . أما على الصعيد الاقليمي في الجزيرة العربية فلقد كان على الحميريين انتزاع السيطرة على جزء من طريق البخور في الجزيرة العربية من أيدي اللخميين . وكان من مصلحة بيزنطة وحمير معا السيطرة على خطوط الملاحة والتجارة في البحر الاحمر وبحر العرب ومنع الفرس وحلفائهم أمراء الحيرة من تهديد هذه التجارة . وكان التحرك البيزنطي في هذا الاتجاه

هو محور التحالفات التي عقدت مع الغساسنة في الشمال والحميريين في الجنوب. في اطار الصراع الذي كان يدور في الجزيرة العربية عشية ظهور الاسلام من أجل السيطرة على طريق التجارة التي كان ينقل عليها المر واللبان من بلاد العرب والحرير من الصين والهند (٢٦) .

٩ ـ طرق المواصلات والتجارة بين الشرق والغرب بعد ظهور الاسلام :

بعد وصول الفتوحات العربية الى الهند والى كاشغر على حدود تركستان الصينية أضحت طرق التجارة الدولية التقليدية بيد التجار العرب ورعايا الدولة العربية . وكان على التجار البيزنطيين بعد ذلك الالتفاف حول البحر الاسود والمعابر الشمالية للوصول الى نقاط الالتقاء بتجارة الشرق الاقصى . وبقيت سيطرة العرب على طرق المواصلات بين الشرق الاقصى وسواحل البحر المتوسط مطلقة حتى الحروب الصليبية .

فلقد تطور معرفة الغرب بالشرق خلال الحروب الصليبية ولا سيما في القرن الثالث عشر بعدما تمكن من الاتصال بالشرق الاقصى مباشرة عندما وصلت جيوش المغول الى البحر الاسود وفرضوا نظامهم وسلامهم على طرق المواصلات من شمال الصين الى شواطىء البحر الاسود . وبعد تأسيس الامارات اللاتينية على طول الساحل السوري من الاسكندرة الى عسقلان في أواخر القرن الحادي عشر وبعد تقدم المغول نحو الغرب تزايدت فرص الاتصال بين الجانبين لوضع العالم العربي الاسلامي بين فكي كماشة . ونجم عن هذا التغيير الجذري في الوضع الجغرافي ـ السياسي في الشرق الادنى تغيير كبير في العلاقات التجارية وفتحت أبواب آسية أمام أوربة وسفاراتها وبعثاتها التجارية التي قادها مغامرون أشداء كان أهمهم ماركو بولو الذي نشر تقريرا عن رحلته التي وصف فيها العالم الذي عرفه وعاشه منذ أن وطئت أقدامه أرض الصين وعمره سبعة عشر عاما وأقام على مقربة الامبراطور المغولي قبلاي خان (١٢٧١ ـ ١٢٩٥) . ونجح الايطاليون بعد ذلك في تأسيس مستعمرات كان معظمها تابعا للجنويين ، من أهمها محطة في القسطنطينية ، وكافا على جزيرة القرم وطانة على خليج أزوف شمال البحر الاسود ، وطرابزون على الساحل الجنوبي . وتعد هذه المحطات نهاية طريق الحرير التي تتصل شرقا بالمدن الايرانية الشمالية ، تبريز ومرو ، ومنها الى سمرقند لتتصل بعد كاشي ـ كاشغر بمحطات حوض تاريم في شمال الصين .

وفي هذا الدور احتلت تبريز مكانا متميزا ، فكانت تتصل بطريق تؤدي الى الموصل وبغداد حتى الخليج العربي والمحطات البحرية التي كانت قائمة عليه ، وأهمها

هرمز وتقع هذه على مضيق هرمز على مدخل الخليج علـى طريق التجارة مع بـلاد الشرق . وكما كانت الصين تمد أقدامها نحو الجنوب لتتصل بالعالم الهندي ، كـان الغرب يخترق جدار المغرب العربي بعد اجتياح الاندلس ويمـد خطوطه الـى مصادر تجارة المشرق العربي مع الهند والمحطات الرئيسية على الطرق : ديو عند خليج السند وقاليقوت على ساحل الملبار وملاقا على ساحل الملايو . وفي هذا التبادل كان الصينيون يحملون الحرير مقابل التوابل ، ولكن التجار العرب والفرس والهنود احتفظوا بسيطرتهم على الطرق البحرية الممتدة من ملاقا الى سـواحل جزيرة العرب . وكانت للصينيين طريق أخرى لنقل بضائعهم الى الغرب هي الطريـق البريـة التي تؤدي الـى البحـر الاسود والبحر المتوسط . فبعد العصر الذهبي الاول في تاريخ الصين أيام أسرة تانـغ (من القرن السابع الى القرن العاشـر) ، وفيها تطـور استخدام النقـد في التجارة واخترعت الطباعة والبوصلة والبارود ، جـاء العصر المغولي (١٢٧٩ ــ ١٣٦٨) الذي اتسعت فيه سوق التجارة البرية .

ولكن الطريق التي فتحها المغول عادت لتغلق أمام التجار الغربيين بعد انحسار المد المغولي ، وبعد تنامي العسكرية التركية في بلاد المشرق وآسية الغربية (المماليك والاتراك السلاجقة ثم الاتراك العثمانيون الذين أسسوا ممالك عسكرية بـين القرنين الرابع عشر والساس عشر) . وكان من جراء تغير الظروف الدولية على طريق الحرير ضعف تجارة الحرير ، فقد عادت الصين الى جذورها القديمة وتلاشى حكم الاسـرة المغولية فيها ونهضت أسرة مينغ (١٣٦٨ ــ ١٦٤٤) ، التي عرفت الصين في أيامهـا أرفع درجات النهضة في تاريخها ، في الادارة ونظام الري والتجارة الداخلية والبحرية. وبعد تقلص الحركة التجارية على الطريق الشمالية مع بلاد الروسية وحوض الفولغا وبحر البلطيق ومدن الهانزا على الساحل الالماني الشمالي اضطرت أوربة الى العودة للتعامل مع مصر والشرق العربي لطلب التوابل والبهارات . واستردت الاسكندرية دورها القديم على البحر المتوسط . ولكن الغرب الاوربي ظل ماضيا في مغامراتـه الاستعمارية وتقدم نحو افريقية للاستيلاء على الذهب والمعادن وليفرض بيع بضائعه مقابل مواد ثمينة لتكديس الثروات والنقود لدفعها مقابل الحرير والتوابل والخزف والمواد الكمالية المرغوبة التي كانت تجلب وتستورد من بلاد لشرق الاقصى . ومع تزايد الفضول لكشـف المجهول وتنامي الاطمـاع ، تزايد اندفاع دول الغرب الى تجهيـز الاساطيل التجارية والحربية التي خرجت في أواخـر القرن الخامس عشر لتفتـح في تاريخ العالم عصرا جديدا هو عصر انتشار السيطرة الغربيـة وبداية الاستعمار . وعندها انتهى فعليا الدور التاريخـي لطريق الحريـر ودخـل اللقاء بين الثقافـات والحضارات في طور آخر هو الصدام الدامي والحروب التي لم تتوقف حتى تصفية الامبراطوريات الاستعمارية في هذا القرن العشرين .

المراجـــع

René Grousset et Sylvie Regnault - Gatier, « Extrème Orient » dans **Encyclopedie la Pleiade** (Histoire Universelle, I, Paris 1956. p. 1615.

(٢) الخطا هي الصين الشمالية ومن كلمة الخطا = كاثاي جاء الاسم القديم الذي عرفه العرب لبلاد الصين : راجع حسين مونس ، ابن بطوطة ورحلاته مصر ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠٠ ، كراتشوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٣، جـ٢ص٥٣٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٦١٨.

(٣) راجع كورنمان حوض البحر المتوسط ، بالالمانية ، مجلدان ١٩٤٨:

E. Kornemann, **Weltgeschichte des Mittelmeer - Rrumes**, München 1948, Band 2, p. 93, 119.

(٤) المرجع السابــق .

(٥) (Ptolémée), dans **Encyclopédie de l'Antiquité classique;** Paris 1962, p. 221.

(٦) لوصف هذه الطريق راجع :

La Route de la Sois, Casal-Expos. Grand Palais, Paris 1976. **Nouvelles Decouvertes Archéologiques en Chine,** I, ed. en langues etrangères, Pekin 1977, p. 58-65 .

(٧) R. Rowland, **Asie Centrale,** Paris 1974, p. 179 - 184.

(٨) وهي مترجمة الى العربية : ماركوبولو ، ترجمة عبد العزيز جاويش ، رحلات ماركوبولو مصر ١٩٧٧ .

(٩) فرزات ، محمد حرب ، كانديد في افريقية أو رحلة ابن بطوطة (ترجمة عن الفرنسية في مجلـة آداب أجنبية دمشق ، العددان ٢٨-٣٩ (١٩٨٤) .

(١٠) Maurice Percheron, **Le Bouddha et la Bouddhisme,** Paris 1954, p. 151-157 .

(١١) R. Grousset et Sylvie Regnault - Catier, ibidem, p. 1622.

(١٢) راجع : المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين . مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان . عدة طبقات أفضلها بتحقيق محي الدين عبد الحميد ، ابن بطوطة (عبد الله بن محمـد بن ابراهيم اللواتي) ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني جزءان ، بيروت ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥م .

(١٣) راجع دراستنا عن العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية ، مجلـة

« دراسات تاريخية » السنة الحادية عشــرة ، العــددان ٣٧و٣٨ ، ايلول ـ كانـــــون الاول ١٩٩٠ ص ٣٣ ـ ٨٨ .

Atlas of the World History, London 1970, p. 71,147.

(١٥) ورد ذكر واق الواق في الف ليلة وليلة ، رحلة السندباد الاولى ، انظـر : اندريــة ميكيل ، جغرافية دار الاسلام البشرية ، ترجمة ابراهيم خوري جـ ٢ ، وزارة الثقافة ، دمشـــق ١٩٨٥، حاشية ٣٠١٩ .

(١٦) المرجع نفسه ص ٢٥٤ ، ٥٦ والحاشية ٣٠١٨ . يرى الباحث عادل محي الدين الالوسي أنهـا جزيرة مدغشقر ، راجع الالوسي ، تجارة العراق البحرية مع اندونيسية حتى أواخر القــرن السابع الهجري أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (١٩٨٤) ص ٢٥٢ .

(١٧) شوقي عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية ٤١ـ٩٠٤ هـ = ٦٦١ ـ ١٤٩٨ م عالم المعرفة ١٥١ ص ٣٠٤ .

وسلى Silla هي كوريا = كوغوريوهي كوريا الشمالية : انظر :

The Time Atlas of the world History, London 1979, p. 126.

(١٨)

(١٩) م. ح. فرزات ، مواقع ارتريا في دائرة التاريخ العربي ، مجلة الفكر العسكري ، العدد ٣ ، ايلول ١٩٧٥ ، ص ٢٨ـ٤٦ .

(٢٠) ترجم هذا الكتاب الى الانكليزية بعنوان :

« The Periplus in the Erythraean Sea », translat. by W.H.Sehot , London 1912.

وهو يحظى في السنوات الاخيرة باهتمام عدد كبير من الباحثين منهم روبان وفوسمان :

Ch. Robin, « L'Arabie du Sud et la date du Perible de la Mer Erythrée, Nouvelles domées». G. Fussman, « Le Uerible et l'histoire politique de l'Inde », in **journal Asiatique,** CCLXXIX, 1991, No 1-2, p. 1-30 et 30 - 38.

(٢١) Gérard Degeorge, **Palmyre,** Librairie Seguier - Archibaud, Paris 1987, p. 35 - 45 .

(٢٢) J. Starcky, **Palmyre,** Paris 1952, p. 70, 80.

(٢٣) عن الاقتصاد في تدمر ، راجع ،

J. - G. Fevrier, **Essai sur l'histoire politique et économique de Palmyre,** Paris 1931.

(٢٤) ب. بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة وايران من القرن الرابع الى السادس للميلاد نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، الكويت ١٩٨٥ .

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

طريـق الحريـر

وتدمـر مدينـة القوافل التجاريـة

بشير زهـدي

المتحف الوطني بدمشـق

يعتبر الحرير من مكتشفات الشعب الصيني قديما ومبتكراته الحضارية المفيدة. وقد تزايدت أهمية الحرير التاريخية والاقتصادية والفنية عبر العصور، وغدا من أهم مواضيع التبادل التجاري والتجارة الخارجية العالمية. وأصبحت للحرير مهن فرعية وأسواق خاصة. وان تزايد أهمية الحرير وتجارته جعل (طريق القوافل التجارية) التي تنقله من الصين الى روما يعرف عالميا باسم (طريق الحرير).

وان أهمية طريق الحرير وأثره في التبادل التجاري والحوار الفكري والتفاعل الحضاري مما جعل منظمة اليونسكو تناشد مجتمعات العالم والدول الاعضاء في هيئة الامم المتحدة للقيام بكل ما من شأنه بحث واستقصاء ومتابعة آثار (طريق الحرير) عبر أقطار عديدة في آسيا وأفريقيا وأوروبا برا وبحرا، وذلك في سبيل متابعة اثار طريق الحرير أملا من منظمة اليونسكو في فتح حوار حضاري جديد يسهم جديا في تقارب الشعوب والامم، وتقدم المجتمع الانساني، وازدهار الاقتصاد وتوثيق العلاقات المختلفة بين الـدول.

واذا كان (طريق الحرير) موضوع بحث علمي، ورمز انجاز حضاري، وعامـل اتصال تاريخي حضاري وودي بين عالم الشرق وعالم الغرب قديما، فانه غـدا في عصرنا الحاضر موضوع بحث حوار فكري وتفاعل حضاري بين أقـدم الحضـارات الانسانية العالمية التي نشأت وازدهرت في الصين وتركستان وافغانسـتان وشـبه القارة الهندية وايران وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية واليمن السعيد ومصر واليونان وايطاليا ..الخ. واذا كان التاريخ يبدو أحيانا في نظر بعضهم وكأنه فقط تاريخ معارك وحروب وغزوات وحكام وقواد وملوك وأباطرة .. فان دراسة طريق الحرير تظهر من جديد أهمية دراسـة التاريـخ الحضاري محليـا واقليميا ودوليا وعالميـا.

مصدر اسم (طريق الحرير):

بعدما قـام الجيولوجي والرحالـة الالمـاني (فردينـاند فـون ريشتهوفن(١) Ferdinand Von Richthoffen) (١٨٣٣ – ١٩٠٥) عام ١٨٦٠ برحلاته الى أقطـار

الشرق وعاد الى أوروبا عام ١٨٧٢ أطلق على هذا الطريق التجاري الهام ـ المنطلق من الصين حتى روما ـ اسم (طريق الحرير) ، وذلك بعدما استنتج أهمية الحرير التاريخية والعلمية والحضارية والاقتصادية المتميزة ، فصار اسم (طريق الحرير)في عصرنا الحاضر شائعا وموضوع بحث علمي واهتمام جدي ، ويتضمن هذا المصطلح : ١ ـ طريق الواحات ، ٢ ـ طريق مدن القوافل ، ٣ ـ طريق الاراضي المقفرة ..

من الاساطير القديمة المتعلقة باكتشاف الحرير :

اذا كان لكل اكتشاف أسطورة خيالية أو قصة تاريخية ، فان لاكتشاف الحرير أكثر من قصة طريفة واسطورة جذابة تدل على أهمية دقة الملاحظة الذكية في تحقيق الاكتشافات الهامة في تاريخ الحضارة الانسانية . وقد توارثت الاجيال المتعاقبةتلك الاسطورة الطريفة ، وذكرها المؤرخون والباحثون . ويمكن تلخيص اسطورة اكتشاف الحرير كما يلي: في نحو عام ٢٦٤٠ق.م لاحظت زوجة الامبراطور (هوانج تى)(٢) الامبراطورة (سي ـ لينغ ـ تشي Si - Ling - Chi) (٢) أو (لوي ـ تسي Loui - Tsé) بذكائها ودقة ملاحظتها الذكية بأن الشرانق تنحل الى خيوط دقيقة في الماء الساخن المغلي .. فكانت هذه الملاحظة الذكية بداية اكتشاف خيوط الحرير، وحسن الافادة منها . وهناك من ينسب الى هذه الامبراطورة نفسها فضل تعليم الصينيين زراعة أشجار التوت Mûrier وتربية دود القز على أوراقها .. وذكرت التقاليد الصينية القديمة اسم الحاكم الصيني (فوهشي Fuhsi) في نحو ٢٨٥٢ق.م كأول حاكم صيني مستنير علم أبناء شعبه فنون الكتابة والموسيقا والصيد وتربية دود الحرير .. وهناك أيضا من ينسب فضل اكتشاف الحرير الى الاغريقية (بامفيلي Pamphili) في جزيرة (كوس) .

وكانت أهمية صناعة الحرير في بلاد الصين قد جعلت من تقاليد كل امبراطورة حتى سنة الثورة عام ١٩١١ أن تشيد بهذا الانجاز الحضاري المتميز ومبدعه ،وتضحي سنويا على شرف تلك الامبراطورة الصينية في المعبد الذي أقيم لها ، وأهدي لها في العاصمة بكين . وتشير النصوص القديمة ان بلاد الصين عرفت فن صناعة نسج خيوط الحرير قبل حوالي ٥٠٠٠ سنة ، وقد انتقلت من بلاد الصين أسرار معرفة (الحرير من تربية دود القز) الى مختلف الاقطار الواقعة في غربي بلاد الصين . وكان الرومان يطلقون على الاقطار الواقعة وراء (نهر الغانج) اسم بلاد الحرير Seres

الحرير مادة بذخ وترف :

تميز الحرير بلونه الابيض الجميل الضارب الى الصفرة ، وخصائصه المتميزة (كالنعومة والمتانة وشبه الشفافية الجميلة الجذابة ..الخ..) مما جعله مادة جميلة حرص الملوك القدماء وكبار الاغنياء من رجال ونساء على شرائها والظهور بها بمظهر الغنى

والترف والبذخ ، والجمال والوقار والاحترام .. في عصر كان فيه (ثمن الحرير بوزن الذهب)(٤) .

ومنذ القرن الاول الميلادي استخدم الحرير الصيني الجميل في صناعة(الملابس الحريرية الجميلة Sericae vestes) التي كانت مطلوبة كثيرا في روما عاصمة الامبراطورية الرومانية وسيدة العالم القديم ، في عصر تميز بتذوق جمال الضخامة والعظمة والاثارة الجمالية .. ولم تكن النساء وحدهن الراغبات في التدثر بالملابس الحريرية الجميلة والثمينة والنادرة لان الاباطرة وكبار الاغنياء كانوا أيضا يرغبون في ذلك للظهور بها بمظهر العظمة والجلال والوقار والاحترام . وأثارة شعور التقدير والاعجاب بهم في نفوس الاخرين . وقد ورد في كتاب (تاريخ اوغست) ان الامبراطور (ايلاجبال) كان أول من ابدع عادة تدثر اباطرة روما بالملابس الحريرية الصافية، فاعتبر بعضهم ذلك بمثابة تصرف غير مناسب للرجال Degradante .

وكانت ندرة الحرير وارتفاع ثمنه الباهظ مما كان يحول دون حياكة الاقمشة من خيوط حريرية صافية فقط ، لهذا كان الحائكون ينسجون الاقمشة من خيوط كتانية وقطنية مع خيوط حريرية ولكن بنسب مختلفة . وكثيرا ما كانوا يضطرون الى اعادة استخدام خيوط الاقمشة الحريرية الصافية المستوردة من الشرق . ومنذ القرن الثالث الميلادي بدأ التمييز الدقيق بين نوعين من الملابس الحريرية المختلفة كما يلي :

١ ـ ملابس قماشها من الحرير الصافي Vêtements de Pure soie أو Holo sericae vestas لم تكن عامة الانتشار ، بل كانت خاصة بالاباطرة وكبار الاثرياء قديما .

٢ ـ ملابس قماشها من خيوط كتانية وقطنية مع خيوط حريرية بنسب مختلفة Vêtements de Demi - Soie أو Subsericae vestas

وبعدما انتشر تذوق الحرير وصار استخدامه تدريجيا على نطاق واسع ، غدا الاشخاص من ذوي بعض الامكانات المحددة يتدثرون بملابس من أقمشة من خيوط كتانية وقطنية مع خيوط حريرية بنسب مختلفة .. وغدا الحرير من أجمل الهدايا الرسمية الثمينة المقدمة في المناسبات الرسمية . وكان الامبراطور الروماني يحرص على اغتنام فرص المناسبات والاحتفالات والالعاب .. ليقوم بتوزيع هدايا من ملابس حريرية وغيرها على من كان يستحق التكريم والتقدير .

صعوبة اجتياز طريق الحرير قديما :

كانت الفتن والاضطرابات التي يثيرها أفراد قومية (شيونغنو القديمة(٥)/الهون) في الصين من أهم أسباب صعوبة اجتياز طريق الحرير قديما ، مما كان ينتج عن ذلك

خسارة وأزمات اقتصادية لها نتائجها الخطيرة .. مما جعل الامبراطور (وودي ١٤٠ ق.م – ٨٧ق.م)(٦) من أسرة (هان الغربية الملكية ، ٢٠٦ ق.م – ٢٢٠م) يهتم بهذا الموضوع الخطير والهام . فارسل مبعوثا من قبله يدعى (تشانغ تشيان) مرتين الى أقطار اسيا الوسطى لمعالجة هذا الموضوع وذلك باجراء اتصالات مفيدة مع :

١ – دويلة داروتشي القديمة (في شمالي نهر اموداريا).

٢ – دويلة ووسون القديمة (في حوض نهر يبلي في شمالي جبال تيانشان).

وصل المبعوث الامبراطوري (تشانغ تشيان Zhang - Xian) الى أقطار عديدة مجتازا نحو ٥٠٠٠كم في فترة تزيد عن عشر سنوات ، تجشم خلالها المتاعب وواجه الاخطار المختلفة ... ولكن بذكائه ودهائه واخلاصه وحرصه على حسن قيامه بمهمته استطاع ان يتعرف على مناطق مختلفة ، ويطلع على شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، ويلاحظ عادات سكانها وتقاليدهم الاجتماعية وكل ما يتعلق بهم . فكان في اكتشافاته بمثابة (كولومب) . وبعد عودته الى بلاده رفع تقريره الرسمي وتوصياته المفيدة الى الامبراطور (وودي) الذي هنأه على حسن اعداد تقريره ، وتبنى توصياته التي كان منها ما يلي:

– اقامة العلاقات الودية مع سادة تلك المناطق ، مما أسهم جديا في تسهيل عملية مرور القوافل التجارية في طريق الحرير عبر أراضيها بكل أمن واطمئنان وسلم وسلام ..

– تأسيس أربع ولايات (هي : وودي ، تشاتفية ، جيوتشيوان ،دونهوانغ) فتحت ابوابها التجارية للعالم . اضف الى ذلك بناء أسوار الحراسة ، واقامة الابراج النارية للمراقبة والانذار ، وتنظيم جنود مرابطين فيها . يقومون بعملية اصلاح الاراضي ، واقامة دائرة خاصة للاشراف على هذه المناطق في غربي بلاد الصين نيابة عن السلطة المركزية..الخ..

– حسن الافادة من ممرين في شمالي (قانسو) في ضواحي محافظة او ولاية (دونهوانغ) في :

– يوغين ..

– يانفقوان ..

مما جعل القوافل التجارية تنطلق من (تشانغان)(٧) عاصمة أسرة هان الغربية الملكية في طريق الحرير مجتازة الولايات الاربع والممرين الهامين ، وكان هذا الطريق يتفرع الى :

١ – طريق فرعي جنوبي : يتجه نحو الغرب من شمالي جبال ارجين وكونلون ، مرورا بمناطق (تشيمو ، جينعجيوي ، خوتان ، بيشان ، شاتشة ..) الى أن يخترق

(هضبة البامير) ثم ينعطف جهة الجنوب الغربي الى أقطار شبه القارة الهندية (الباكستان والهند ...) أو الى جهة الغرب حيث هناك مناطق شمال (نهر آموداريا) ومنه الى بلاد ايران فبلاد ما بين النهرين فبلاد الشام فالساحل السوري فاليونان فايطاليا فأقطار أوروبا ..

٢ ـ طريق فرعي شمالي : يتجه نحو جهة الغرب من جنوبي (جبال تيانشان) مرورا بمناطق (يانتشي ، وولي ، كوتشار ، آكسو ، كاشغر ...) حتى يخترق (هضبة البامير) حيث هناك مدن هامة ومراكز اقتصادية متميزة (مثل : فرغانة ، سمرقند ...) ، ثم ينعطف الطريق الى جهة الجنوب الغربي ليصل أخيرا الى بلاد ايران فبلاد ما بين النهرين فبلاد الشام فالساحل السوري فبلاد اليونان الى روما ...

وكانت طريق الحرير البرية تمتد وتنحرف وتتجه وتنعطف نحو المناطق التي توفر للقوافل التجارية في طريق الحرير الامن والامان والسلم والسلام والراحة والاستقرار ، والفعاليات والازدهار ... وهكذا كانت هذه القوافل التجارية تنطلق من بلاد الصين بلاد الحرير من مدينة (تشانغان Si - NGAN) في طريق الحرير البري عبر (ممر فهشي) الذي يفيد اسمه (ممر غربي النهر) ويشتهر باسم (ممر قانسو) التي جرت فيه معارك عديدة في سبيل الحفاظ على طريق الحرير مفتوحا أمام القوافل التجارية . وكثيرا ما كان تجار الحرير ينقلون بضائعهم بوساطة القوافل التجارية حتى بلاد تركستان الى المدينتين الحدوديتين وهما : (كاشغر) و (خوتان). ومن هناك ينطلق طريقان نحو بلاد الشام والساحل السوري الى عالم البحر المتوسط اما من جهة بحر قزوين أو عبر نهر الفرات ..

وكانت مدينة (تشانغان Si - NGAN /مدينة شيان الحاليةفي مقاطعة شنشي) نقطة البداية في طريق الحرير ، اذ انها كانت عاصمة البلاد في عهد أسرة (هان الغربية الملكية ٢٠٦ ق.م ٢٢٠ م) وأسرة (تانغ الملكية ٨١٦ ـ ٩٠٧ م) واذا كانت طريق الحرير البرية تمر ب (Sogdiane) فان هناك طريقا بحريا للحرير كانت مراكبه تتجه الى (سيلان) لنقل الحرير وغيره الى المرافىء المختلفة في الخليج والبحر الاحمر وعالم البحر المتوسط . وكان طريق الحرير البري هاما أيضا ويمتد من شبه القارة الهندية المرتبطة بمناطق هامة (مثل باكتريان ، كابول ...) ويتجه :

أما نحو مرافىء الخليج ، أو نحو مرافىء شواطىء البحر الاحمر .

واذا كانت أسرة (هان الملكية الخامسة ٢٠٦ ق.م ـ ٢٢٠م HAN) قد اتخذت كل ما يلزم لحماية أمن وسلامة القوافل في طريق الحرير البري ، فان هذه السياسة الاقتصادية قد استمرت أيضا في عهد الاسرتين الجنوبية والشمالية (٤٢٠ ـ ٥٨٩م)، وأصبح لطريق الحرير ثلاثة منطلقات من (شيان) ومن (شمالي قانسو) ، ومن (دونهوانغ) . واستمرت هذه السياسة الاقتصادية أيضا في عهد أسرة (سوي(٨)

٥٨١ ـ ٦١٨ Souei) الملكية التي اهتمت بحماية طريق الحرير ، وأسست عددا من المراكز والنقاط الامنية في مناطق غربي بلاد الصين وقامت باتخاذ كل ما يلزم في سبيل تأكيد سلامة أصحاب القوافل التجارية على امتداد طريق الحرير . ولكن انهيار حكم أسرة (تانغ ٦١٨ ـ ٩٠٧ T'ANG) الملكية ، وضعف سيطرة الحكومة المركزية على شمالي غربي الصين ، وظهور سلطات محلية انفصالية أثارت الفتن والاضطرابات في المناطق الغربية وشمالي قانسو ... كل هذا قد أدى الى تراجع فعاليات التبادل التجاري على طريق الحرير البري ، وزيادة أهمية طريق الحرير البحري في اتصال الصين بأقطار العالم ، مما أسهم في مجيء أفواج الرحالة والتجار والمسافرين . وكان من تلك الرحلات المشهورة رحلة (ماركو بولو ١٢٥٤ ـ ١٣٢٣ Marco - Polo) ومشاهداته المختلفة التي ذكرها في كتابه ، فأسهمت في اطلاع الاوربيين على حضارة الصين الراقية .

المحافظة على اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير :

منذ اكتشفت الامبراطورة الصينية (سي ـ لينغ ـ تشي) بذكائها ودقة ملاحظتها الذكية طريقة الحصول على خيوط الحرير من الشرانق ، أدرك سادة الصين أهمية هذا الاكتشاف ، ووجوب المحافظة على أسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية التي اشتهر بها الصينيون ، وأفادوا كثيرا من هذه الصناعة الفنية المتميزة اقتصاديا وتجاريا ... مما جعلهم يدركون وجوب المحافظة على أسرارها لضمان استمرار موردها الاقتصادي الهام ، ومتابعة سياستهم الاقتصادية المتعلقة باحتكارهذه الصناعة الفنية ، واتخاذ كل ما يلزم لاستمرار ازدهارها وحسن الافادة منها بتصدير منتوجاتهم الحريرية الى أسواق العالم القديمة براً وبحراً ... كل ذلك جعل صناعة الحرير الفنية سرا من الاسرار العلمية والفنية الغامضة طيلة فترة طويلة من الزمن امتدت عدة قرون استطاع الصينيون القدماء خلالها أن يحتكروا هذه الصناعة الفنية ويفيدوا كثيرا من احتكارها والمحافظة على أسرارها . وبيع انتاجها بأسعار مرتفعة جدا بل بوزن الذهب . وهكذا جعلوا أهمية الحرير مثل أهميةالذهب والماس، وثمن الحرير بوزن الذهب .. مما يوضح مدى اهتمام سادة الصين باتخاذ كل ما يلزم من تدابير فعالة في سبيل حسن تنفيذ سياستهم الاقتصادية ، والمحافظة على أسرار هذه الصناعة الفنية واحتكار انتاج الحرير الثمين والنفيس . فكانت تدابيرهم فعلا فعالة ومجدية الى حد كبير ، وحققت لهم حماية هذه الصناعة الفنية واستمرار احتكارهم معرفة أسرارها ، وحسن الاتجار بمنتوجاتها . وكان الرومان ـ كغيرهم من الشعوب القديمة ـ يجهلون كليا طبيعة الحرير ، وأسرار صناعته حتى نحو عام ٥٥٥ م . وكان بعضهم يعتقد بأن الحرير يصنع من (زغب نباتي) وأن أصل الحرير نباتي ... الخ .. ودام هذا الاعتقاد حتى فترة (بوزانياس Pausanias) المؤرخ الجغرافي الاغريقي المشهور فأخذوا يشيرون الى الاصل الحيواني للحرير .. وكانوا يسمون البلاد الواقعة وراء نهر الغانج باسم (بلاد الحرير) مما يدل على أن اسم الحرير مصدره الصين. وكان الغرب

يجهل اللؤلؤ أيضا حتى العصر الهلنستي وغدا بعدئذ من البضائع التي تهتم بها قوافل طريق الحرير نتيجة انفتاح الغرب على الشرق منذ حملة (الاسكندر المكدوني) . .

واذا كان تصدير الحرير الصيني الى اوروبا كان نسبيا متأخرا زمنيا ، فان حملات الرومان الحربية في أقطار الشرق وبخاصة في حوض الفرات جعلتهم على صلة مباشرة مع أقطار الشرق القديم وتحفه ونفائسه وروائع صناعاته الفنية منذ نهاية القرن الاول قبل الميلاد .

تسرب أسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير من الصين:

ورد في كتاب (المناطق الغربية) في عهد اسرة (تانغ ٦١٨ ـ ٩٠٧) الملكية أن دويلة (تشويسادانا) في (خوتان/من شينجيانغ حاليا) كانت تجهل زراعة التوت وفن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية . . وقد ادرك ملكها أهمية الحرير الاقتصادية ، فرغب في نقل هذه الصناعة الفنية الى بلاده للافادة منها . . فبعث موفديه الى (الدولة الشرقية / أي بلاد الصين) المتميزة بأشجار التوت ، ومواطنين مطلعين على فن تربية دود القز وصناعة الحرير . . ولكن ملك هذه الدولة الشرقية (أي الصين) رفض تلبية طلب ملك (تشويساذانا) ومنع خروج أشجار التوت وتسرب اسرار فن تربية دود القز من بلاده تحت طائلة العقوبات الصارمة . . مما أثار استياء ملك (تشويسادانا)(٩) الذي تفتق ذهنه بفكرة ذكية ماكرة تحقق له غايته ومأربه ، وتعتمد على مشروع زواج .

وبالفعل ، طلب ملك (تشويسادانا) يد أميرة من أميرات (الدولة الشرقية / أي الصين) وذلك بأجمل العبارات الادبية المنمقة والطرق الدبلوماسية مرفقة بأجمل الهدايا الملكية الثمينة والفاخرة . . فتمت موافقة الملك على مشروع زواج تلك الاميرة الفتاة الشرقية . وبعدئذ عهد ملك (تشويسادانا) الى مندوبه باعداد كل ما يلزم لحسن استقبال تلك الاميرة واعلامها سرا وبلباقة بانه ليس في دولة تشويسادانا حرير ، وان من المستحسن أن تحمل معها عددا من بيوض دود القز . . استجابت الاميرة الفتاة الشرقية بعد ما وثقت بالموفد الملكي المكلف بمساعدتها في السفر ، فوضعت بعض بيوض دود القز سرا في لباس رأسها . . وعندما مرت بمركز المراقبة والتفتيش على حدود بلادها لم يجرؤ أحد أن يفتشها ، وهكذا فقد تسربت للمرة الاولى اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية خارج موطنها الاصلي . والجدير بالذكر أن عالما اثاريا غربيا عثر في عام ١٩٠٠ م في أطلال معبد قديم في (خوتيان) على أثر فني قديم يمثل مايلي :

ـ في الوسط : مشهد الاميرة الفتاة الشرقية بمظهر سيدة عظيمة وجميلة متدثرة بالملابس الفاخرة والثمينة ، ويعلو رأسها تاج فخم ، وقد وقف الى يمينها (رجل يحمل دولاب الغزل) .

ـ والى يسارها : يبدو ان هناك سلة مليئة بشرانق دود القز .. كما تبدو (خادمة) تشير بيدها اليسرى الى تاج هذه الاميرة الفتاة الشرقية كسيدة عظيمة .

مما جعل هذا الاثر الفني الهام المكتشف يمثل وصفا فنيا جميلا لحكاية تلك الاميرة الفتاة الشرقية وقصة زواجها وخروجها من بلادها الى بلاد زوجها في (تشويسادانا) ناقلة معها بيوض دود القز .. مما أسهم في تسرب أسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية خارج بلاد الصين .

ـ تسرب أسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير من الصين في العصر البيزنطي:

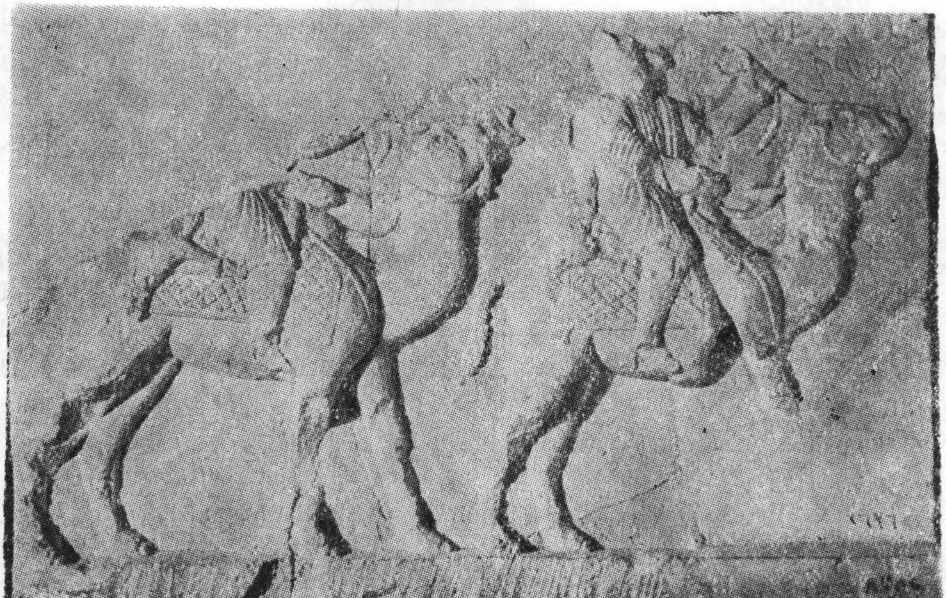
كان مرور القوافل التجارية في الاراضي الايرانية في طريق الحرير قد افاد بلاد وشعب ايران اقتصاديا كبقية الاقطار التي يمر بها طريق الحرير البري العالمي. ولكن سوء العلاقات بين الفرثيين والرومان ، والساسانيين والبيزنطيين كان له نتائجه السلبية الخطيرة على القوافل التجارية عابرة طريق الحرير . فحاولت الامبراطورية البيزنطية تجنب ادعاءات الفرتيين ومزاعمهم وأطماعهم ، وذلك بتغيير طريق القوافل التجارية ، وعدم عبورها أراضي الفرتيين ومن بعدهم الساسانيين .. كما أعدت خطة الاعتماد على الصناعات المحلية . ويذكر المؤرخون قصة كاهنين(١٠) نسطوريين تمكنا من الاقامة فترة في بلاد الصين ، والاطلاع عن كثب على أسرار تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية فيها . وعند عودتهما الى بلادهما أخفيا سرا في عصا كل منهما المجوفة عددا من بيوض دود القز .. فكانت بداية تسرب اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير من الصين الى الامبراطورية البيزنطية التي حققت من ذلك مايلي:

١ ـ التحرر من احتكار الصين أسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية.

٢ ـ التخلص من مضايقات الفرتيين ومن بعدهم الساسانيين للقوافل التجارية عابرة طريق الحرير في الاراضي الخاضعة لنفوذهم .

٣ ـ ظهور بداية صناعة الحرير الفنية الجديدة في الامبراطورية البيزنطية (في سورية ..وغيرها..) أسهمت في الازدهار الاقتصادي الوطني . والجدير بالذكر ان شهرة منطقة (بيلوبونيز Peloponnèse) بأشجار التوت Murier وتربية دود القز جعلها تعرف منذئذ باسم بلاد (موره Morée) (١١).

٤ ـ تزايد القادرين على التدثر بالملابس الحريرية المختلفة بعدما كان ذلك مقتصرا على الملوك والامراء وكبار الاغنياء وكانت حياة البذخ والترف في القصر الامبراطوري موضوع هجوم شديد ونقد عنيف من قبل (يوحنا فم الذهب) الذي اشار الى ثوب الحرير الامبراطور (تيودوسيوس ٤٠٨ـ٤٥٠) يزينه وحشان متقابلان مطرزان ..



منحوتة تدمرية تمثل (هجانين تدمريين) تزودنا بمعلومات هامـة عن القوافـل التجارية التدمرية ، وابلهم وكل ما يتعلق بها .

(محفوظة في المتحف الوطني بدمشق رقمها ٣٦٣٦/٣٣٨٢)

والجدير بالذكر ان بعض المؤرخين ينســب للامبراطور نجاح تسرب أسرار صناعة الحرير من الصين الى البيزنطيين الى خطة الامبراطور (جوستنيان ٥٢٧ ـ ٥٦٦) الذي عهد بالمهمة الى الراهب (بارصوما Jean Barsames) . وكان الرهبان يفدون الى بلاد الصين في عهد (جنكيزخان ١١٦٢ ـ ١٢٢٧) وأبنائه ، وكان بعضهم يسعى الى تحقيق تحالف بين المغول و فرنجة أوروبا ضد العرب والمسلمين .

من الاقطار المهتمة بتشجيع صناعة الحرير المحلية :

ـ اسهام العرب في ازدهار صناعة الحرير وانتشارها : كان من نتائج انتصار جيش العرب المسلمين على جيش القائد الصيني (كاو ـ سين ـ تشي Kau - Sien - Tche) قرب (Talas) في (Transoxiane) سقوط عدد من الجنود الصينيين أسرى في يد العرب المسلمين ، أسهموا في نشوء صناعة الحرير في البلاد العربية والاسلامية ، ويذكر بعضهم أسماء عدد من أولئك الاسرى الصناع الفنيين (مثل : Tou-Houan , Yo - Houan و Lu - Li) الذين كانوا من (Ho - Tong) في (شنسي Chans) .

وعندما قام القسيس الالماني (لودوف فون سوخم) برحلته الى بلاد الشام، والاراضي المقدسة عام ١٣٣٦ ـ ١٣٤١ تحدث عن طرق مدينة عكا المظللة بالحرير المنسوج وبسواه من الاقمشة الاخرى وذلك تجنبا لشدة أشعة الشمس صيفا في بلاد الشام. وغدا الحرير السوري في رأس قائمة المنتجات السورية في العصر العثماني. وكان السوريون منذ مدة بعيدة قد سيطروا على تجارة الحرير .

ـ تربية دود القز ونشوء صناعة الحرير في صقلية : وشهدت صقلية في عهد ملكها (روجر الثاني ١٠٩٣ ـ ١١٥٤ Roger II) اهتماما خاصا بزراعة أشجار التوت وتربية دود القز وصناعة الحرير في العاصمة (باليرمو Palermo) التي انتقلت منها أسرار هذه الصناعة الفنية الى عدد من أقطار اوروبا وبخاصة فرنسا واسبانيا ..

ـ تربية دورد القز ونشوء صناعة الحرير في فرانسا : ازدهرت صناعة الحرير في فرانسا ، واهتم الملك (لويس الحادي عشر ١٤٦١ ـ ١٤٨٣) بموضوع زراعة أشجار التوت وتربية دود القز ونشوء صناعة الحرير . وقد جعل مدينة (تور Tours) مكان ازدهار زراعة أشجار التوت وتربية دود القز . وكانت منطقة (بروفانس Provence) قد أفادت من تجربة صقلية بهذا الموضوع . وأخذت شهرة مدينة (ليون) الفرنسية بالحرير في القرن السادس عشر تزداد . وفي عهد الملك (هنري الرابع ١٥٨٩ ـ ١٦١٠) تألق نجم الزراعي (أوليفيه دوسير Olivier de Serre) الذي ساعد ملكه في مشروع زراعة نحو عشرين ألف غرسة توت . واشتهرت حديقة (التويلري Tuileries) بأغراس التوت ، كما اشتهرت بصناعة الحرير الفنية كل من مدن (ليون) و (مونبيلييه Montpellier) و (باريس) .

ـ تربية دود القز ونشوء صناعة الحرير في اسبانيا : بفضل جهود العرب والمسلمين ازدهرت زراعة أشجار التوت وتربية دود القز وصناعة الحرير في اسبانيا وبخاصة في المدن الاندلسية (مثل غرناطة ، وطليطلة ، واشبيلية ، وفالانسيا Valence) .

وصول الاهتمام بصناعة الحرير الى انكلترا في القرن السابع عشر : واهتم الشعب الانكليزي بنشوء صناعة الحرير الفنية في انكلترا في القرن السابع عشر لاهميتها الاقتصادية ولتلبية المتطلبات الاجتماعية .

أثر الاحداث في فعاليات طريق الحرير :

شهدت تجارة الحرير الدولية ازدهارا كبيرا في عهد امبراطورية (جنكيز خان ١١٦٢ ـ ١٢٢٧) الممتدة من الدانوب حتى منشوريا ، ومن جيورجيا حتى كوريا ، ومن بلاد ما بين النهرين حتى الصين الجنوبية ، وخلفه ابنه (اوغوداي Ogoday) ومن بعده (قوبيلاي Kubilay ١٢٦٠ ـ ١٢٩٤) الذي حضر موفده (مؤتمر ليون) عام ١٢٧٤ . وكان الكثيرون يتحدثون عن امبراطورية (جنكيز خان) وحزمه، أو دقة ادارته . ويذكرون بعض التفاصيل مثل توفر نحو ثلاثمائة الفحصان في المحطات على امتداد طريق الحرير التي كانت تفصلها عن بعضها مسافة ثلاثة أميال .. الخ مما يؤكد مدى الاهتمام بسلامة طريق الحرير . فكان لانهيار امبراطورية جنكيز خان أثره على فعاليات طريق الحرير .

ـ اسهام تحسين وسائل الملاحة البحرية في تنشيط فعاليات طرق التجارة الاوروبية عبر البحار :

كانت ثروات الشرق وفعالياته الاقتصادية تثير أطماع الغرب ، مما يفسر حملة القائد الروماني (مارك انطوان ٨٣ـ٣٠ق م) لسلب ثروات تدمر لمتابعة حملاته الحربية ضد أعدائه وخصومه ، وحملة القائد الروماني (ايليوس جالوس Aelius Gallus) الفاشلة الى بلاد العرب لاكتشاف طرق التجارة البرية الدولية والسيطرة عليها . واستمرت سياسة اوروبا الاقتصادية في سبيل الحصول على ذهب السودان ، وتوابل الهند ، وحرير الصين المادة النفيسة والثمينة المطلوبة كثيرا من قبل الاباطرة والملوك والامراء وكبار الاغنياء .. وقد اسهم تحسين وسائل الملاحة البحرية في تنشيط فعاليات طرق التجارة الاوروبية عبر البحار . وقد تحققت رغبة اوروبا في البحث عن طريق الحرير المستقل والمباشر الى اسيا في عصر الاكتشافات المتميزة وذلك بفضل تقدم الملاحة الاوروبية .

ـ تدمر مدينة القوافل التجارية ومحطة طريق الحرير الرئيسة :

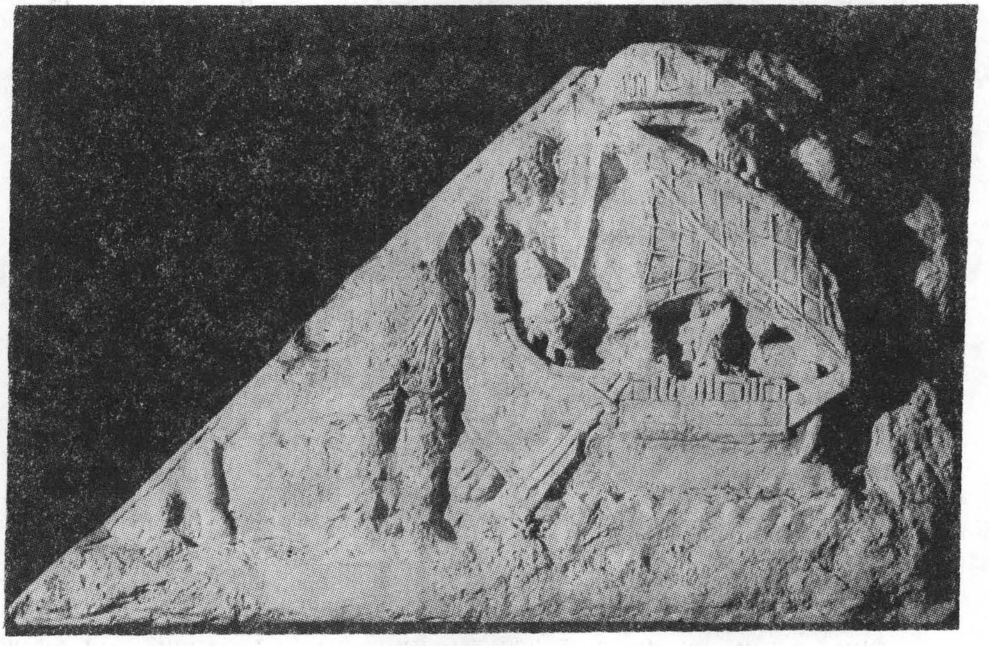
تدين تدمر بوجودها الى ابارها ومياه نبعها وسعة واحتها الخضراء التي تزهو بأشجار النخيل والزيتون والرمان .. وتضفي جمال الخضرة على مكان يبدو كبحر من الرمال الذهبية اللون اللا محدودة الاتساع والرؤية البصرية .. مما يجعل واحتها كالزمردة الخضراء وسط بادية الشام ورمال الصحراء .

كما تدين تدمر بازدهارها الاقتصادي الكبير الى حسن موقعها على طريق تجاري غدا فيما بعد طريق الحرير الدولي البري الممتد من الصين حتى روما عبر أقطارالشرق القديم (كالصين وتركستان وافغانستان والهند وباكستان وايران وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام .. وأقطار الغرب (مثل : اليونان وايطاليا ..). وهكذا كان طريقالحرير يمر بمدن وواحات مختلفة (شيان ـ لا نتشو ـ وو وي ـ دونهوانغ ـ تورفان ـ كوتشه ـ زوتشيانغ ـ مينغونغ ـ خوتيان ـ شاتشة ـ كاشي ـ بيشاو ـ باميان ـ وازيرآباد ـ سمرقند ـ مارو ـ دامغهان ـ طهران ـ همدان ـ بغداد ـ تدمر ـ دمشق ـ بيروت ـ انطاكية استانبول ـ روما ـ البندقية ..الخ..

وكان موقع تدمر المتميز في قلب بادية الشام في منتصف الطريق بين مدن حوض الفرات شرقا ومدن الساحل السوري غربا .. وفتح حوض الفرات للتجارة العالمية والقوافل التجارية .. مما جعل (طريق الحرير العالمي عبر تدمر) هو الطريق الاقصر مسافة ، والاكثر سهولة ، والافضل عبورا ومرورا ، والاكثر أمنا وسلامة للقوافل التجارية وأصحابها التجار .. وكان هذا (الطريق التجاري البري الدولي) يتفوق أهمية على (طريق الحرير البحري) الذي كان يمر عبر البحر الاحمر ، ويزدهر أو يتخلف أو يهجر كليا أو جزئيا تبعا للظروف المختلفة .. مما جعل المرافىء على البحر الاحمر (مثل حوارة Leuké - Kome .. وغيره..) تتأثر اقتصاديا الى حد كبير تبعا للتطورات والمتغيرات المختلفة . وتتأرجح بين الازدهار الاقتصادي والازمات المالية والاقتصادية المختلفة .. وهكذا فقد كان (طريق الحرير البري الدولي عبر تدمر) قادرا على المنافسة المضمونة والاكيدةوالرابحة والمنتصرة على (طريق الحريرالبحري). لهذا كله كان (طريق الحرير البري الدولي عبر تدمر) يبدو بمثابة اكبر شريان لفعاليات التجارة الدولية عصرئذ ، أسهم في جعل تدمر تسود التجارة الدولية وطريق الحرير البري .

وبعدما كانت تدمر شبه مقفرة ، يعاني فيها الانسان ويكافح قساوة الطبيعة وبرودتها ليلا في الشتاء ، وحرارتها نهارا في الصيف ،ويبتهج بانتظار القادمين والقوافل

القليلة ... أصبحت تدمر محطة شبه اجبارية للقوافل التجارية المتجهة من الشرق الى الغرب وبالعكس ، تفيد من حسن موقعها على طريق الحرير ، وتوفر المياه فيها لافراد القوافل وابلهم ... كما تفيد من رسوم الخدمات المختلفة التي تقدمها اليهم.. مما جعل تدمر بمثابة المحطة الرئيسة للقوافل التجارية ومخزنا لبضائعها المختلفة ..



منحوتة تدمرية تمثل أحد مراكب الاسطول التدمري في الخليج (محفوظة في متحف تدمر)



نماذج من المنسوجات الحريرية الجميلة المطرزة المكتشفة في مدافن تدمر (محفوظة في المتحف الوطني بدمشق).

وكانت شهرة السوريين(١٣) في ميادين الاقتصاد والتجارة الداخلية والخارجية، ومهارتهم وخبراتهم ورحلاتهم وفعالياتهم مما يوضح اسهام التجارة في ازدهار تدمر بسرعة ، ودورها في تنشيط فعاليات التجارة الخارجية الدولية في عصر كانت فيه القوافل التجارية تهتم بكل ما أبدعه الفنانون التطبيقيون والصناع الفنيون من نفائس وتحف وطرائف وروائع فنية .. كان يتهافت على اقتنائها الاباطرة والملوك والامراء وكبار الاغنياء . وكانت هذه المنتوجات الجميلة النفيسة والثمينة والنادرة تشكل المواد الهامة في عمليات التبادل التجاري وفعالية حركة التجارة الخارجية الدولية عصرئذ .

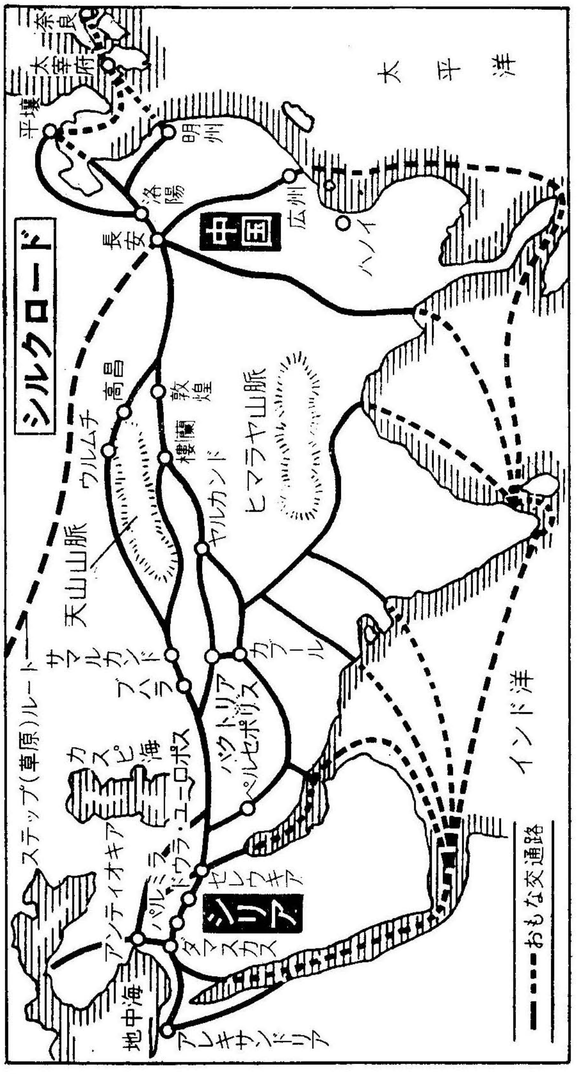
وكان دور التدمريين في حسن تنظيم رحلات هذه القوافل التجارية (١٤) ورعايتها وحمايتها وتسهيل مهماتها وتقديم الخدمات المختلفة اليها والاسهام في فعاليات الاقتصاد والتجارة الخارجية الدولية .. كل ذلك قد أسهم في ازدهار تدمر بسرعة وجعل التدمريين من كبار التجار الاثرياء ، وغدت مدينتهم تدمر بمثابة أكبر مركز تجاري متميز ، ومحطة هامة للقوافل التجارية في طريق الحرير البري الدولي . وكان تعاونهم فيما بينهم وفق تقاليدهم المحلية المتعارفة ، ومساواتهم وتعلقهم بمبادئهم .. كل ذلك جعل تدمر تبدو بمثابة عاصمة جمهورية أغنياء التجار وأمراء القوافل التجارية وسادتها ، تعتمد على موارد التجارة والرسوم من القوافل التجارية التي كانت بكثرتها تبدو لبعضهم بمثابة جدول متتابع لا ينقطع ... مما أكد اسهام تدمر في نمو التجارة الخارجية الدولية .

وكانت مكانة تدمر التجارية والادارية والسياسية ، وفعاليات التدمريين الاقتصادية والتجارية وسياستهم الدولية القائمة على التوازن الدقيق والذكي بين الامبراطوريتين الكبيرتين الفرتية والرومانية قد حققت لتدمر مكاسب عديدة مفيدة وجديدة أهمها :

١ ـ حسن ادارتها وتنظيمها حركة القوافل التجارية(١٤) في طريق الحرير البري الدولي عبر تدمر ، والاهتمام بكل ما يتعلق بها وبحمايتها وسلامة تجارها بفضل فرقها المقاتلة المؤقتة والدائمة الثابتة والمتحركة والمرافقة .

٢ ـ توسيع فعاليات التدمريين التجارية في الخليج وبخاصة في (خرقيدونيا Characène) ومكاتبهم في (خرقس Spinou charax) في شمالي الخليج ... وصلاتهم بمراكب الهند ، وبناء أسطور تدمري يلبي المتطلبات التجارية ... ووصول فعاليات تدمر الاقتصادية حتى الصين .

٣ ـ تمتع التدمريين بنفوذ كبير في مناطق بعيدة عنها كانت تسيطر عليها الامبراطورية الفرثية (في Vol Gesiade) في عصر بدت فيه تدمر وكأنها (سيدة



خارطة طريق الحرير والمحطات الرئيسة من الصين حتى البحر المتوسط

التجارة الدولية وطريق الحرير البري الدولي) ... مما يدل على مدى نجاح السياسة التدمرية الدولية ودبلوماسيتها الذكية والحكيمة ، وحرصها على حسن توثيق علاقاتها الدولية مع كل من الامبراطورية الرومانية و الامبراطورية الفرثية ، أضف الى ذلك حسن علاقاتها الدولية مع (Mésène)(١٦) و (Susiane) وغيرها ...

٤ ـ الازدهار الاقتصادي السريع الذي جعل تدمر بمثابة عاصمة البذخ والترف والغنى والرفاه والسلام والاحلام.. مما أسهم في ازدهارها وتقدمها وتطورها في مختلف ميادين الحياة (العمرانية والمعمارية والفنية والاجتماعية والثقافية والمعنوية والمادية.) كما أسهم ازدهارها الاقتصادي في تزايد عدد سكانها والعاملين فيها والمتجهين اليها وتنوع فعالياتهم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .. وازدادت ثروات تجارها ومواطنيها ، وظهرت ضرورة سك نقود تدمرية محلية لتلبية المتطلبات الاقتصادية وعمليات التبادل التجاري ... أضف الى ذلك تزايد الطرق المتجهة اليها والمنطلقة منها ... وان اكتشاف أحجار المسافات يوضح مدى تزايد أهمية تدمر وظهورها كعقدة طرق المواصلات الهامة ...

٥ ـ حسن انفتاحها الحضاري على آفاق العالم الخارجي بعدما وصل طريق الحرير البري الدولي واحتها ببقية واحات طريق الحرير ...

٦ ـ ان مهارة التدمريين الدبلوماسية والسياسية الذكية أثارت اعجاب الرومان بهم ، فعهدوا اليهم بكثير من المهمات الهامة في مناطق كان التدمريون يتمتعون فيها بنفوذ كبير وهي خاضعة للسيطرة الفرتية .

كما ان مهارة التدمريين في الرماية والقتال جعلتهم في طليعة الرجال المقاتلين الذين كانت باديتهم بمثابة ملعب رياضي كبير يمارسون فيه فنون رياضة الفروسية والرماية والصيد .. فأفادت منهم الامبراطورية الرومانية في القضاء على الفتن والاضطرابات والخصوم والاعداء في اسيا وافريقيا وأوروبا .. مما يدل على الامكانات والطاقات الكبيرة والمتميزة التي كان يتمتع بها التدمريون في العصر الروماني .. وذلك بفضل بيئتهم التي نشأوا فيها ومنطقتهم الواسعة التي حققت لهم الاستقلال وتعذر على الرومان وغيرهم السيطرة عليها او التحكم فيها لخصائصها المتميزة .. اضف الى ذلك مؤهلات التدمريين القتالية بالفطرة وقدرتهم على تحمل المشقات والمصاعب والمتاعب والجوع والبرد والحر .. وخبراتهم في الرحلات والغزوات معتمدين على (الجمل) الذي كان فعلا بمثابة (سفينة الصحراء) اذ يمكنه حمل اثقال لمسافات بعيدة وفي ظروف بيئية صعبة تهلك فيها الخيول والبغال جوعا وعطشا وتعبا .. في حين أن الجمل يقتصر غذاؤه على نباتات شوكية جافة في الصحارى .

وان الكتابات الاثرية المتعلقة بشخصيات تدمرية بارزة (مثل Saodos وأولبيوس يرحاي . .الخ) تدل على مدى تكريم مجتمعهم والاباطرة لهم مكافاة لهم على ما قدموه من خدمات لرجال القوافل في تدمر وخارجها وبخاصة في الخليج. . ويتجسد هذا التكريم في اقامة التماثيل لهم وتدوين عبارات التقدير لهم والاعجاب بماثرهم المتميزة . .

٧ ـ تأكيد دور تدمر السياسي والاقتصادي في عهد اذينة وزنوبيا في عصر تزايد فيه ضعف الامبراطورية الرومانية . فاذا كانت كتابات (بليني القديم ٢٣م ـ ٧٩م) و (آبيان Appien) تعبر عن أهمية تدمر المستقلة ، فان سياسة روما في سبيل التسرب الاقتصادي والسيطرة السياسية تدريجيا منذ حملات الامبراطور تراجان في بلاد ما بين النهرين وعهد الامبراطور (تيبريوس) . . كان لها أثر كبير في محاولات الحاكم الروماني التدخل في شؤون تدمر . ولكن الامبراطور (هادريان) أدرك أهمية تدمر وطاقاتها وامكاناتها وميادين الافادة منها ، وتمتعت تدمر بامتيازات مختلفة في عهود الاباطرة السوريين السيفيريين . . وعلى هذا فقد بقيت تدمر موضوع القلق الاهم لكل من الامبراطورية الفرتية والساسانية ، والامبراطورية الرومانية . . مما يفسر سياسة شابور واستيلاءه أخيرا على مملكة (خرقيدونيا Characène) في الخليج ، وقضاء الامبراطور (اورليان) على مملكة تدمر في عهد ملكتها زنوبيا .

٨ ـ تدل المنحوتات التدمرية على جمال ملابس التدمريين والتدمريات الحريرية ذات الثنيات الجميلة المنسابة كخيوط مياه الجداول او الشلال . . المتحركة بانحناءات تشبه أمواج المياه . . تزينها مطرزت جميلة متميزة بالدقة والذوق الفني والتكوينات الفنية ذات القيمة الجمالية والرمزية .

وتدل بقايا الملابس الحريرية المكتشفة في مدافن تدمر (مدفن ايلابيل، جامبليق.) على مدى توفر مادة الحرير في تدمر في عصر كان فيه الحرير نادرا جدا في أوروبا وثمينا ونفسيا يحرص الملوك والاباطرة والامراء وكبار الاغنياء على اقتنائه والتفاخر به . .

٩ ـ كانت اعادة تشييد معبد بل عام ٣٢ م تعتبر بمثابة نقطة تحول في تاريخ العمارة التدمرية المحلية ، وان المباني الجميلة المختلفة (المعابد ، المسرح ، الساحة العامة ، مجلس الشيوخ ، الحمامات ، القصور . . مستودع القوافل . . المتاجر . . الشارع الرئيسي وأروقته ، القوس المربع (ترابيل) .الخ التي شهدتها تدمر تجسد ذلك الازدهار الاقتصادي وأهمية تلك الفعاليات الاقتصادية المختلفة . وقد تحدث المؤرخون على أهمية المباني الجميلة لتي كانت تزين منطقة الساحة العامة والتي كانوا يطلقون عليها اسم Tetradeion . . مما يجسد الرفاه والترف والبذخ وتذوق جمالية الضخامة ، ويؤكد أهمية (العمارة كمرآة حضارة) وجمع فنون جميلةوتطبيقية مختلفة . .

والخلاصة : مما تقدم تبدو أهمية دراسة (طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل التجارية) . فاذا كان الصينيون ابتكروا هذا الانجاز الحضاري ، واحتكروا صناعة الحرير عدة قرون ، واحتفظوا باسرارها مدة طويلة ، فان أسرار هذه الصناعة الفنية قد تسربت خارج الصين وأصبح المجتمع الانساني في مختلف أقطار العالم يتمتع بما ابتكره الشعب الصيني من أقمشة حريرية متميزة أسهمت في تطوير الذوق الفني والازدهار الاقتصادي والحياة الاجتماعية . وازدهرت المناطق التي كان يمر بها طريق الحرير ، وحدث تفاعل حضاري كبير بين سكان اقطار متباعدة جغرافيا وتاريخيا وثقافيا ، وأنشأ علاقات اقتصادية مهدت لظهور علاقات سياسية واجتماعية وثقافية مختلفة . وكانت رحلة (ماركوبولو) وغيره قد أسهمت جديا في اغناء المعلومات ونشر الثقافة والمعرفة التاريخية والجغرافية المتعلقة بأقطار شرقية كانت مجهولة أو غير واضحة لدى الكثيرين . وصار للحرير مشاغل ومعامل وفنانون وعمال فنيون وتجار وأسواق تجارية ومهن مختلفة متفرعة عن صناعة الحرير الفنية . وان تدمر التي أفادت كثيرا من طريق الحرير وأسهمت في حماية هذا الطريق وسلامة رجال القوافل التجارية وقدمت خدماتها المختلفة اليهم .. وأفادت من الرسوم التي كانت تجبيها منهم بموجب نصوص القانون المالي في ١٨ نيسان ١٣٧م ، وأسهمت في نمو التجارة الدولية والحضارة الانسانية والازدهار الاقتصادي .. واجهت خطر (شابور الاول(١٧) ٢٤١ - ٢٧٢) الذي استولى على مملكة (قرخيدونيا Characène) وقضى على المنفذ البحري وميدان فعاليات التدمريين الاقتصادية في الخليج.. كما واجهت تدمر خطر الامبراطور (أورليان ٢٧٠ - ٢٧٥) الذي قضى على مملكة تدمر في عهد زنوبيا .وهكذا قضت الحروب العدوانية على مسيرة نمو الازدهار الاقتصادي والتقدم الاجتماعي والاشعاع الثقافي وبدت تدمر بأطلالها تتحدى قوة الفناء وتصر على الحياة والبقاء وتتحدث بصوت الصمت ولغة الفن عن ذلك الازدهار والسمو والاشعاع يوم كانت تدمر عاصمة الفعاليات الاقتصادية والترف الاجتماعي والتطور الحضاري والامن والسلام والهناء والاحلام .

* * *

الحواشي :

(١) تشانغ رونغ فانغ : طريق الحرير (بناء الصين ـ ص ٤٨) .

(٢) المعرفة ـ العدد ٩٢ ص ١٤٦٣ .

(٣) Thomas de Galiana : Dictionnaire des Découvertes Scientifiques. L18 Larousse Paris 1968 p. 152.

(٤) Pierre Grimal : La vie A Rome dans L'antiquité P. U. F. p. 159.

(٥) بي شيا ونينغ : على طريق الحرير القديم (بناء الصين ـ ص٥٢) .

(٦) تشانغ رونغ فانغ : نفس المرجع ص ٤٨.

(٧ـ٨ـ٩) تشانغ رونغ فانغ : نفس المرجع ص ٤٩ .

(١٠) ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية (الالف كتاب ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ص١٩٧).

ـ نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ ص ٢٧٧ .

ـ م.ب تشارلز ورث : الامبراطورية الرومانية (الالف كتاب) ـ دار الفكر العربي ١٩٦١ص١٥٣.

(١١) D. Talbot Rice : Byzantine art (Pelikan books) 1962 p. 197.
Thomas de Galiana : p. 152.

(١٢) نعيم فرح : أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي (دراسات تاريخية العدد ١٥ـ١٦ كانون الثاني ـ أيار ١٩٨٤ص١٥٩).

ـ فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (ترجمة حداد ورافق) ـ دار الثقافة في بيروت ـ الجزء الاول ص ٣٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

ـ ستيفن رنسيمان : نفس المرجع ص ١٩٧ .

(١٣) E. Cumont , les Fouilles de Doura - Europos 1926 p. XXXIII.

(١٤) عدنان البني : تدمر والتدمريون ـ وزارة الثقافة
Starcky, Gawlikowski : Palmyre Librairie D'Amérique et L'orient Paris 1885 p. 73 et s.

(١٥) E. will : Marchands et chefs de caravanes à Palmyre (Syrian 1957 p. 262 et s.

(١٦) H. Seyrig : Rapports de Palmyre avec Mésène , La Susiane (Syria 1941 p. 252 et s.

(١٧) بشير زهدي : في تاريخ تدمر .. (مجلة العرفان ـ العدد ٥ ـ المجلد ٦٥ أيار ١٩٧٧ص ٤٣٨ـ٤٣٩.

محاولات المغول السيطرة على طريق الحرير
(أسباب ونتائج)

د. نعمان محمود جبران
جامعة اليرموك

يرجع اتصال الشرق بالغرب الى عصور قديمة ، وقد تم هذا الاتصال بالطريق البري والبحري . ويمكن تتبع الاتصال البري بين الشرق والغرب من ٢٠٠ق.م حتى بداية التاريخ الميلادي ، حيث أصبح بالامكان تحقيق أتصال بري من الصين الى شرق البحر المتوسط مرورا بوسط آسيا . وقد بقيت هذه الطرق وسيلة الاتصال بين عوالم مختلفة حضاريا ، وشهدت تطورات عدة ، وانتقل عبرها سلع متعددة كان من بينها الحرير الذي أضفى اسمه على هذه الطريق .

ويمكننا القول ان التجارة البرية البعيدة ، وكذلك الاتصال البحري ، مر بالفترات التالية(١) :

- عهد أسرة هان الصينية والبارثيين والرومان حتى بداية العهد المسيحي .
- عهد أسرة تانج الصينية والخلافة العباسية في فترة قوتها .
- عهد امبراطورية المغول بعد سنة ١٢٥٠ م
- عهد السيطرة والثورة البحرية الاوروبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين .

وهذا الطريق تنازعت عليه قوى مختلفة ، فتارة يخضع لاحتكار ايراني(٢) لاهم الاجزاء منه ، وتارة تحاول روما البحث عن طريق بديل يخلصها من السيطرة الفارسية(٣) ، ومع بدايات المد الاسلامي وتوسع الدولة العربية الاسلامية نلمح ازدهارا وسيطرة شبه كاملة على الطرق التجارية التي تربط الشرق بالغرب ، ويبدو أن ذلك كان اكمالا لاتصالات عربية ببلاد جنوب شرق آسيا ، وفي خلال هذه الفترة لعب العرب المسلمون دور التجار والرحالة والوسطاء بحيث أن معظم انتاج بلاد الشرق كان لا بد ، قبل ان يصل الى اوروبا ، من ان يمر بمصر وبلاد الشام لينتقل عن طريق البحر المتوسط(٤) ، كما شهدت هذه الفترة تزايدا اسلاميا في المراكز التجارية على موانىء الصين وفي داخلية القارة الاسيوية(٥) .

ونظرا لاشتداد حدة الصراع والتنافس علىالطريق البريازدادت أهمية الاتصال البحري مع الهند والصين ، وقد قام البحر الاحمر والخليج الفارسي بدور محوري في ذلك ، واصبح الطريق البري ثانويا حتى ان الاوروبيين لم يسلكـوه ، واكتفـوا بحصولهم على ما يريدون من بضائع عن طريق سورية ومصر(٦) .

ان استمرار الصراع حول طرق الاتصال بين الشرق والغرب وما رافقه مـن اضطرابات سياسية وعسكرية لم تلغ هذه الطرق ، ولكنها كانت تشجع ازدهارطريق اتصال على حساب اخر ، فتارة يزدهر الطريق البحري على حساب الطريق البري، الا أن الامر الذي لم يحصل هو وقوع هذه الطرق تحت سيطرة قوة سياسية واحدة، ولكن التطبيق الفعلي لمحاولة السيطرة على هذا الطريق بدأت مع التوسع المغولي.

ينطلق هذا البحث من أن المغول ، وفي فترة من فترات تاريخهم ، فكروا باقامة دولة عالمية كان من أهدافها السيطرة على الطريق أو جسر التواصل بين الشرقوالغرب (طريق الحرير) ، وهذا المشروع كان يهدف الى السيطرة على العوالم الحضاريـة البيزنطية والعربية الاسلامية والمسيحية الاوروبية(٧) . وعلى اعتبـار ان التطبيق الفعلي للمشروع المغولي قد بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي ، كان لا بد منتبين بايجاز القوى السياسية والقبائل التي كانت تسيطر على اسيا والتي يمر منها طريق الحرير من مبتداه في الصين حتى نهايته أو طرفه الغربي على البحر المتوسط ، وتتمثل في اسرة كين (١١١٥ ـ ١٢٣٤) التي تسيطر على الاجزاء الشمالية من الصين ، واسرة سونج (٩٦٠ ـ ١١٢٧م) التي تسيطر علىالاجزاء الجنوبية منها ، تليها مجموعات من الاتراك الاويغوريين وهي جماعات شبه متمدينة سيطرت على شمال شرقتركستان وقامت بدور الوسيط بين الاقوام المتحضرة من الايرانيين والصينيين والهنود(٨) ، ثـم جماعات القراخطائيين(٩) ، والذين استطاعوا ان يكونوا اشبه بالدولة الحاجزة بـين المغول والدولة الخوارزمية(١٠)، التي سيطرت على مناطق ما وراء النهر وكانت دولة ثنائية الثقافة عربية ـ فارسية ، كما وجدت قوى كان لها نفوذ في مناطق ايران مثل الاسماعيلية ، والعباسيين في العراق ، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، والدولة البيزنطية ، ثم الايوبيين في مصر والشام ، والامارات الفرنجية على سواحل بلادالشام، علاوة على القوى التجارية الايطالية في أكثر من منطقة مما سبق ذكره .

من توزع هذه القوى واختلافها يتبين كبر حجم المشروع المغولي في السيطرة على طريق الحرير ، اذ كان لابد للمغول من اخضاع هذه القوى أو تحييدها ، أو ضمان تبعيتها ليكون بمقدورهم بسط السلطة الوحيدة على هذا الطريق .

وسيعالج البحث في الصفحات التالية بدايات التوسـع المغولي ، واستمراره غربا ، ثم محاولة تلمس الابعاد الاقتصادية الموجهة لاستمرار هذا التوسع ، ليخلص

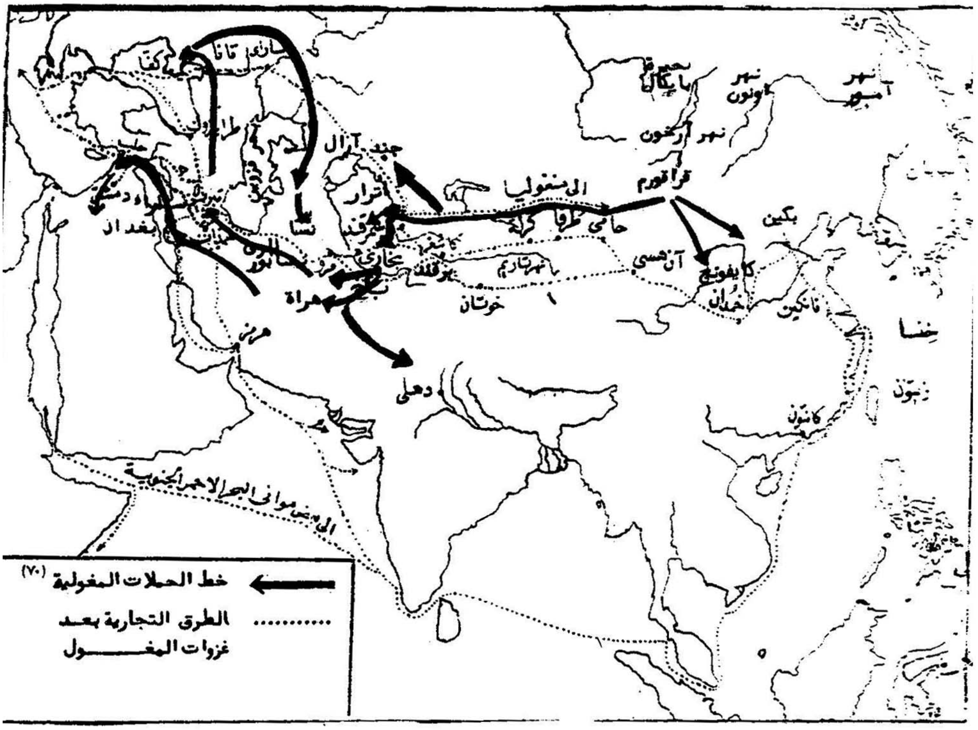
البحث الى أهم النتائج التي ترتبت على محاولة تنفيذ هذا المشروع المغولي مع التركيز على النتائج المتعلقة بالتفاعل الحضاري وازدياد المعلومات الجغرافية التي ساهمت في تيسير اتصال اجزاء العالم بعضها بالبعض الاخر ، كما يشير البحث الى ما تأثرت به المنطقة العربية وبخاصة بلاد الشام نتيجة محاولة المغول السيطرة على الطرف الغربي لطريق الحرير .

بدايات التوسع المغولي :

في المناطق الواقعة الى الشرق من نهر سرداريا (سيحون) عاشت مجموعات من القبائل البدوية المتصارعة ، مارست أنماطا من الحياة الاقتصادية مثل الرعي والصيد ، وقامت ببعض النشاط التجاري المحدود كان في جزء منه يعتمد على التبادل التجاري في مواسم معينة وسلع معينة مع قوافل التجار التي كانت تصل الى هذه المناطق أو قريبا منها . وتقسم هذه الشعوب الى قسمين رئيسيين : القسم الغربي الذي اصطلح على تسميته باسم الاتراك ، والقسم الشرقي الذي تركز في صحراء جوبي ، ويتشابه مع نظيره الغربي في اللغة والمظهر العام ، وقد اصطلح على تسميته بالمغول ، وامتد مدى انتشارهم الى منطقة السهوب في منغوليا وشمل اجزاء من سيبيريا اضافة الى قسم ثالث عاش الى الغرب من هؤلاء واصطلح على تسميته باسم التتار وقد امتدت مناطق تنقلهم أو استقرارهم المؤقت الى حدود منطقة ماوراء النهر(١١) .

وبحكم ان القسم الثاني من هذه الشعوب (المغول) هو موضوع البحث ، سنحاول ايجاز بعض مراحل تطورهم . فهؤلاء ، وبحكم منطقتهم الجغرافية ، كانوا الاقرب الى الصين ، لذا نجد الصينيين قد قسموهم الى ثلاث مجموعات تبعا لقربهم أو بعدهم عن الحضارة الصينية وطبيعة علاقتهم بها اضافة الى نمط الحياة السائد بينهم فمنهم التتار البيض في الجنوب الى الشمال من الحدود الصينية ، ثم التتار السود الى الشمال منهم ، واخيرا التتار المتوحشون أو تتار الغابات الذين يعتمدون على الصيد كنمط لحياتهم(١٢) . ويشير شبولر الى ان الفاعلية السياسية والاقتصادية لهذه الجماعات بدأت مع اعتناق بعضهم للديانة المسيحية ، وظهرت بشكل بارز في القرن العاشر الميلادي ، حين بدأ احتكاكهم مع الصين واخذوا يبعدون بعض القبائل من مناطق منغوليا(١٣) .

واذا نظرنا الى الشعوب والقبائل من الصين شرقا الى البحر المتوسط غربا وجدناها على الشكل التالي : صينيون ، مغول ، تتار ، اتراك ، ايرانيون ، عرب . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان الاتراك والتتار والمغول يعودون الى ارومة واحدة ، اتضح لنا أن



هذه الجماعات (التركية) هي الواسطة بحكم موقعها بين الحضارتين الاكثر رقيا في عالم ذلك الوقت أي الحضارة الصينية والاسلامية ، لكن هذه القبائل كانت متفرقة وبذا لم يكن لهم كبير دور في عملية التأثر والتأثير من هذه الحضارات . وتشير الدراسات المتعلقة بتاريخ المغول الى أن هذه القبائل قـد تخلت عن دورها الهامشي في الحيـاة السياسية والاقتصادية لتنطلق الى دور التأثر والتأثير الاكثر خطورة معظهور شخصية مغولية هي شخصية تيموجين(١٤) / جنكيز خان (١٢٠٦ ـ ١٢٢٧ م) ، ويظهر مـن تاريخه ثلاث مراحل رئيسـة أولها توحيد القبائل المغولية تحت زعامة واحدة كمقدمـة للمرحلتين التاليتين : التوسع باتجاه الصين ثم البدء في التوسع غربـا ضد العالـم الاسلامي . ولقد استطاع انجاح المرحلة الاولى عام ١٢٠٦ فاعترفت به غالبية القبائل المغولية كزعيم ، في حين لجأت بعض القبائل المعارضة الى المناطق الغربية على القرب من الدول الاسلامية(١٥)، ثم بدأ بالاعداد الاستراتيجي للمرحلة الثانية ، بعد أن ضمن حماية الجناح الغربي لدولته من الغزوات ، بأن حارب بعض القبائل في الفترة ما بين

١٢٠٦ ـ ١٢٠٩ وسيطر على بعض الممرات الاستراتيجية (ممر كانسوا) التي تعتبر مدخله لغزو الصين وحقق ذلك عام ١٢٠٩ ، ثم تابع مشروعه بالسيطرة على أجزاء من الصين مستغلا الظروف الصينية الداخلية وما تجمع له من قوة مطمئنا لابعاد القبائل المعارضة له واستطاع أن يحقق انتصارات سريعة وهامة في الفترة ما بين ١٢١١ ـ ١٢١٥ ، وأخضع بكين لسيطرته(١٦) .

كان لهذا الانتصار آثار بعيدة المدى على التفكير المغولي فلم تعد هذه القبائل لتكتفي بعمليات الاغارة والنهب بل انتقلت الى دور احكام السيطرة على مراكز حضارية ، اضافة لما أعطته هذه الانتصارات من دفع لشهية التوسع ، بل ان التوسع في الصين قد أثر على المغول في نمط الادارة واصدار القوانين وطبيعة الحياة بعد أن أصبح قسم من الصينيين تجارا ومرشدين واداريين وخبراء عسكريين لدى المغول(١٧) كما أنه يمكننا القول ان الفكرة الصينية التي كانت ترى في الصين امبراطورية الوسط وحاكمها ابن السماء قد بدأت تتسرب الى الفكر المغولي بحيث أصبح الحاكم المغولي هو حاكم الشرق والغرب ، وأنه المسيطر الوحيد على العالم(١٨) .

كان توحيد القبائل المغولية والسيطرة على اجزاءمن الصينممهدا للمرحلة الثالثة وهي التوسع غربا ، فبدأت القوة المغولية متابعة بعض القبائل مثل النايمان(١٩) التي التجأت الى قبائل القراخطائيين المجاورين للدولة الخوارزمية ودخلت في الصراع الدائر بينهم وبين الخوارزميين ، واستطاعت أن تؤسس لها مناطق نفوذ امتدت من مناطق التبت الى حدود الدولة الخوارزمية . وأصبحت بذلك مركز قوة يهدد التجارة مع الصين والمناطق المغولية . ولم يكن جنكيز ليسمح باستمرار مثل هذا الخطر فتوجهت قواته اليهم واستطاعت القضاء على هذه السيطرة منذ عام ١٢١٨(٢٠) وبذا نجد حدود مناطق السيطرة المغولية قد اتسعت واصبحت مجاورة للعالم الاسلامي مباشرة بمجاورتها للدولة الخوارزمية ، وبذلك سيطرت على أجزاء هامة من الطريق البري (طريق الحرير) الذي يربط شرق آسيا بغربها . ولا شك انسيطرة المغول ضمن هذا التوسع على مدن تجارية قد اثار لديهم الحافز للاستمرار فيالتوسع الذي قد يكون مدفوعا بنصائح وارشادات من تجار صينيين ومسلمين اصبحوا تحت السيطرة المغولية .

استمرار توسع المغول غربا :

اذا كانت مجاورة الدولة المغولية التي اسسها جنكيزخان للدولة الخوارزمية قد جاءت نتيجة مطاردة المغول لقبائل قد فرت من سيطرتهم غربا ، فانه مما لا شك فيه ان كلا الدولتين (المغولية والخوارزمية) قد عرفت أحداهما الاخرى وما تمتعت

به كل منهما من عناصر قوة اقتصادية وعسكرية ، كما كان لابد لكلا الدولتين ، يحكم المناطق التي تتبع لهما ، من ان تتعاملا ضمن استمرارية او اعادة ما كان من اتصال بين مناطق جنوب شرق اسيا ومناطق وسط اسيا . فالدولة الخوارزمية التي استطاعت باستغلال الظروف التي سادت من ان توسع حدودها لتبلغ في عهد سلطانها علاء الدين خوارزم شاه (٥٩٦ ـ ٦١٧ هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٩م) اقصى اتساع لها واشتملت على الاراضي الواقعة من حدود العراق غربا الى حدود الهند شرقا ومن شمال بحر قزوين وبحر ارال شمالا الى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوبا(٢١)، فسيطرت على مواقع استراتيجية ومدن هامة مثل بخارى وسمرقند وهرمز مما جعلها تتحكم بمعابر الطرق التجارية على طريق الحرير ، في الوقت التي كانت فيه الدولة (المغولية) الناشئة قد سيطرت هي الاخرى على بلد المقصد لاهم التجار على طريق الحرير ، علاوة على المدن التجارية مثل كشغر ويرقند وختن ، ومعرفة الدولتين كل منهما لحال الاخر ورهبتها وخوفها على مصالحها التجارية جعل حكام الدولتين يستطلعان كل منهما اخبار الاخرى ويتبادلان الرسائل التي يبدو من خلالها تركيز الطرفين على التجارة والمصالح الاقتصادية (٢٢) .

ويبدو أن المشاكل الداخلية في الدولتين كانت وراء تأخير تصادمهما العنيف، فالمغول كانوا مشغولين بتسوية امورهم في الصين ، والدولة الخوارزمية بعدائها للدولة العباسية . لكن ذلك لم يلغ ان كلا منهما كانت تنتظر الفرصة للتقدم على حساب الدولة الاخرى ، واذا كان اول صدام بين القوتين سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م قد انتهى دونما نتيجة حاسمة عسكريا الا انه بين خطط الطرفين ، حيث صرح السلطان الخوارزمي أن هدفه هو ان يصطاد فريستين بسهم واحد(٢٣) ، ويقصد بذلك القوة المغولية والقبائل التركية على حدود دولته ، في حين كان رد المغول ان تقدمهم لهذه المناطق المجاورة للدولة الخوارزمية هو في خدمة السلطان ، وقصد جنكيزخان من ذلك ان أعماله العسكرية على حدود الدولة الخوارزمية هي لتصفية القبائل والجماعات التي تهدد أو يمكن ان تعيق سبيل التجارة بين الدولتين ، وقد وضح ذلك من الرسالة التي بعث بها جنكيز مع وفد تجاري الى خوارزمشاه(٢٤) . ولكن هذه الرسالة ، وان كانت تؤكد ان حرية التجارة كفيلة بتحقيق المنافع للطرفين ، الا انه ركز فيها على قوة الدولة المغولية ، كما ركز على مفهوم السيطرة المغولية التي تفترض التبعية من الاخرين ، « ليس يخفى على عظيم شأنك .. وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات وانت تعد مثل أعز أولادي وغير خاف عليك انني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك وقد اذعنت لي قبائلهم وانت اخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر ومعابر الفضة وان فيها لغنية عن طلب غيرها فان رأيت ان تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد »(٢٥) وقد تبع هذه الرسالة توقيع معاهدة تجارية وتبادل

الوفود التجارية ويشير النسوي الى مثل هذه الوفود والرسائل المتبادلة(٢٦) . لكن احدى هذه القوافل التجارية القادمة من الدولة المغولية الىالدولةالخوارزمية تعرضت للنهب والقتل في مدينة اترار(٢٧) وكان الرد المغولي عنيفا فافضى الامر الى الحرب بين الدولتين . وكانت الحجة المغولية هي الحجة التي ابتدعت ضد القبائل التركية الا وهو تهديدها للخطوط التجارية ، وكان الرد المغولي « من المعهود انالتجار لا يقتلون لانهم عمارة الاقاليم وهم الذين يحملون الى الملوك ما فيه التحف والاشياء النفسية ثم ان هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك »(٢٨) ، واذا كانت حادثة اترار هيالتي عجلت الحرب لكنها بلا شك ليست السبب الوحيد ، فقد كان التوسع او التخطيط للتوسع ينسجم مع الافكار المغولية التي بدأت تتبلور بعد سيطرتهم على الصين، فجنكيز خان هو الحاكم على الشرق والغرب وهو الذي لا يقبل منافسين وانما يقبل اتباعا ، وهو صاحب القول : « كان الرجال الحكماء المسنون يعلموننا دائما ان القلوب والعقول المتباينة لا يمكن ان تكون في جسد واحد ولكننياريد ان اثبت ان ذلك ممكن عمليا فسوف ابسط نفوذي على جميع جيراننا »(٢٩) . وبدأت الحرب التي يبدو أن اعداد المغول كان لها جيدا بحيث انتهت بالسيطرة على الاجزاء الهامة في الدولة الخوارزمية قبل وفاة السلطان علاء الدين محمد ٦١٧هـ/١٢١٩م ، واستكملت السيطرة بعد محاولات المقاومة في عهد جلال الدين منكبرتي (٦١٧ – ٦٢٨ هـ/١٢١٩ –١٢٣١م) ، واذا تتبعنا سير القوات المغولية في السيطرة على المناطق الخوارزمية لوجدنا انها تكاد تساير المحطات الرئيسة على الطريق التجاري بدءا من اترار الى سفناق ثم جند وبناكت وخجند وبخارى وسمرقند وبلخ، مرورا بمدنمقاطعة خراسان مثل هرات ومرو ونيسابور ، وصولا الى منطقة الري(٣٠) ، ليتم التركيز بعد ذلك على اقليم خوارزم وعاصمته جرجانية كمقدمة للسيطرة على مناطق الخزر وخراسان(٣١).

وكنتيجة لهذه النجاحات في اخضاع مناطق نفوذ الدولة الخوارزمية يكون المغول قد سيطروا على أهم المنافذ التجارية ، وفتحوا طرقا تجارية توصلهم الى اوروبا عبر الاراضي الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين ، وكأنهم بذلك يمهدون المجال لاحياء التجارة في منطقة البحر الاسود الذي أصبح فيما بعد من المناطق التجارية الهامة للاوروبيين .

وضمن هذا الاطار الجغرافي للتوسع المغولي والذي لم يكتمل في عهد جنكيز خان لكنه أوجد امكانية تطبيق فكرة الدولة العالمية التي سعى خلفاء جنكيز للمضي في تحقيقها ، فركزوا جهودهم للوصول الى شواطىء البحر المتوسط ، وأوكلت مهمة تحقيق ذلك بعد تقسيم الامبراطورية المغولية(٣٢) الى الخانية فارس (٦٥٦ – ٧٣٧هـ ١٢٥٨ – ١٣٣٦م) التي سعت لذلك بوسائل متعددة .

الطرف الغربي لطريق الحرير ومحاولة السيطرة المغولية :

ليست مهمة هذا البحث متابعة التطورات التي حدثت في الدولة المغولية بعد وفاة جنكيز خان ، بل التركيز على فكرة مشروع الدولة العالمية المغولية التي لم تنته بوفاة مؤسسها ، فعلى الرغم من أن امبراطورية جنكيز خان قد قسمت بين ابنائه وابناء بيته الا ان الغالبية العظمى منهم قد أقرت بامكانية متابعة التوسع ، ففي عهد خلفائه تمت السيطرة على بقية أجزاء الدولة الخوارزمية ، ثم تصفيتها نهائيا سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م(٣٣) ، وأعادوا السيطرة على مناطق ثارت على حكمهم وسيطروا على مناطق جديدة في ايران ووصلوا حتى سامراء سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦(٣٤) ، ووسعوا نفوذهم الى مناطق جورجيا وارمينيا وأكرانيا وتابعوا زحفهم على بولندا وفيينا وسواحل البحر الادرياتي ، وأخضعوا مناطق الاناضول حتى عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م.

وفي عهد منكوقآن ٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ / ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م ، بدأت خطط المغول للسيطرة على بقية مناطق ايران والعراق وصولا الى بلاد الشام . وكان التوجيه لهولاكو يبين أن الهدف النهائي للمغول في هذا الاتجاه هو الوصول الى موانىء البحر المتوسط، ويبدو ذلك جليا في ما قاله له منكوقآن : « ... ينبغي أن تسير من توران الى ايران. وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزئيات وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي مصر بلطفك وأنواع عطفك وأنعامك ، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة .. وابدأ باقليم فهستان في خراسان فخرّب القلاع والحصون .. واذا فرغت من هذه المهمة فعليك أن تتوجه الى العراق وأزل من طريقك اللور والاكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيه »(٣٥). يتضح من ذلك أن الغزو المغولي استمر وفق خطة جنكيز خان للسيطرة على الشرق والغرب ، وان ذلك قد توافق في عهد هولاكو خان وأتباعه من حكام في الخانية فارس مع الفكرة الفارسية القديمة التي لم تكن لتكتفي بالسيطرة على بلاد ما بين النهرين بل كانت تسعى دوما لايجاد ممر لها الى البحر المتوسط(٣٦) ، ويتضح ذلك أكثر بعد أن تمت للمغول السيطرة على قلاع الاسماعيلية سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وتابعت قواتهم زحفها الى همذان . وفي تلك الاثناء تقابل هولاكو مع أحد قادته وهو بايجو نويان فقال له : « لقد ذهبت في الوقت الذي ذهب فيه جرماغون فماذا فعلت عندما حللت محله في ايران وكم من جيش قهرت ... وما العدد الذي أخضعته ..؟ فأجاب انني لم أقصر وانما بذلت كل ما في مقدوري فأخضعت الاقاليم الممتدة ما بين باب الري حتى حدود الروم والشام ما عدا بغداد ... ثم قال له هولاكو : يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية حتى شاطىء البحر من أبناء الفرنج والكفار »(٣٧) .

وتطبيقا لهذه السياسة اجتاحوا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ليتابعوا زحفهم على بلاد الشام ، وكانت أوضاعها مضطربة في ظل أبناء البيت الايوبي وصراعهم مع المماليك في مصر والامارات الصليبية على السواحل. وأدرك المغول أهمية السيطرة على بلاد الشام فتحالفوا مع بعض الامارات الصليبية ومملكة أرمينيا ، الذين شاركوهم في الهجوم على مدن الشام من حلب شمالا الى غزة جنوبا(٣٨) . ولكن سيطرتهم لم تدم بعد هزيمتهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، الا أن المحاولات من قبل الخانية فارس استمرت في عهد خلفاء هولاكو آخذين بعين الاعتبار أهمية هذه المنطقة والقوى المؤثرة عليها ، وبخاصة الدولة البيزنطية والقوى الاوروبية الغربية اضافة الى المدن التجارية الايطالية والامارات الصليبية ، فحاولوا عقد المعاهدات لتكوين أحلاف الهدف منها السيطرة على بلاد الشام ومصر ، ونلمح في ذلك محاولة مغولية أوروبية لاقتسام مناطق النفوذ في المناطق العربية الا أن هذه المجهودات لم تفض الى نتيجة ايجابية كما تمنوها(٣٩) . وفي المقابل سعت الدولة المملوكية التي أصبحت بلاد الشام ضمن مناطق نفوذها ، لحماية هذه المنطقة فركزت على ايجاد تحالفات تهدف الى اضعاف التوجه المغولي ، فركزت على التحالف مع مغول القبيلة الذهبية(٤٠) وسعت في الوقت نفسه على أن يكون لها تأثير على بيزنطة، كما عملت ، وضمن سياسة ذكية ، على ألا تحارب عدوين في آن واحد ، الصليبيين والمغول . ويبدو أن أوضاع كل من القوى الصليبية والخانية فارس قد خدم هذا التوجه المملوكي ، بل نرى أن الدولة المملوكية قد نجحت في انهاء الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام بتحرير عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م(٤١) ، مما أتاح لها التفرغ بشكل كامل لجبهة المغول والقوى الحليفة لها فاستطاعت أن تحقق نجاحات ضمن سياسة التأثير على مملكة أرمينيا الصغرى ، وكذلك سلاجقة الروم . وقد نجحت بالسيطرة على مناطق استراتيجية من الناحيتين العسكرية والتجارية مثل قلعة الروم (قلعة المسلمين)(٤٢) ، لكن هذه النجاحات المملوكية والتغيرات في داخل دولة الخانية فارس لم تمنع المغول من تجديد المحاولات للسيطرة من جديد على بلاد الشام ، وكان من أهم هذه المحاولات وصولهم لدمشق سنة ٦٩٩هـ /١٣٠٠م (٤٣) ، لكن المحاولات العسكرية التي فشلت في تحقيق الهدف المغولي لم تمنعهم من السعي بعد فشلهم وبكل الوسائل لاطباق السيطرة على الطرق التجارية الشامية الى اللجوء لعقد المعاهدات التي ركزت من ضمن ما ركزت عليه على البعد التجاري وكان من أهم هذه المعاهدات تلك التي وقعت سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ، والتي كان لتاجر شامي الدور المهم في انجازها(٤٤) .

وهكذا نجد أن التوسع المغولي والذي بدأ بمحاولات ناجحة في السيطرة على الصين قد تتابع غربا منهيا سيطرة قبائل تركية على حدود الدولة الخوارزمية ثم أزال الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر كما أنهى الخلافة العباسية ليستقر على حدود

بلاد الشام ، هذا التوسع المغولي نجده من خلال تتبع قواته العسكرية وهي تسيطر على كل هذه المناطق متوافقا مع خط سير طريق الحرير ، مما يؤكد أن طريق الحرير هو تبادل السلع والافكار والديانات والفن ، التي لم تكن لتتفاعل بالطريق السلمي فقط وانما أحيانا بالقوة العسكرية ، ولربما كان التوسع المغولي خير مثال على انتقال وتفاعل العناصر الحضارية بين الامم المختلفة على الرغم مما رافق هذا الغزو من قتل وتدمير وشل لمراكز حضارية في مناطق مختلفة ، وسيحاول البحث القاء بعض الضوء على ما رافق هذا التوسع المغولي من تفاعل حضاري وحوار بين الامم المختلفة مركزا على ما تأثرت به المعارف الجغرافية العالمية والسياسة الدولية اضافة الى ما تأثرت به الطرق التجارية وما تبع ذلك من انتقال لجماعات بشرية في الاتجاهين الشرقي والغربي علاوة على ما تأثرت به الديانة الاسلامية مقارنة بالديانات الاخرى التي أتيح لها التفاعل ضمن اطار دولة واحدة ، كما سيشير البحث الى نقطة جديرة بالاهتمام الا وهي التفاعل السكاني الذي لا بد أنه قد حصل نتيجة هجرة واستقرار أقوام مختلفة في بلاد الشام ومصر .

نتائج السيطرة المغولية على طريق الحرير :

بعد أن استطاع المغول وفي فترة قياسية تأسيس امبراطورية قارية واسعة امتدت من حدود الصين شرقا الى بلاد الشام غربا ، سيطروا بحكم هذا الامتداد الجغرافي على أهم طريق موصل بين شرق آسيا وغربها ، ومما لا شك فيه أن العوامل الاقتصادية قد لعبت دورا محوريا في توسعهم المستمر ، ويمكن أن نلمح مدى اهتمام المغول بالبعد التجاري ضمن الحياة الاقتصادية . فعلاوة على طبيعتهم البدوية التي جعلت للتجارة أهمية خاصة عند بعض قبائلهم ، نلمح أن هذا الاهتمام بدأ يتزايد بعد توحدهم تحت قيادة واحدة ، اضافة الى ما قدمته المناطق التي خضعت لسيطرتهم من تنوع اقتصادي . والاشارات التي ترد عن تاريخ المغول توضح مدى اهتمامهم بالتجارة حيث أمنوا قانونيا (الياسه) حرية التجارة وتقديم الرعاية للتجار(٤٥) . كما أولى المغول اهتماما متزايدا للطرق التجارية وحفظ النظام والامن لمستخدميها ، وأوجدوا ما يسمى بالمستحفظين (القراقجية) الذين يتولون توفير الامن على الطرق التجارية ، كما يتبدى اهتمامهم بالتجارة والتجار من خلال علاقتهم مع الدول التي كانوا على تماس معها كما هو الحال بالنسبة للدولة الخوارزمية قبل أن يسيطروا عليها وكما تبدت علاقتهم مع الدولة المملوكية التي كانوا على عداء معها ، وشمل الامر أيضا علاقتهم ببيزنطة أو الامارات الايطالية ، كما عملوا على ايجاد مناطق استقرار لجماعات صغيرة أسكنت على طول الطرق التجارية(٤٦) ، وقد جاء ذلك ليخدم غرضين في آن واحد : تأمين الاتصال بين المناطق المختلفة للامبراطورية المغولية ضمن اهتمامهم بنظام البريد ، وتوفير مناطق استراحة للتجار في جميع أرجاء هذه الدولة .

ونلمح التركيز على البعد الاقتصادي حتى من خلال سيطرتهم العسكرية الغالب عليها العنف في معظم المناطق التي خضعت لهم ، ويبدو ذلك جليا في أن معظم الفئات التي نجت من قتلهم كانت تشمل التجار والحرفيين ، الذين غالبا ما أرسلوا من مناطق السيطرة الى مركز الدولة في منغوليا(٤٧) . على أن هذا الاهتمام المتزايد بالتجارة يجب الا يلغي حقيقة أن الحياة الاقتصادية والتجارية بشكل خاص قد تأثرت سلبا بالتوسع المغولي ، حيث أعقب الغزو مباشرة تعطل الطرق التجارية والبرية منها بشكل خاص. لكن ذلك لا ينسحب على الفترة المغولية بشكل كامل، فما أن استقرت السيطرة المغولية على مناطق التوسع الا وبدأت حركة ازدهار وتوسع للطرق التجارية ، فازدهر الطريق البري الذي بدأ من الصين مخترقا تركستان بالاتجاه الشمالي من بحر قزوين الى الى موانىء البحر الاسود ، أو الطريق الذي يسير جنوب بحر قزوين مجتازا ايران الى طرابيزون الى منطقة أياس بارمينيا ، وأصبح مطروقا أكثر من الطريق البحري ، كما أدى الى نشوء مراكز تجارية أوروبية للايطاليين في منطقة كافا (ثيوديسيا القديمة)(٤٨) . وتعمق الاهتمام بمثل هذه المراكز بعد استمرار الصراع بين الخانية فارس ودولة المماليك مما حول جزءا كبيرا من التجارة الى جنوب روسيا . وهكذا نرى أن الغزو المغولي الذي ساهم في احياء طريق الحرير قد أوجد تفرعات أخرى لهذا الطريق الرئيسي القديم ، بحيث بدت لنا طريقين رئيسيين بعد الغزو ، الطريق الاول من البحر الاسود الى شمال تركستان مرورا بوسط آسيا الى الصين عبر اتجاهين اما مرورا بالسهول الشمالية (سهول زنجاريا) أو عبر حوض نهر التاريم ثم خوتان في الجنوب ، وكان طريقا بريا ، والطريق الثاني بحري — بري اما من طرابيزون أو خليج الاسكندرونة ليصل الى منطقة تبريز الى هرمز ليسير عبر طريق المحيط الهندي الى مناطق الهند والشرق الاقصى ، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد السيطرة المغولية على بغداد بحيث أصبحت تبريز المكان الذي يرتاده التجار من مناطق الشام وشمال بلاد ما بين النهرين ، وغدا الطريق الرئيسي خلال القرن الثامن هجري / الرابع عشر ميلادي .

كان لهذا التوسع في الطرق التجارية أثر على فقدان بعض المناطق لاهميتها التجارية ، فانطاكية مثلا وحلب فقدتا جزءا من نشاطهما التجاري لصالح اياس الثغر الارميني على البحر المتوسط والذي اعتمده التجار لتجنب الطريق الذي يمر في في أراضي الدولة المملوكية التي كانت على عداء مع دولة المغول ، الا ان ذلك لا يعني بالضرورة ان كل الحركة التجارية قد تركزت في هذه المناطق الجديدة بل كان لا بد لجزء هام من التجارة ان يمر عبر بلاد الشام وبخاصة حلب ودمشق ، ومما زاد من حرية الحركة ونشاطها ان معظم المنافذ والطرق التجارية تقع ضمن اطار دولةواحدة، وحتى بعد انقسام الدولة المغولية الى مناطق سياسية مختلفة لم تتأثر الحركة التجارية

سلبا ، فنرى الخانية فارس تسعى بوسائل مختلفة لتنشيط الحركة التجارية مع دولة المماليك ، وكذلك الحال مع مغول القبيلة الذهبية الذين ارتبطوا بمعاهدات سياسية واقتصادية مع المماليك وبيزنطة والامارات الايطالية . واذا كانت بلاد الشام قد تأثرت بتحول الطرق التجارية مؤقتا الا أن هذا الوضع قد تغير بعد النجاحات العسكرية التي حققها المماليك ضد المغول وأرمينيا والامارات الصليبية .

وبالاجمال يمكن القول ان الغزو المغولي قد أعاد الحياة لطريق الحرير العظيم وان زاد تشعبه ضمن امبراطوريتهم(٤٩) ، وقد أدى ذلك الى نتيجة أبعد أثرا في التاريخ الانساني ألا وهي ازدياد الاتصال بين الغرب الاوروبي والصين ومناطق السيطرة المغولية ، فقام الاوروبيون برحلات وبعثات ضمن الامبراطورية المغولية كانت تهدف لأغراض سياسية والبحث عن حلفاء ضد المسلمين واقتصادية للحصول على منتجات الشرق دونما وساطة دولة المماليك ، وأهداف دينية تهدف الى نشر الدين المسيحي . ومن أبرز الاعلام الاوروبية التي زارت الامبراطورية المغولية جيوفاني دي بيانو كاربيني في الفترة الواقعة بين ١٢٤٥ ـ ١٢٤٧ ، والذي كان أول من زود الغرب بمعلومات ثرية عن الشرق والمغول ، وروبروك عام ١٢٥٢ ، الذي كان لمعلوماته أكبر الاثر في حث الغرب على المزيد من الاتصال بالمغول ويعتبر تقرير روبروك وحسب قول كلوزيه ، من أفضل المؤلفات الجغرافية التي وصلتنا من العصر الوسيط(٥٠) ، كما كان لرحلة ماركو بولو والذي أقام في الامبراطورية المغولية ما يزيد على سبعة عشر عاما الاثر الاكبر في الكشف عن ثروات الشرق الاقصى التي شجعت الرحالة والمكتشفين الاوروبيين لاجتياز آسيا ضمن خطتهم للبحث عن أقصر وأرخص وأسهل الطرق للوصول للشرق الاقصى والهند ، مما مهد لقيام حركة الكشوف الجغرافية التي أدت فيما بعد الى تغيير في الطرق التجارية علاوة على اكتشاف امريكا ، مما جعل ايلين بور تقول « ان ماركو بولو قد اكتشف بلاد الصين في القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة واكتشف أمريكا في القرن الخامس عشر بعد وفاته »(٥١) . ولم يقتصر أمر ازدياد المعرفة الجغرافية على الاوروبيين بل كان لرحلة ابن بطوطة الاثر الهام في تقديم معلومات جغرافية واقتصادية وبشرية عن المناطق التي زارها ، مما ساهم في اثراء المعرفة الاسلامية لمناطق جنوب شرق آسيا والتي تكونت لديهم عن علاقاتهم السياسية والتجارية في القرون السابقة(٥٢) ، كما زادت معارف الصينيين بالمناطق الجغرافية العالمية وخاصة بمناطق الشرق الاوسط وافريقيا ، اذ قام رحالة صينيون من أشهرهم تشنغ خه ما بين ١٤٠٥ ـ ١٤٣٣م بسبع رحلات الى مناطق مجهولة وبذلك يكون قد سبق اكتشافات كولمبوس بنصف قرن(٥٣) . وقد أدى ذلك الى زيادة التفاعل الحضاري بين الشعوب ، واذا كان الفضل في ذلك لا يعود بشكل مباشر الى العنصر المغولي الا أنه بلا شك قد كان عن طريقهم بشكل غير مباشر وذلك لأنهم شكلوا امبراطورية واسعة

ربطت الغرب ووسط آسيا بالشرق الاقصى بعلاقات مستمرة كما أنها ضمت شعوبا ذات حضارات وثقافات مختلفة أتيح لها امكانية التفاعل لفترة طويلة من الزمن ، فان لم يكن المغول ناقلي حضارة الا انهم شجعوا النقل الحضاري والتفاعل بين الشعوب التي خضعت لسيطرتهم وتلك التي تعاملت معهم .

ومن الآثار الهامة التي ترتبت على المشروع المغولي باحكام السيطرة على طريق الحرير ان ازدياد تنقل الجماعات البشرية في الاتجاهين الشرقي والغربي لطريق الحرير سواء أكان هذا الانتقال طوعيا او قسريا ، فلمحنا ازدياد التواجد الاسلامي في معظم مناطق الصين من الجماعات التي أخذها المغول من مناطق السيطرة لتلتئم معجماعات اخرى جاءت لتستقر وتعمل في التجارة وبذلك كان يمكن ان نجد مجموعات منالتجار العراقيين والشاميين الى جانب الفرس والاتراك في مناطق الصين ومنغوليا ومناطق سيطرة القبيلة الذهبية(٥٤) ، وبالمقابل يلمح توأجد صيني في مناطق ايران كما أشار لذلك الاسقف الصيني شانج شون وتحدث على اعداد من العمال الصينيين في مدينة سمر قند(٥٥) ، كما أشار روبروك الى وجود مجموعات من الالمان والروس والفرنسيين في البلاط المغولي(٥٦)، وبذلك فان هذا المزيج من أبناء الشعوب المختلفة لا بد وانه تفاعل تأثرا وتأثيرا على جميع الاطراف كما أثر بنفس الوقت على التطور الحضاري والفكري للمغول .

ومن النقاط الجديرة بالبحث بما يتعلق بالمنطقة العربية (الشام ومصر) هي دراسة الجماعات التي وفدت لهذه المنطقة من جراء المشروع المغولي في التوسعغربا للسيطرة على الطرف الغربي لطريق الحرير ، ففي أثناء السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية اندفعت مجموعات من القبائل الخوارزمية ليستقر بها المقام في بلاد الشام في فترة الدولة الايوبية ، وقد ساهمت هذه الجماعات كقوى عسكرية في الاحداث التي كانت تمر بها الدولة الايوبية سواء على الصعيد الداخلي أو في حربها مع القوى الفرنجية ، وتشير المصادر الى ان جزءا من هؤلاء الخوارزمية قد استوطن في جنوبي بلاد الشام في مناطق البلقاء وغزة ، واخر كان في منطقة بقاع بعلبك وغوطة دمشق، وتشير المصادر الى أن اعدادهم كانت تزيد على العشرة الاف(٥٧) ، لكن مما يؤسف له ان المصادر التاريخية لا تزودنا بمعلومات عن مدى ما أثرت به هذه الجماعات على الوضع الحضاري والسكاني لبلاد الشام . ومن التأثيرات التي نجمت عن السيطرة المغولية على بلاد ما بين النهرين أن أصبحت بلاد الشام ومصر بلد المهجر لكثير من القبائل المغولية التي توافدت وفي فترات زمنية مختلفة ، ففي سنة ٦٦٠هـ وفد لبلاد الشام ما يزيد على مئتي فارس مغولي بنسائهم واهاليهم(٥٨) ، وبعد ذلك بسنة وفد ما يزيد على الف وثلاثمئة(٥٩) ، ثم تتابعت هجرة الجماعات المغولية سنة ٦٨٠هـ(٦٠) ، ولكن الموجة الاكبر كانت ما بين سنة ٦٩١ ـ ٦٩٥هـ اذ تشير المصادر الى

قدوم ما يزيد على عشرة الاف اسرة تفرقت في مصر وبلاد الشام وتم اسكان مجموعات منهم على الساحل الفلسطيني(٦١) ، وتشير المصادر أيضا الى أن جزءا من هؤلاء اختلطوا بسكان المنطقة عن طريق الزواج والعمل ، وأن جزءا منهم اعتنق الاسلام، ولكنهم احتفظوا بالكثير من عاداتهم وطرائق حياتهم مما جعل المقريزي يقول « بعد كثرة وقائع المغول في بلاد المشرق والشمال والقفجاق واسروا كثيرا منهم وباعوهم وتنقلوا في لامصار وملئوا مصر والشام وانتشرت عاداتهم وطرائقهم .. وكانوا انما ربوا بدار الاسلام واتقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل »(٦٢) ، ويشير أيضا الى أنهم يحكمون القرآن في بعض أمور حياتهم وفي البعض الاخر يرجعون الى القوانين المغولية ، بل وتشير المصادر الى أن بعض حكام الدولة المملوكية قد مال الى اعطاء هذه الجماعات الوافدة امتيازات خاصة بحكم القرابة العرقية(٦٣) . ولا شك ان مثل هذه الجماعات قد أثرت بشكل أو بآخر على نمط الحياة الاجتماعية في بلاد مصر والشام خاصة فيما يتعلق بالنظرة للمرأة أو بما ادخلوه من أنماط في الملبس والمأكل (٦٤) كما يمكن ان يكون لهذه الجماعات أثر في القوانين والتشريعات المملوكية اضافة الى آثارها على طبيعة الحياة العسكرية للدولة المملوكية.

ومن ضمن الاثار التي ترتبت على الغزو المغولي الاثر على التركيبة السكانية لبلاد الشام ، ففي الوقت الذي استقطبت فيه بلاد الشام مجموعات خوارزمية ومغولية، كانت أيضا بلد المهجر لسكان بعض مناطق العراق فنجد في الفترة المملوكية العديد من أسماء العائلات التي تنتسب الى مناطق سامراء وتكريت وبغداد والجزيرة الفراتية ، كما كان لاستمرار تعرض بلاد الشام لخطر الهجمات المغولية ان ازدادت الهجرة السكانية من شمال بلاد الشام الى جنوبها ، وكذلك حركة الهجرة الى مصر. وأثرت الهجمات المغولية على بلاد الشام سكانيا واقتصاديا بقتل العديد من سكانها أثناء الغزوات ، أو من خلال بعض السياسات المملوكية ، بتهجير بعض السكان من بلاد الشام الى مصر وخاصة الفئات التي دارت حولها الشبهات من امكانية تعاونها مع المغول(٦٥) ، ونتيجة لذلك كله نجد أن الغزو المغولي الهادف للسيطرة على الطرف الغربي لطريق الحرير (بلاد الشام) قد ساهم في تفاعلات حضارية شملت منطقتي مصر وبلاد الشام .

ولا يمكننا اغفال ما تأثرت به الديانة الاسلامية نتيجة التوسع المغولي بحيث ادى ذلك الى ازدياد اعداد المسلمين في مناطق الصين، مع العلم بأن التواجد الاسلامي في هذه المناطق كان سابقا على الغزو المغولي ، وقفز قفزات واسعة في هذا العصر مستفيدا من التسامح الديني الذي تميزت به الاسر المغولية ومن النشاط التجاري مما أتاح للمسلمين فرصة كسب المنافسة مع الديانات الاخرى وخاصة البوذية والمسيحية بل أن الاسلام وحضارته كان قادرا على تطويع الجزء الاكبر من المغول بدخولهم للاسلام

كما حصل للقبيلة الذهبية ، وكذلك الخانية فارس التي اصبح الجزء الاكبر من حكامها من المسلمين(٦٦) ، ولا شك ان ازدياد عدد المسلمين واعتناق الدول المغولية للديانة الاسلامية رافقه تأثير متبادل في مجال اللغة والادب والفن ، ويمكن أن نلمح اثر الفن الاسلامي في العديد من المساجد التي اسست في الصين ومنها مسجد تشيوانتشو (مسجد وحيد القرن) الذي يشبه في بعض تصاميمه المسجد الاموي في دمشق(٦٧).

وفي الختام يمكننا القول بأن طريق الحرير الذي كان بمثابة الجسر التاريخي للتواصل بين الشرق والغرب لم يكن طريقا لتنقل البضائع التجارية فحسب ، بل كان طريقا للفن والادب والدين ، ولم يكن طريقا للتواصل السلمي ، بل كان طريقا لتحرك الجيوش من شرقه وغربه ، ولكنه كان كما تقول سونيا ي.هاو « ومهما يكن من تحول مراكز المدنية من مدينة الى أخرى فان شيئا لم يستطع شل حركة تجارة التوابل أو منع ازدهارها واطراد نموها . . . كانت تجارة التوابل منشأ العلاقات بين الامم ، منها تكونت حلقات الاتصال بين فترات التاريخ ولها يرجع الفضل في ايجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة مستمرة » (٦٨) . وعلى ضوء ذلك يمكننا القول أن السيطرة المغولية على طريق الحرير وان تميزت بالعنف الا نها لم تكن قادرة على الغاء الدور الحضاري لهذا الطريق كجسر للتواصل الانساني ، كما أن هذه السيطرة لم تكن لتلغي الدور الحضاري لبلاد الشام كمنطقة اشعاع وتفاعل انساني ، وان كانت قد نجحت في فاصل زمني من اضعاف هذا الدور ، بل ان بلاد الشام ومصر هما اللتان وقفتا في وجه المد المغولي وساهمتا في تطويعه لخدمة الاغراض الانسانية من التواصل الحضاري.

الهوامش

(١) Philip D.Curtin : **Cross - Cultural Tradein World History** , Cambridge University Press, Cambridge , 1984 , p. 106 .

(٢) حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٩م، ص ٢٩٣ .

(٣) ف . هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى ، جـ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ومراجعة وتقديم د.عز الدين فودة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م ،ص١٨ .

(٤) فاروق عثمان اباظة : اثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط اثناء القرن السادس عشر ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا تاريخ ، ص ٥ .

(٥) سليمان التاجر وابو زيد السيرافي : اخبار الصين والهند ، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري ، كتاب الابحاث ، سلسلة ابحاث ودراسات من تاريخ شبه القارة الهندية ، بيروت ، دار الموسم للاعلام ، ط١، ١٩٩١م ، ص ٣٥ ، ٣٧-٣٨، ٤١، ٦٠ . المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الاندلس ، بيروت ١٩٨٤ ص ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٦٢ . محمد مكين الصيني : نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام في الصين وأحوال المسلمين

فيها ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٥٣هـ ، ٦-١٠ .

Bretschnider. E : **Medival Researches from Eastern Asiatic Sources,** st. Petersburg, 1887, Vol, 1 , pp. 264 - 265 .

(٦) ف. هايد : مرجع سابق ، ص١٧٥ .

(٧) لوفران : تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ، ترجمة هاشم الحسني ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بلا تاريخ ،ص٤٠ .

(٨) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، جـ١، بيروت ، دار النهضة العربية ،١٩٨٠، ص٢١-٢٢ ، ٤٨ .

(٩) القراخطائيون : اصلهم من قبائل الخطا وهم خليط من المغول والتانجوت ، نزحوا في النصف الاول من القرن السادس الهجري الى مناطق تركستان وكونوا دولة تفصل بين الدولة الخوارزمية في الغرب والمغول في الشرق . انظر الصياد ، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤ .

(١٠) Bretschneider : Op. Cit, Vol, 1, pp. 208 - 209 .

الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ،ص ٢١-٢٢.

(١١) حسين مؤنس « المغول والاسلام » ، مجلة العربي ، عدد ١٥١/١٩٧١ ، ص ٢٢ .

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : الدولة العباسية ، القاهرة ، جامعة القاهرة ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٧ ، ص٢٨٠.

(١٢) Bertold Spuler : «Die Mongolen Zeit» , in : **Handbuch der Orient alistik , Sechster Band** , E. J. Brill - Leiden - Koln , 1953 , P. 4.

(١٣) Ibid : p. 4 .

(١٤) حول تاريخ ميلاده وشخصيته انظر السيد الباز العريني : المغول، بيروت، دار النهضة العربية ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٣ - ٥٣ .

(١٥) Hans - Reiner Kämpfe ; « Ginggis Khan . in Michael Weiers (Hrsg) . : **Die Mongolen, Wissenschaftliche Buchgesellschft ,** Darmstadt , 1986 , pp. 183-186.

(١٦) Ibid : p. 187 - 188 .

(١٧) Bertold pp. 10 - 11 .

Hans - Reiner Kämpfe : Op. Cit, pp. 186 - 187 .

(١٨) حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ١٣ .

الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ، ص ٥٣ .

Bertold , p. 10 .

(١٩) Ibid : p. 10 .

(٢٠) السيد الباز العريني ، مرجع سابق ، ص ٦٦ ــ ٦٨ . الصياد ، مرجع سابق ، جـ ١ ص ٥٤ ــ ٦٦ .

(٢١) حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ٥٩ ، ٧٩ ــ ٨٠ . الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ص ٥٤ ــ ٥٧ .

(٢٢) حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ٣٤-٣٥.

(٢٣) عفاف صبرة : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ١٦٠ .

Hans Reiner Kämpfe : Op. Cit, p. 188 .

(٢٤) Barthold ; **Turkestan down to the Mongol Invasion** , London , 1928 , p. 369 .

الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ، ٩٥-٩٦ .

(٢٥) النسوي ، شهاب الدين محمد بن أحمد: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ أحمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٣، ص ٤٧، عفاف صبرة : مرجع سابق ، ص١٥٩ .

(٢٦) حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ٨٢

(٢٧) النسوي : مصدر سابق ، ص٨٣-٨٤ .

عفاف صبرة : مرجع سابق ،ص ١٦٢ ، ١٦٥ .

(٢٨) ابن الاثير ، علي بن أحمد بن ابي الكرم: الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٨٠م ،ج٩، ص ٣١٣.

(٢٩) ابن كثير ، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل: البداية والنهاية ، بيروت ، مكتبة المعارف، ١٩٨٥م ، ج ١٣ ، ص ١١٩ .

(٣٠) الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ،ص٤٥.

(٣١) النسوي : مصدر سابق ، ص ١٠٠ . الصياد : مرجع سابق ،جـ١ ، ص ١١٦، ١١٨،١٢١ .

Howorth. H. H : **History of the Mongols,** London , 1876 , Vol. 1 , p. 77. Hans Reiner Op. Cit, pp. 189 - 191 .

(٣٢) عفاف صبرة : مرجع سابق ، ص ٢٠٠، الصياد : مرجع سابق ، جـ١، ص١٢.

(٣٣) حول تقسيمات الامبراطورية المغولية بعد جنكيز خان انظر الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ، ص ١٦٣ – ١٦٥.

(٣٤) حافظ حمدي : مرجع سابق ص٢٢٦.

(٣٥) الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ، ١٨٠ – ١٨١.

(٣٦) الهمذاني ، رشيد الدين بن فضل‌الله : جامع التواريخ ، م٢ ، جـ١ ، نقله الى العربية محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوي ، وفؤاد عبد المعطي الصياد ، راجعه يحيى الخشاب ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٠ ، ص٢٣٦.

(٣٧) Bertold : Op. Cit, p. 31.

(٣٨) الهمذاني : مصدر سابق ، ص٢٦٠.

(٣٩) الصياد : مرجع سابق ، جـ١ ، ص٢١٢، ٢٩٣.

(٤٠) **Bertold ; Op. Cit, pp. 32-38, 41.**

(٤١) Ibid , p. 26 .

(٤٢) ابن كثير : مصدر سابق ، ص٣٢١.

(٤٣) ابن ايبك الدواداري ، ابو بكر عبد الله: كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ٨ ، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق اولرخ هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١م ،ص ٣٢٣.
المقريزي ، ابو العباس أحمد بن‌علي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ٢ ، تحقق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٦م – ١٩٥٨م ، جـ١ ، قسم ٣ ،ص ٧٧٨ .

(٤٤) ابن كثير : مصدر سابق ، ج ١٤، ص ٦–٨ .

(٤٥) Bertold, p. 45.
ابن كثير : مصدر سابق ، ج ١٤، ص٩٧.

(٤٦) Bertold, p. 9.
Michael weiers, « Von Ögödei bis Möngke » , in : **Michael weiers (Hreg) ; Die Mongolen, chaft,** Darmstadt, 1986, p. 197.

(٤٨) النسوي : مصدر سابق ، ص ١٧٢. عفاف صبرة : مرجع سابق ، ص٢٠٠ .

(٤٩) سونيا.ي.هاو : في طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت ، مراجعة د. محمود النحاس ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٧ ، ص٤٢ . السيد الباز العريني: مرجع سابق ، ص ٣٢٢ .

(٥٠) جوزيف نسيم : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣م ، ص١٤٧–١٤٨ .
انظر الخارطة المرفقة في نهاية البحث .

(٥١) جوزيف نسيم : تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨م ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٨ .
رينية كلوزية : تطور الفكر الجغرافي ، تعريب عبد الرحمن حميدة ، دمشق ،دار الفكر ١٩٨٢ م ، ص ٤٣. سونيا هاو :مرجع سابق ، ص ٦٨.
Michael Weiers : Op.Cit ,..pp. 200-209, 215 .

(٥٢) حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص٣٠٣.

(٥٣) ابن بطوطة ، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي : رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، مسسة الرسالة ، ١٩٨٥م ج٢، ص٧١٧-٧٣٣.

(٥٤) محمد ابو جراد (مترجم) : الصين بلاد الطبيعة والجمال ، بكين ، دار النشر باللغات الاجنبية ، ط١ ، ١٩٨٨، ص١٧١.

(٥٥) Michael Weiers : Von Ögödei bis Möngke, pp. 209-210 .

سير توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ، القاهرة ، مكتبة النهضة العربية ، ط٣، ١٩٧٠، ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ . جعفر خصباك: أحوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين المغول ٦٥٦ - ٧٣٧هـ/١٢٥٨ - ١٣٣٦م ، بغداد ، مجلة كلية الاداب ، عدد ٤، ١٩٦١م، ص٤٩ . فهمي هويدي : الاسلام في الصين، عالم المعرفة ، عدد ١٩٨١/٤٣م ، ص٥٨- ٦٢ ، ٦٥ .

(٥٦) حافظ حمدي ، مرجع سابق ، ص١٤٨.

(٥٧) Michael Weiers : Op. Cit, 209 .

(٥٨) ابن ايبك الدواداري ، ابو بكر عبد الله، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٧ ، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٩٧٢م ، ص ٢٥٣-٢٥٤، ٣٥٢ ، ٣٥٨ .

(٥٩) ابن ايبك الدواداري : مصدر مسابق ، ج٨ ، ص٩٠-٩١ .

(٦٠) ابن عبد الظاهر ، محي الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦، ص٨٥-٨٦.

(٦١) ابن ايبك الدواداري : مصدر سابق ،ج٨، ص٢٤٨ .

(٦٢) المقريزي : مصدر سابق ، ج١ ، قسم٣، ص٣١٢ . ابن ايبك الدوادراي : مصدر سابق ، ج٨، ص٣٦١ - ٣٦٢ .

(٦٣) المقريزي ، ابو العباس احمد بن علي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ ، ج٢،ص٢٢١.

(٦٤) من السلاطين المماليك الذين اعطوا امتيازات للمغول الوافدين الى مصر والشام السلطان زين الدين كتبغة (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤ - ١٢٩٦م).

(٦٥) Aly Mazahreri ; **so lebten die** Muselmanen im Mitellalter, **Deutsche Verlags - Anschtalt,** Stutugart, 1957 , p. 91.

(٦٦) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٥٠.

(٦٧) من حكام ايلخانية فارس الذين اعتنقوا الاسلام : تكودار أحمد بن هولاكو ١٢٨٢ - ١٢٨٤م ، غازان بن ارغون ١٢٩٥ - ١٣٠٤م، الجاتيو محمد خدابنده ١٣٠٤ - ١٣١٦م، ابو السعيد بن محمد خدابندة ١٣١٦ - ١٣٣٦م .

(٦٨) محمد ابو جراد : مرجع سابق ، ص١٧٢.

(٦٩) سونيا هاو : مرجع سابق ، ص٢٧.

(٧٠) حافظ حمدي : مصدر سابق ، ص٣٠١.

dtv. Atlas zur Weltgeschichte 23 Auflage , München , 1989 , Banb 1,p. 187.

* * *

طريق الحرير - طريق الفجر بين الشـعوب
(نموذج حلب في العصر العثماني)

د. محمد م. الارناؤوط
جامعة اليرموك

« لقد سارت مع القوافل الفجرية الجوالة المثقلة بالحرير والشاي جميع الافكار والاخبار والتقاليد والعادات خلال البلـدان التي اجتازتها والتي استراحت فيها .. وقد أغنى الفجر الموسيقى والرقص والمسـرح المتنقل وفن العرافة كما ساهموا مساهمة فعالة في تطوير بعض الصناعات اليدويـة .. »(١) .

« حلب جديرة بهذا الاهتمام .. كانت على مر العصور محط القوافل التجارية العابرة شرق البلاد وغربها ... فاختلط سكانها بالعديد مـن الشعوب العربية والاجنبية وتم بين هؤلاء التمازج وظهر التأثير سواء في لغة الحديث أو في طرق العيش .. »(٢) .

مقدمـــة :

يُعتبر « طريق الحرير » من أقدم وأهم طرق التجارة بين الشـرق والغرب ، وبالتحديد بين آسيا وأوربا ، وبالتالي في العالم ، خلال العصرين القديم والوسـيط وحتى أواخر العصر الحديث تقريبا . الا أن هذه التسمية (طريق الحريـر) ، التي كان أول من استعملها العالم الالماني فرديناند فون ريشتهوڤن في القرن التاسع عشر ، لا تعني بطبيعة الحال ان هذا الطريق كان يُستعمل للتجارة بالحرير فقط . فقد كان هذا الطريق يشحن الى الغرب أهم البضائع المرغوبة في العالم القديم والوسيط كالتوابل والعاج والاحجار الكريمة ..الخ(٣) . ومع هذا فقد كانت أهمية هـذا الطريق عبر التاريخ لا تنبع فقط من نقل البضائع الثمينة والمرغوبة كالتوابل والحرائر والاحجار الكريمة ، بل من انتقال الافراد والافكار والاخبار من بلد الى اخر ومن قارة الى أخرى حتى أصبح هذا الطريق جسرا للتواصل بين الشعوب والحضارات. وهكذا برزت ونمت مع مرور الزمن ، نتيجة لهذا التواصل بين الشعوب والحضارات ، ظواهر جديدة في المجالات الثقافية والعلمية والاجتماعية ، وهي التي تحظى الان باهتمام الباحثين في مختلف البلدان(٤).

وفي هذا الاطار يتميز هذا الطريق بأهمية خاصة بالنسبة لبعض الاقوام والشعوب . فقد كان هذا الطريق يشهد دائما تنقل الافراد ، وأحيانا تنقل الجماعات والاقوام ، من بلد الى اخر . وفي هذه الحالة كان الانتقال الجماعي للاقوام والشعوب يحمل معه خواصه الحضارية ، وبالتحديد نقل نمط الحياة بشكل كلي أو جزئي من بلد الى اخر ومن قارة الى اخرى . وفي هذه الحالة أيضا كان التفاعل الحضاري يقوم بدوره بغض النظر عن مصير هذه الاقوام والشعوب في الاماكن الجديدة التي استوطنتها ، وبالتحديد استمرار هذه الاقوام والشعوب الاصلية أو ذوبانها في الشعوب التي حلت في وسطها(٥) .

ومن هذه الاقوام والشعوب يرتبط « طريق الحرير » بشكل خاص بالغجر حتى يمكن القول ان « طريق الحرير » كان « طريق الغجر » عبر التاريخ . فقد استمر الغجر خلال مئات السنين في الانسياح عبر هذا الطريق من أقصاه الى أقصاه ، وبالتحديد من الهند الى فرنسا وانكلترا . وهكذا من مقارنة الخرائط بين « طريق الحرير » و « طريق الغجر » يبدو لنا مدى التقارب أو مدى التطابق بين الطريقين خلال المراحل المختلفة . فقد كان الطريقان يسيران من الهند الى افغانستان ، ومن افغانستان الى بلاد فارس حيث يتم التشعب هناك في اتجاهين : نحو الشمال باتجاه بحر قزوين وارمينيا وروسيا ، ونحو الجنوب باتجاه الخليج العربي . ومن الخليج العربي كان الطريقان يصعدان شمالا مع دجلة والفرات ليتفرعا اخيرا في اتجاهين : الاول نحو الاناضول والبوسفور ومن هناك نحو البلقان وأوربا الغربية ، والثاني نحو حلب وفلسطين الى مصر(٦) .

ويذهب معظم الباحثين الى ان هذا الانسياح الكبير للغجر استمر منذ القرن التاسع للميلاد ، حين وصل الغجر الى بلاد فارس وبيزنطة(٧) ، حتى مطلع القرن الرابع عشر حين وصل الغجر الى بلاد البلقان ، حيث أخذوا منذ ذلك الحين يستقرون ويشدون غيرهم الى الاستقرار في البلاد الاوربية(٨) . وقد أدى توسع الدولة العثمانية حينئذ في هذه المناطق ، وبالتحديد في الاناضول والبلقان والشام الى دخول عدد كبير من الغجر في أراضيها حتى انها شكلت لهم سنجقاً خاصاً بهم(٩) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه في مطلع القرن السادس عشر الميلادي (١٥٢٢ـ١٥٢٣) أصبح لدينا احصاء عثماني دقيق عن الغجر في استنبول وبلاد البلقان ، وبالتحديد عن أماكن توزعهم ودياناتهم ومهنهم ، كما ان السلطان العثماني سليمان القانوني أصدر سنة ١٥٣٠م القانون الخاص بالغجر في الدولة العثمانية(١٠) .

ان الدافع وراء اختيار حركة الغجر عبر « طريق الحرير » من آسيا الى أوربا لاجل هذا البحث يكمن في « نموذجية » الحالة الغجرية بالنسبة لطريق الحرير كطريق

للحوار والتواصل بين الشعوب ، وبالتحديد للتفعيل والتفاعل الحضاري . فالغجر أولا نجحوا ، على الرغم من الظروف الصعبة التي أحاطت بهم ، في الاحتفاظ بهويتهم المميزة في الاماكن الجديدة التي حلوا بها ، والتي تبعد الاف الكيلومترات عن موطنهم الاصلي ، وهو ما كان يثير ضيق البعض واعجاب البعض الاخر . وما يهمنا هنا ان الغجر نجحوا بالفعل في نقل « حضارتهم »(١١) الى الاماكن الجديدة التي حلوا فيها، حيث اصبحوا يتميزون ببعض المهن التي نقلوها معهم من الموطن الاصلي كممارسة الحدادة وصناعة المناخل والغرابيل وترويض الحيوانات والعرافة والغناء والموسيقى والرقص ..الخ. ومن ناحية اخرى يمثل الغجر حالة نموذجية بالنسبة للباحث فيما يتعلق بتتبع المؤثرات المختلفة للاماكن التي عبروها في طريقهم الطويل وللشعوب التي احتكوا بها في تنقلهم من أقصى اسيا الى اقصى اوربا(١٢). وهم يتميزون بالكفاءة في الاقتباس من جميع الميادين ومن جميع الشعوب التي يحتكون بها ، وليس فقط بالكفاءة في الاحتفاظ بخصوصيتهم الحضارية . وبعبارة اخرى ان الغجر يمثلون في هذه الحالة مجالا خصبا لدراسة أشكال التفعيل والتفاعل الحضاري بين الشعوب المنتشرة على طول طريق الحرير .

أما فيما يتعلق بالدافع وراء اختيار حلب بالذات لاجل هذا البحث فيكمن في موقع حلب المهم بالنسبة لطريق الحرير وتطورها كمتروبول في مطلع العصر العثماني. فقد تطورت حلب بشكل سريع في مطلع العصر العثماني نتيجة لازدهار التجارة فيها بين الشرق والغرب ، حتى ان مساحة المدينة تضاعفت بسرعة وأصبحت تتميز بالمنشآت العمرانية الضخمة (الخانات وغيرها) التي تعبر عن الدور الجديد الذي أخذت حلب تضطلع به في المنطقة(١٣) . ومن ناحية أخرى فقد أدى الازدهار التجاري والعمراني بحلب الى جذب السكان من مختلف المناطق ومن مختلف الاجناس والاديان حتى أصبحت بالفعل متروبولا في المنطقة تماثل استنبول وسالونيك بالطابع العالمي. فبعد أن كانت أغلبية السكان من العرب المسلمين نجد أن المدينة اجتذبت مع ازدهارها التجاري في مطلع العصر العثماني عناصر جديدة من المسيحيين الشرقيين (الموارنة والارمن) والاوربيين (البنادقة والانكليز والبلجيك والفرنسيين وغيرهم) ومن المسلمين العثمانيين (الاتراك ، الكرد ، الشركس ، الالبان والبوشناق)(١٤) بالاضافة الى الغجر الذين أصبحوا يعدون من العناصر السكانية للمدينة(١٥) .

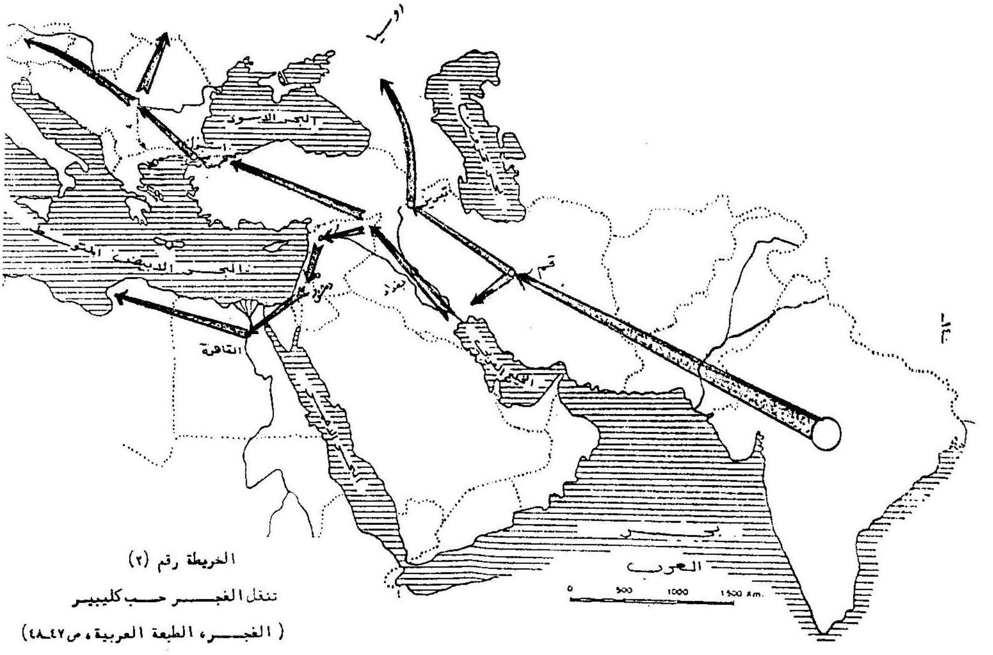
ونظرا لطبيعة البحث فقد رأينا من الافضل توزيعه على خمسة محاور تعبر عن الاتجاهين المتعاكسين لدى الغجر لدى اختلاطهم مع الشعوب الاخرى : الاحتفاظ بالذات والانفتاح على الاخرين أو التأثر بالمحيط الجديد والتأثير في المحيط الجديد: ١ ـ الاسم ، ٢ ـ الدين ، ٣ ـ السكن ، ٤ ـ المهن ، ٥ ـ الغجر في نظر الغير .

اسم الفجر:

مع ان الفجر يميزون أنفسهم باسم مشترك كبقية الشعوب ، ألا وهو « روم »أو « دوم » في اللغة الفجرية ، الا أنهم عرفوا باسماء عديدة من قبل الشعوب الاخرى . وربما كان هذا غير مستغرب اذا ما أخذنا بعين الاعتبار كثرة الاماكن التي عبروها أو استقروا بها وكثرة الشعوب التي اختلطوا بها . وهكذا فيما يتعلق بالمنطقة العربية فقط نجد ان الفجر يعرفون باسماء عديدة كالزط والفجر والنور والقرباط والحلبية والقاولية (١٦) .

أما فيما يتعلق بحلب فيلاحظ ان الفجر هناك قد اشتهروا باسم «القرباط». وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا الاسم يطلق على الفجر الى اليوم في شمال سورية وفي الساحل السوري (منطقة اللاذقية وطرطوس). ويلاحظ هنا ان هذا الاسم يمتد ليشمل بشكل مستقيم الفجر من شمال افغانستان الى شمال سورية مرورا ببلاد فارس . وفي الواقع يؤكد معظم الباحثين ان هؤلاء الفجر المنتشرين في افغانستان وبلاد فارس وشمال سورية ، والمعروفين باسم واحد (القرباط) ، انما يعودون الى عشيرة واحدة(١٧) . ومع هذا يختلف الباحثون هنا في تفسير هذا الاسم الذي اطلق لاول مرة على الفجر في افغانستان ، بعد وصولهم من الهند . فبعض العلماء يرى أنه مشتق من كلمة « غربة » العربية (غَرْبَة ← غَرْبَتْ ← غَرْبات ← قَرْباط) ، بينما يرى الاخرون أنه مشتق من كلمة « غورب » الفارسية التي تعني الغياب عن البيت والموطن(١٨) . ولا بأس من الاشارة هنا الى ان الفجر عرفوا بهذا الاسم (القرباط)أيضا في بعض البلاد الاخرى التي رحلوا اليها واستوطنوا فيها كاليونان والبانيا ويوغسلافيا(١٩) .

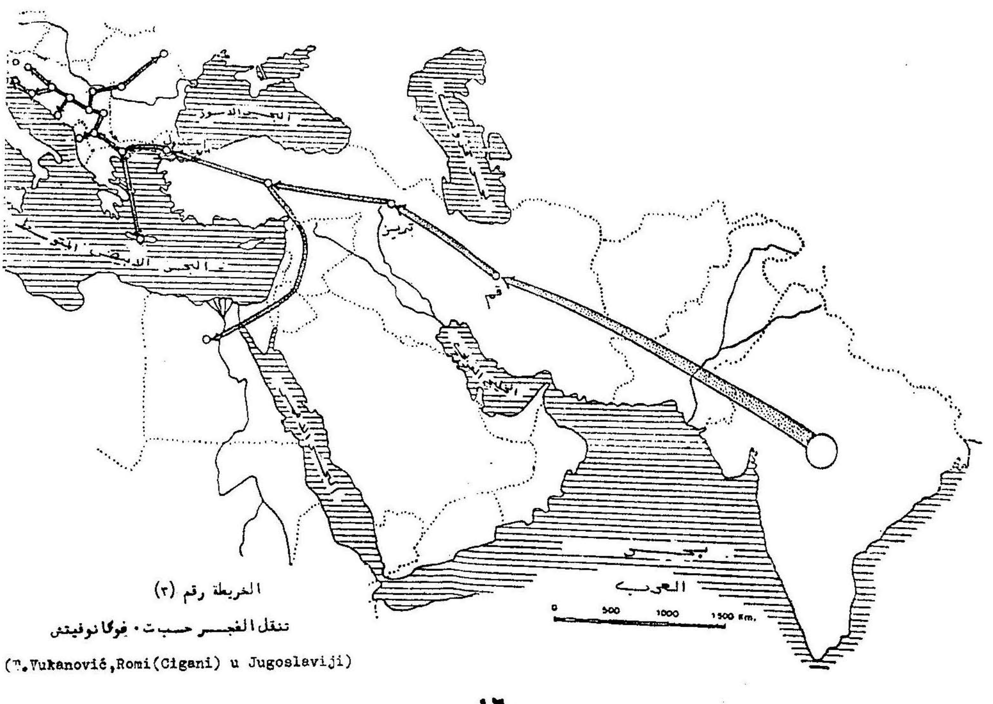
وكما هو الامر مع البلاد الاخرى فان الفجر في حلب أيضا يحتفظون لانفسهم باسمهم الخاص . ففي العادة يعتبر الفجر الاسم الذي يطلقه المحيط المحلي عليهم لا يليق بهم(٢٠) ولذلك يتمسكون باسمهم الخاص . وهكذا نجد في حلب أيضا انالفجر هناك يتمسكون باسمهم الاصلي « دوم » . وقد أورد لنا العلامة خير الدين الاسديفي « موسوعة حلب المقارنة » بعض المعطيات التي حصل عليها من الفجر أنفسهم في حلب ، والتي تتعلق باسمهم . فقد أورد الاسدي ما ذكرهله الفجر من أن « اسمنا الاصلي دوم » ، وحتى انه أورد جملة في اللغة الفجرية « بابم دومه » أي « أبي قرباطي »(٢١) . وتجدر الاشارة هنا الى ان كلمة « دوم » هي من أصل درافيدي وهي تعني « رنة » في السنسكريتية ، ومن ذلك « دوماس » أي الشخص الذي يعيش على الرقص والغناء(٢٢) . ويبدو من هذا قدم الارتباط ، الذي سيرد معنا لاحقا ، بين الفجر والرقص والغناء الذي شاع عنهم في كل مكان حلوا فيه .



الخريطة رقم (٢)

تنقل الغجر حسب كليبير

(الغجر، الطبعة العربية، ص٤٧-٤٨)



الخريطة رقم (٣)

تنقل الغجر حسب ت. فوكانوفيتش

(T.Vukanović,Romi(Cigani) u Jugoslaviji)

دين الفجر :

كان الفجر كغيرهم من سكان الهند القدماء يؤمنون ببعض المعتقدات الخاصة ، فكانوا يعتقدون بالاله العظيم دل Del او دفل Devel أو القوة المعطاءة الخالقة للعالم والبادية في كل مجال للعالم (السماء ، المطر ، الطبيعة . .الخ) وبالشيطان بنغ beng أو القوة الشريرة والمعارضة التي كانت قد شاركت الاولى في خلق الارض(٢٣) . الا أن الفجر ، وبما عرف عنهم من كفاءة في التكيف والتفاعل مع الاوساط الجديدة التي استقروا فيها ، سرعان ما أخذوا يعتنقون أديان الشعوبالتي اختلطوا معها ويصبحون أحيانا أشد ايمانا بها من أصحابها الاصليين(٢٤) . ومع هذا لا يخلو الامر من اتهامات خطيرة توجه أحيانا للفجر على أساس أنهم شعب لا دين له . ولكن الواقع يوضح لنا ان الفجر مثلهم مثل غيرهم من الشعوب ، بينهم المتدين الحقيقي والمتدين الظاهري، وهم يدينون عادة بالدين الرسمي للدولة التي يعيشون فيها(٢٥) .

وفيما يتعلق بحلب تجدر الاشارة هنا الى ملاحظة مهمة وردت لدى مؤرخ حلب المعروف الغزي . ففي كتابه « نهر الذهب في تاريخ حلب » يذكر الغزي عن الفجر أنهم « متى توطنوا بلدا دانوا بدين العنصر الغالب عليه »(٢٦) . ويفهم بالاستناد الى هذه العبارة ان الفجر في حلب اعتنقوا الاسلام كما في البلاد العربية المجاورة(٢٧) . ويؤكد الغزي نفسه في موضع آخر ان الفجر في حلب « مسلمون يقومون بشعائر الدين الاسلامي بتمامها فيصومون ويصلون . . »(٢٨) .

سكن الفجر :

يعتبر السكن من العناصر المعبرة عن الشخصية الخاصة بالفجر والمحافظة على هذه الشخصية في آن واحد . فالشعور بالتميز والاحساس بالحذر من الاخرين ، بالاضافة الى الرغبة الدفينة في الابقاء على « العالم الفجري »، كان يدفع الفجر في كل مكان وصلوا اليه الى العيش ضمن تجمع خاص بهم . وكان هذا « التجمع » يأخذ شكل معسكر بالقرب من المدن ، أو موقع مؤقت في ضواحي المدن . ولكن مع توسع المدن في العصر الحديث أخذت تتبلور وتتطور المحلات او الحارات الخاصة بالفجر في المدن الشرقية والبلقانية(٢٩) . ولا شك انه مما ساعد على هذا التطور ان مفهوم المدينة في الدولة العثمانية كان يقوم على التعددية الدينية والقومية ، بحيث ان كل طائفة أو قومية في المدينة العثمانية كانت تتميز بحارة أو محلة خاصة كـ « حارة اليهود » و « حارة النصارى » و «حارة الاكراد » الخ(٣٠) .

وهكذا في حلب أيضا ، كما في بقية المدن المجاورة(٣١) ، نجد للفجر حارة خاصة بهم تسمى « حارة القرباط » وتقع شرق جامع التوبة ، أي في ضاحية حلب القديمة وقلب حلب الحديثة (٣٢) . وقد وصل عدد بيوت هذه الحارة في أواخر العصر العثماني

الى (٧٩) بيتا ، وعدد سكانها الى (٣٩٢٠) نسمة كلهم من المسلمين (٣٣). وتبدو هذه الحارة ، بالاستناد الى وصف الاسدي المعاصر والمهتم بها ، كآية « حارة غجرية » اذ أن بيوتها كانت مبنية من الطين ومطلية بالكلس بينما يمر الكهريز مكشوفا وسط الشارع. الا أن هذه الحارة ، كبقية حارات حلب القديمة ، لحقها الهدم ضمن مشروع تجميل حي النيرب في الثمانينات(٣٤) .

المهن الخاصة بالفجر :

تعتبر « المهن الفجرية » من عناصر التفعيل الحضاري للفجر ، أي من العناصر التي قام الفجر بنقلها من موطنهم الاصلي (الهند) الى المواطن الجديدة التي استقروا فيها ، واشتهرو بها بين الشعوب المختلفة . وبعبارة أخرى يبدو في هذا المجال دور الفجر في التواصل الحضاري بين الشعوب في أنهم نقلوا بعض المهن من موطنهم الاصلي ونجحوا في اثارة اهتمام الاوساط الجديدة التي حلوا فيها بهذه المهن ، ولكنهم بقوا في الوقت نفسه يحتكرون هذه المهن كالتنجيم والرقص والغناء وترويض الحيوانات والحدادة وصنع بعض الادوات من الخشب (السلال والمناخل والقدور الخ) حتى أصبحت مرادفة لهم .

وتجدر الاشارة هنا الى ان ارتباط الفجر بهذه المهن انما يعود الى وضعهم الاجتماعي في الموطن الاصلي (الهند) . فقد كان نظام الطبقات في الهند القديمة يفرض على الطبقات الاجتماعية الدنيا والمنبوذين احتراف المهن التي تشمئز منها الطبقات العليا لاسباب دينية أو اقتصادية . وهكذا لو نظرنا الى قائمة المهن المحرمة والملعونة التي احتوتها « قوانين مانو » Manava Dharma Sastra التي يعود تاريخها الى القرن الاول قبل الميلاد ، لوجدنا ان الفجر قد احترفوا بالذات تلك المهن التي حرمها مانو كالتنجيم والرقص والغناء وترويض الحيوانات والحدادة الخ(٣٥). ولكن هذه المهن التي كانت محرمة وملعونة في الهند لم تعد كذلك خارج الهند ، حيث أخذ الفجر يشتهرون بها ويتعيشون منها(٣٦) .

وهكذا نجد في حلب ، كما في البلاد المجاورة ، ان الفجر قاموا بدورهم في نقل واحتكار بعض المهن التي بقيت مرتبطة باسمهم . ومن هذه المهن التي اشتهروا بها في حلب العرافة أو التنجيم . وحول هذا يذكر لنا الاسدي في « موسوعة حلب المقارنة » ان «القرباط نساء ورجالا ماهرون جدا في فتح الفال»(٣٧) . والى جانب هذا اشتهر الفجر في حلب بشكل خاص باحتراف الرقص والغناء حتى أصبحوا يعرفون باسم « المطاربة » ، أي اصحاب الطرب أو المطربون ، وذلك « لان منهم الطبال والزمار والعبلة والحجيات » كما يقول الاسدي(٣٨) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه في العراق المجاور يطلق على حي الفجر اسم « حي الطرب » لاحتراف أو احتكار الفجر لهذه

المهنة(٣٩) . وفي الواقع ان الفجر يقدرون بشكل خاص الطبول والدفوف ، التي يجيدون الضرب بها ، والتي يرجح أن تكون ذات اصل هندي(٤٠) . وبالاضافة الى هذا اشتهر الفجر في حلب ، كما في كل مكان ، باحتراف صنع المناخل والغرابيل وتجليد الطبول من شعور وجلود الحيوانات الميتة ، ولذلك اختصوا في حلب بالمتاجرة في جلود الدواب الميتة(٤١) . وهكذا في اطار حديثه عن « الصنائع في حلب » سلم الغزي بان الفجر في حلب هم الذين يختصون بهذه الصنعة (شد المناخل والغرابيل وتجليد الطبول)(٤٢) .

الفجر في نظر الغير (المحيط المحلي او الحلبي) :

لقد مر معنا ان الفجر يتميزون بنقل نمط معيشتهم من الموطن الاصلي الى المواطن الجديدة التي يستقرون فيها ، ويشتهرون باحتراف مهن معينة قد تختلف النظرة اليها من مكان الى آخر ومن شعب الى آخر . وبالاضافة الى هذا فقد تميز الفجر باستسلامهم لوضعية دونية في المجتمعات التي استقروا فيها ، والتي كانت تبقيهم في حالة غجرية متماسكة . ولاجل هذا لا يعد من المستغرب أن تتشكل صورة نمطية عند كل طرف ازاء الطرف الاخر . ولا شك ان الادب الشعبي في هذه الحالة يعتبر المصدر الغني للتعرف على الصورة النمطية التي يكونها ويحفظها كل طرف عن الطرف الاخر(٤٣) .

وهكذا نجد ان الادب الشعبي في حلب ، كما في الادب الشعبي للشعوب المجاورة ، يحفل بصورة نمطية غنية للوسط المحلي (الحلبي) عن الفجر . ان العنصر الاول في هذه الصورة النمطية يعبر عن دونية الفجر ويتمثل في المثل الشعبي « مثل شيخ القرباط : كبير في عين حالو زغير بعين الناس »(٤٤) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه من التقاليد الاساسية للفجر انتخاب زعيم أو رئيس للجماعة أو العشيرة الفجرية في كل مكان ، وهو عادة ينتخب مدى الحياة وتمتد سلطته لتشمل الجماعة أو العشيرة كلها وبذلك يمتلك الحق في فرض أية عقوبة ، بما في ذلك عقوبة الطرد ، بحق الافراد ولا يعتبر نفسه مسؤولا أمام أحد(٤٥) . وبعبارة أخرى فان سلطة الزعيم أو الرئيس مطلقة على أتباعه ولذلك يحظى بمكانة كبيرة بين الفجر ، الا أنه ليس كذلك في نظر الغير أو الوسط المحلي الذي ينظر اليه باعتباره من فئة دونية . أما العنصر الثاني في هذه الصورة النمطية عن الفجر فهو الفقر ويمثله المثل القائل « عند القرباط ما في قيمق »(٤٦) . ولا شك ان هذا العنصر ينسجم مع العنصر الاول المتعلق بالفجر كفئة وضيعة أو دونية ، الا أنه لا يعبر تماما عن واقع الحال . وقد أشار المؤرخ الغزي في وقته الى ان الفجر ليسوا متساويين في الفقر كما قد يبدو بل يوجد بينهم « الاغنياء وأهل اليسار »(٤٧) . وهكذا نجد ان « الفقر الفجري » ليس فقرا بالمعنى المعروف

دائما وانما هو يمثل أيضا نمطا معيشيا يتخلص به « أغنياء الغجر » من فضول وتطاول الوسط المحلي(٤٨) .

ويشير العنصر الثالث في هذه الصورة النمطية الى حرص أو بخل الغجر ، ويعبر عنه المثل القائل « كأنك قرباطي »(٤٩) . ولدينا ما هو أكثر من هذا اذ ان الغجر أو القرباط في حلب أغنوا اللهجة الحلبية بفعل « قَرْبَط » الذي أصبح يستعمل بمعنى « بخل »(٥٠) . ويبدو لنا ان هذا العنصر ينسجم أيضا مع العنصر الاول والثاني ، الا أنه لا يعبر تماما عن واقع الحال . فالمؤرخ الغزي ، الذي يبدو من تاريخه انه على معرفة جيدة بالغجر في حلب ، يقول في تعليقه على هذا المثل الشائع في حلب أنه « يوجد في بعضهم من السخاء ما لايوجد في كثير من الاغنياء »(٥١) . أما العنصر الرابع في هذه الصورة النمطية فيتعلق بانطباع شائع عن الغجر ويمثله المثل القائل « القرباطي ما بقول لمرتو وين كنتي ، بقول لا : اش جبتي ؟ »(٥٢) . ويرتبط هذا في الواقع بنظرة الغجر الى العمل ، وبالتحديد بدور المرأة في العمل . فالمرأة الغجرية تشتهر بانها امرأة عاملة ويعتمد دخل الاسرة كلها في بعض الجماعات الغجرية على ما تدره المرأة من ربح من الاعمال التي تمارسها . وتتجول النساء الغجريات عادة لممارسة العرافة (فتح الفال) أو بيع الادوات التي يصنعها الازواج ، كالسلال والمناخل والقدور والملاعق الخشبية الخ . ، ولذلك يهتم الغجري لحرصه على المال بسؤال زوجته عندما تعود الى البيت عما جمعته من مال طيلة النهار . ولاشك ان هذا ينسجم مع العنصر الثالث للصورة النمطية عن الغجر ، الذي يتعلق بحرص أو بخل الغجر ، ولكنه بالطبع لا ينسجم مع نظرة الوسط المحلي لخروج المرأة من البيت للعمل بهذا الشكل .

* * *

الحــواشي :

(١) من مقدمة لطفي الخوري للترجمة العربية لكتاب :
Jean-Paul Clebert, **The Gypsies**, London 1963.
جان ـ بول كليبير ، الغجر ـ دراسة تاريخية اجتماعية فولكلورية ، ترجمة لطفي الخوري ، بغداد ، وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨٦ ، ص ١١ .

(٢) من مقدمة محمد كمال ل « موسوعة حلب المقارنة » ج١ ، حلب ، جامعة حلب ،ص ج.

(٣) ف. هايد (W. Heyd) تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ج١، ترجمة احمد محمد رضا ومراجعة د. عز الدين فودة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص١٣ .

(٤) Nëpër rrugët e mëndafshit « Bashkimi » , Tiranë 30. 11. 1990, f. 8.

(٥) للتوسع حول هذا انظر نماذج من هذه الحالات (النموذج الافاري ، النموذج الهنغاري ، النموذج الغجري) لدى :
برومليه ـ بودولني ، الاثنوس و التاريخ ، ترجمة طارق معصراني ، موسكو ، دار التقدم ، ١٩٨٨ ، ص ٢١٨ ـ ٢٣٠ و ٢٥٠ ـ ٢٥٤ .

(٦) انظر الخرائط .

(٧) يميل معظم العلماء الى تحديد القرن التاسع كبداية لتحرك الغجر نحو الغرب بينما يذهب الباحث المعروف كليبر الى تحديد سنة ١٠٠٠م كتاريخ مناسب : كليبير ، ص ٤١.
Muslim Peoples, A World Ethnographic Survey, edited by Richard V. Weekes, London 1986, pp. 305 - 306; Jean - Pierre Liegeois, **Gypsies**, London 1986, pp. 36-38 .

(٨) تشير الوثائق المكتشفة حتى الان أن الغجر وصلوا الى صربيا قبل سنة ١٣٤٨م والى راغوصة (دوبرو فنيك) سنة ١٣٦٢ ، والى كرواتيا سنة ١٣٧٨م والى وسط ألمانيا (هلدزهايم) سنة ١٤٠٧ م والى سويسرا (بازل) سنة ١٤١٤ والى بلجيكا (بروكسل) سنة ١٤٢٠ وفرنسا سنة ١٤٢١ :
Rajko Djuric, **Seobe Roma**, Beograd 1987, s. 40-41; Liegeois, **Gypsies**, pp. 38-41.
وانظر أيضا : كليبر ، ص ٤٩ ـ ٥٣ .

(٩) هناك خلاف بين الباحثين حول « السنجق الغجري » . فأنالجيك وسرت أوغلو مثلا يعتبران أن هذا السنجق لم تكن له حدود أرضية كبقية السناجق بل كان يشمل الغجر في استنبول وبلاد البلقان . أما ت غكبلغين T. Gekbilgin فيعتبر أن هذا السنجق كان له مركز كبقية السناجق (كرك كليسه أو لوزن غراد Lozengrad في بلغاريا الان) :
Djuric, s. 46; Tatomir Vukanovic, **Romi (Cigani) u Jugoslaviji**, Vranje, 1983, s. 44.

(١٠) M. Mujic , « Polozaj Cigana u jugoslovenskim zemljama pod otomanskom vlascu », POF III-IV, Sarajevo 1953 , s. 146-155.

(١١) تتميز « الحضارة » الغجرية بكونها حضارة حرفية اذ أن الغجر يميلون الى الحرف ويأنفون من الفلاحة ،ولذلك يعتبرون أنفسهم أرقى من الاخرين . وتجدر الاشارة هنا الى أن الغجر يطلقون على غيرهم اسما مشتركا يدل على استعلائهم ألا وهو «كاجو» gadjo الذي يعني « الفلاح » أو « المزارع » : كليبر ، ص ٩ .

(١٢) انظر كنموذج لذلك الادب الشعبي للغجر ، حيث تبدو مثلا « الاضافات » العربية ــ الاسلامية التي لحقت بهذا الادب خلال تنقله من الهند الى أوربا :
قصص شعبية غجرية ، ترجمة وتقديم د. محمد موفاكو ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٩ .

(١٣) عبد الله يوركي حلاق ، حلبيات ، حلب ١٩٨٣ ، ص ٦٧ ــ ٧٥ ، أندريه ريمون ، العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية ، تعريب قاسم طوير ، دمشق ، دار المجد ، ١٩٨٦ ، ص ٣٧ ، عبد الفتاح رواس قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٩ ، ص ٥٢ .
J.M. Wagstaff, The Evolution of The Middle Eastern Landscapes, London 1985, p. 196.

(١٤) القس جبرائيل رباط الرومي الملكي ، حلب ومنطقتها ، تعريب فتح الله قسطون ، حلب ١٩٢١ ، ص٣٦ ، قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، ص ٣٠٠ .
Bayard Taylor, The Land of the Saracen, New York 1855, reprint Arno Press 1977, p. 208; Abdul - Rahman Hamide, La ville d'Alep, Paris 1959, p.13-14.

(١٥) Hamidé, p. 14

(١٦) د. مصطفى جواد ، الغجر في المراجع العربية مجلة « العربي » ، عدد ١٢٦ ، الكويت أيار / مايو ١٩٦٩ ، ص ٣٥ــ٤٠ .

(١٧) Djuric, s,34.

(١٨) Ibid.

(١٩) المصدر السابق ، ص٣٤ . ولكن هذا لا ينفي وجود أسماء أخرى مشهورة أكثر للغجر في هذه البلدان . ففي البانيا مثلا اشتهروا باسم Jevgjët المنحدر من اسم مصر Egjipt وباسم arrinjgji للدلالة على ممارستهم ترويض وترقيص الدببة ، وهي المهنة التي اشتهروا بها في بلاد البلقان بشكل عام .

(٢٠) في باكستان على سبيل المثال يطلق الوسط المحلي على الغجر اسم « جات » ، وهو في الاصل اسم لعشيرة غجرية يعتقد أنه انحدر منها اسم « زط » في العربية ، الا أن الغجر هناك يرفضون هذا الاسم لانه يعتبرونه يحمل المذلة لهم ، ولذلك يفضلون مثلا تسمية انفسهم ب « القرباط » : Djuric, s. 35.

(٢١) خير الدين الاسدي ، موسوعة حلب المقارنة ج١ ، ص ٢٤ .

(٢٢) Djuric, s. 20.
وانظر أيضا : كليبر ، ص ٣٧ .

(٢٣) Djuric, s. 31-33.
وانظر أيضا : كليبر ، ص ٢٣٠ ــ ٢٣٣ .

(٢٤) كليبر ، ص ٣٨ .

(٢٥) دكتور نبيل صبحي حنا ، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الغجر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ ، ص ٣٨ ــ ٣٩ .

(٢٦) كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي الشهير بالغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٢ ، حلب ، المطبعة المارونية ، ١٣٤٢ هـ ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .

(٢٧) طه حمادي الحديثي، الغجر والقرج في العراق الموصل ١٩٧٩ ، ص ١٢ .

(٢٨) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .

(٢٩) « مع القدوم الجماعي للغجر في المناطق السلافية (شبه جزيرة البلقان) ، وبعد فتح الاتراك لاراضي البلقان ،نشأت ظاهرة عمرانية تاريخية مهمة : تجمع الغجر في حارات خاصة . ففي العصر الاقطاعي القروسطي كان الغجر يعيشون بشكل مختلط مع بقية السكان سواء في المدن أو في الريف ... أما في العصر التركي ، وحيثما وصلت سلطة الامبراطورية العثمانية ، فقد أصبح الغجر يعيشون في حارات خاصة . ومن المؤكد أن التجمع العمراني للغجر قد وفر لهم مزايا تاريخية واجتماعية واتنية اذ انه حافظ على كليتهم الغجرية (اللغة والعقلية) ...» :
Vukanivic, s. 88-89 .

(٣٠) ريمون ، ص ٧١ .

(٣١) الحديثي ، ص ٥٢ ـ ٥٨ .

(٣٢) لقد ورد ذكر الغجر gpsies في هذه المنطقة ـ المحلة خلال « انتفاضة حلب » سنة ١٨٥٠ :
Syria and Egypt under the last five sultans of Turkey , edited by E.B.B. Barker. vol.2, London 1876, reprint Arno Press 1973, p. 291 .
وفي الواقع لقد أقيمت هذه الحارة بين جامع التوبة وباب النيرب ، أحد أبواب حلب الذي سمي بهذا الاسم لانه كان يفضي الى قرية النيرب القريبة . ولكن مع الزمن توسعت حلب كثيرا خارج الابواب وأصبحت « حارة القرباط » في قلب المدينة الحديثة :
قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٣٣) الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

(٣٤) خير الدين الاسدي ، أحياء حلب وأسواقها، حققه وزد عليه وقدم له عبد الفتاح رواس قلعهجي ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٤ ص ٧٠ .

(٣٥) جاء في هذه القوانين ما يلي : « من الضروري الاحتراس من محترفي المهن الوضيعة هؤلاء الذين يمتهنون الشعوذة (مادة ٨ فقرة ١٠٢) وقراء الطالع والحظوظ والكف (مادة ٩ فقرة ٢٨٥ و ٢٥٩) ومربي الكلاب التي تدرب لعرض ألعابها على الناس (مادة ٣ فقرة ١٦٤) وكذلك الراقص المحترف (مادة ٣ فقرة ١٥٥) وتجنب اللعب بالنرد والرقص والغناء والعزف على الالة الموسيقية (مادة ٧ فقرة ٤٧) ... ولا يجوز للبراهمي تناول طعام من يشتغل بالمعادن حتى ولو كان صائغا للذهب أو للفضة (مادة ٤ فقرة ٢١٥) ...» . :
كليبر ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٣٦) بسبب هذه المهارة حظي الغجر بدخول قصور ملوك أوربا . فقد كان للملك الانكليزي جورج الرابع عرافة غجرية ، كما كانت لملكة اسبانيا عرافة غجرية ، أما قياصرة روسيا فقد كانوا كلهم يعتمدون علىعرافات غجريات:
J. A. Hammerton, **Lands and Peoples of the world,** vol . V , Delhi (India) , pp. 1907-1911.

(٣٧) الاسدي ، ج٦ ، ص ١٦ .

(٣٨) الاسدي ، ج٧ ، ص ١٣٨ .

(٣٩) الحديثي ، ص ٥٨ . ويسوق لنا الحديثي (ص ١١٨ ـ ١١٩) احصائية مدهشة تبين أن عدد المشتغلين في الرقص والغناء من الغجر في العراق يبلغ ١٤٤٧ فنانا من الذكور والاناث ، أي بنسبة تساوي ٨ر٨١٪ من مجموع « القوى المنتجة للغجر » .

(٤٠) كليبر ، ص ١٩٩ .

(٤١) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

(٤٢) الغزي ، ج١ ، ص ١١٠ .

(٤٣) انظر على سبيل المثال الصورة النمطية للعربي كما تبدو في الادب الشعبي الغجري : قصص شعبية غجرية ، ص٢٩ـ٣٠ .

(٤٤) الاسدي ، ج٥ ، ١١٦ .

(٤٥) كليبر ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٤٦) الاسدي ، ج٦ ، ص ١٧٠ .

(٤٧) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

(٤٨) يشعر الغجر بحق أنهم ملاحقون دوما بأنظار المجتمع المحلي ، الذي « يستكثر » عليهم أي شيء . ومن هنا فقد برز مثلا في مصر المثل القائل « حاسدين الغجر على ضل الشجر»:
حنا ، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الغجر ، ص ٤١١ .
ولذلك فان مظهر الفقر يحمي « أغنياء الغجر » في هذه الحالة من فضول وتطاول المجتمع المحلي .

(٤٩) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

(٥٠) الاسدي ، ج٦ ، ص ١٧٠ .

(٥١) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

(٥٢) الاسدي ، ج٦ ، ص ١٧٠ .

(٥٣) حنا ، ص ٣٦ .

صفحات مـن تاريخ الجمعيات في بـلاد الشام

جمعية الجامعـة العربيـة

د. سهيلة الريمـاوي
الجامعة الاردنية

جمعية الجامعة العربية ، تنظيم سياسي سري ، يقع في نطـاق التنظيمات ، السرية والعلنية، التي أسسها العرب العثمانيون في الامبراطورية العثمانية بعد «انقلاب ١٩٠٨ الحزبي » ، والذي يعرف باسم الانقلاب الدستوري أو انقلاب « المشروطية » ، واكراه السلطان عبد الحميد على اعادة اعلان « المشروطية » ليصبح الحكم مقيدا ، أو مشروطا بمراعاة أحكام القانون الاساسي تحت مراقبة مجلس الامة .

وتسميتنا لهذا الانقلاب ، بالانقلاب الحزبي ، ترجع لعدة أسباب منها :

ان هذا التغيير الكبير في طبيعة نظام الحكم تحقق نتيجة « انقلاب » قام به أعضاء حزب سري هو حزب الاتحاد والترقي ، أو جمعية الاتحاد والترقي ، أعـاد الحيـاة الدستورية ، واتاح قيـام نظـام برلماني نشيط وحياة حزبيـة علنية ومشروعـة في الامبراطورية من جهة ، وتوج انتصارا حزبيا أقام « حكما حزبيا » بعد أقل من سنة (١٩٠٩) بعد أن تمكن من خلع السلطان عبد الحميد اثر الانقلاب المضاد ، وتعرض للاحزاب القائمة في الامبراطورية آنذاك بما وضعه من تشريعات دستورية وقانونيـة تتعلق بحرية تكوين الجمعيات السياسية التي تشمل الاحزاب ، وبمـا يترتب على سياسته العامة ، وبصفة خاصة ، تجاه القوميات وحقوقها وتنظيماتها الحزبية ، من نتائج . وقد شجع هـذا الوضع الحزبي أبنـاء القوميات الاخـرى على تأسيس الاحزاب ، فأخذت قوميات « الرعية » العثمانية تؤسس الاحزاب ، وتضع لها النظم الاساسية . ويقول الاعظمي انه تأسس في أنحاء الامبراطورية أكثر من ثلاثمائة حزب(١). وهكذا أصبحت مسألة التنظيم السياسي ، احدى أهـم المسائل التي فرضها واقـع الامبراطورية العثمانية الحزبي ، والوطن العربي جزء منه .

وكان رواد القرن التاسع عشر من المفكرين والدعاة العرب قـد طرحوا قضـية الجمعيات السياسية بعد أن أسسوا الحلقات العلمية والجمعيات الخيرية والادبية . وفي أواخر القرن التاسع عشر حدث (تطور ايجابي) لهذه الجمعيات العلمية أدى الى مد الجسور نحو فكرة تأسيس الجمعيات السياسية ، فتصور بعضهم وجود مثـل هذه الجمعيات كما فعل الكواكبي في كتابه أم القرى عندما ناقش حالة « الفتور » التي أصابت العرب والمسلمين(٢) « وشخص » أسبابها من خلال مناقشة أعضاء الجمعية

(الوهمية) لهذه الحالة ، والبعض الاخر دعا صراحة لتأسيس التنظيمات السياسية بل وساهم في تأسيسها مثل رشيد رضا(٣) ومحب الدين الخطيب(٤) ورفيق العظم(٥) وغيرهم ، حتى كان الانقلاب الحزبي ١٩٠٨ .

الواقع الحزبي غداة الانقلاب العثماني :

أصبح الواقع الحزبي غداة الانقلاب العثماني يتكون من حزب حاكم هو حزب الاتحاد والترقي ، في مواجهة ثلاثة أحزاب أخرى كانت قائمة في الامبراطورية قبل الانقلاب ، واعلنت عن وجودها بعده ، وهي :

- حزب التشبث الشخصي واللا مركزية الادارية ، وفيه قلة من العرب ورئيسه الامير صباح الدين .
- جمعية الشورى العثمانية ،وأكثريتها من العرب ورئيسها الشيخ رشيد رضا.
- جمعية النهضة العربية ، وأعضاؤها من العرب فقط ورئيسها محب الدين الخطيب .

وقد انطلقت هذه الاحزاب من عقالها باعلان الدستور وشاركت جمعية الاتحاد والترقي احتفالاتها ، ولكن الوضع تطور سريعا وجذريا خلال السنوات العشر من حكم الاتحاديين وذلك تبعا للصراع الذي كان يدور في الامبراطورية العثمانية حول محورين رئيسيين :

- محور الاستبداد في صورته الجديدة . اذ حكم الاتحاديون حكما استبداديا مقنعا بالدستور ، مما أدى الى عدم المساواة بين المواطنين .
- محور القوميات وتشبثها بالمساواة في الحقوق السياسية القومية .

وكانت سياسة حزب الاتحاد والترقي الحاكم تجاه هذين المحورين ، وخططه في تنفيذ هذه السياسة ، من العوامل الحاسمة في تطور تأسيس الاحزاب والحياة الحزبية في الامبراطورية العثمانية ، فمن ناحية أصبحت مشكلة القوميات مطروحة بصورة أكثر وضوحا وحدة ، بعد أن جاء استلام جمعية الاتحاد والترقي للحكم انتصارا لمبدأ التسلط القومي التركي المركزي المقنع بقناع وحدة الامبراطورية والحفاظ على الخلافة . ومن ناحية اخرى ، جاءت المادة الرابعة من الدستور مخيبة لآمال العرب وغيرهم من القوميات ، فنصت : « يمنع تأسيس الجمعيات والنوادي والصحف بأسماء قومية » . وعندما عرضت على التصويت في مجلس المبعوثان حصلت على أكثرية الاصوات بنسبة (٦٠ ضد ٤٠)(٦) .

أسس العرب جمعياتهم بشكل سري وفي مقدمتها الجمعية القحطانية وجمعية العربية الفتاة السرية(٧) وغيرها ، كما ألفوا عدة جمعيات علنية في مقدمتها حزب اللا مركزية الادارية العثماني ، وأصبح النادي العربي يسمى بالمنتدى الادبي ، وكان ملتقى جميع التيارات الفكرية العربية بما يشبه « الجبهة » في وقتنا الحاضر ، وكان الطابع العام لهذه الجمعيات السياسية ، السرية منها والعلنية ، هو طابع الاصلاح في الامبراطورية . غير ان سياسة الاتحاديين المتزمتة ، وضعف الدولة أمام هجمات الاوروبيين على ممتلكات السلطان في افريقيا ، وسقوط طرابلس الغرب بيد الايطاليين وانفصال البلقان واعلان استقلاله ، كل ذلك أدى الى قطع خيط التفاهم الرفيع بين العرب والاتراك ، ولجوء العرب الى تأسيس جمعيات سياسية سرية في مواجهة هذا الضعف العام للامبراطورية ، كان من أشهرها جمعية العهد العسكرية(٨) وجمعية الجامعة العربية .

جمعية الجامعة العربية :

رائد تأسيس هذه الجمعية السرية هو الشيخ رشيد رضا ، الذي ولد في سورية سنة ١٨٦٥ في منطقة القلمون وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٣٥ . ومن أبرز أعضائها محب الدين الخطيب ، ورفيق العظم .

هاجر الشيخ رشيد رضا الى مصر ، هربا من استبداد السلطان عبد الحميد وبطشه في أواخر القرن التاسع عشر ، وأسس مجلة المنار في أواخر عام ١٨٩٧ فاحتلت مكانا مرموقا بين المجلات العربية والاسلامية ، وأصبحت أكثرها جراة في تحدي الاستبداد ، بالمقالات التي نشرتها وحملتها عناوين جديدة بالنسبة لصحافة ذلك العصر ، وعالجت مشكلة الخلافة ، ومشكلة الدين والدولة ، وطالبت باستعادة مجد العرب ، وقارنت بين العرب والترك ... الخ .

وفي المجلد الاول للمنار (فاتحة العدد ٣٩) اقترح الشيخ رشيد رضا تشكيل جمعية دينية توحد المسلمين ، على أن تكون مكة المكرمة مقرها ، ويبرر صاحب المنار تفضيله مكة على (دار الخلافة) بعدة أسباب ، منها تجمع المسلمين في مكة أثناء تأدية فريضة الحج وبعدها عن دسائس الاجانب(٩) .

وطالب رشيد رضا بتعميم اللغة العربية في الدولة العثمانية ، وطالب الخليفة العثماني أن يكون البادىء في هذا التوحيد ، وذكر عدة أسباب ترجح اللغة العربية على اللغة التركية في وجوب تعميمها ، أولها : انها لغة القرآن الكريم ، ويقول : « .. ان لغة الدين تجمع قلوب المسلمين ويفهمها أكثر علماء الدين في الاقطار الاسلامية(١٠) » .
كما طالب بالاستقلال بعدة مقالات نشرها تباعا في المنار تحمل عنوان «استنهاض امم»

شرح فيها الاستقلال وبين الفرق بين الاستقلال السياسي والاستقلال الجنسي،بقوله: « اما الاستقلال السياسي فهو أن تحكم الامة نفسها بنفسها »، والاستقلال الجنسي هو « ان تحافظ الامة على لغتها ودينها »(١١) .

واسس الشيخ رشيد رضا في سنة ١٩٠٦ جمعية الشورى العثمانية في مصر، وفتح أبوابها لجميع العثمانيين، عربهم وتركهم والبانهم .. الخ . وكان أعضاء هذه الجمعية على صلة بالاحرار العثمانين في استامبول وبقية البلدان عن طريق المنشورات التي كانت تدخل البلاد بوساطة البريد الاجنبي العائد للسفارات الاجنبية : وكان مصونا من المراقبة بسبب الامتيازات الاجنبية(١٢) وافتتحت الجمعية الفروع في انحاء الامبراطورية ومنها اليمن(١٣) .

وفي المجلد العاشر من مجلة المنار (١٩٠٧) نادى الشيخ رشيد رضا بصورةعلنية بضرورة تشكيل الجمعيات السياسية، « فهي التي طهرت اوروبا من استبداد الملوك والبابوات » وعلل نداءه بتأييده لعلماء الاجتماع الذين ينادون بتأليف الجمعيات، وفي رأيه : « لا ترتقي امة الا بعد ان تنبه حوادث الزمان افرادا من اولي الالباب فيها الى وجوب السعي لترقيتها ورفعة شأنها، وأول ما يجب عليهم هو تأليف الجمعيات للتعاون على ما يجب القيام به من الاعمال . ويؤكد رشيد رضا في مقالاته التي تحمل عنوان : « منافع الاوروبيين ومضارهم في الشرق » الى « ان الجمعيات هي السبب الاول والعلة الاولى لكل ارتقاء » ويضرب المثل بأوروبا حين يقول : « بها (أي بالجمعيات) صلحت العقائد والاخلاق في اوروبا وبها صلحت الحكومات وبها ارتقت علومها وفنونها »(١٤) .

وقد حاول احمد رضا بك ضم جمعية الشورى الى جمعية الاتحاد والترقي بعد الانقلاب فأبى مجلس الادارة ذلك . وأخذت جمعية الاتحاد والترقي تطارد الجمعيات القائمة آنذاك، ومنها جمعية الشورى العثمانية، حتى تمكنت من حلها واستقطبت بعض اعضائها، وبدأت تتبع سياسة التتريك العنصرية المعروفة .

نشأة جمعية الجامعة وظروف تاسيسها :

ويمكننا تحديد تاريخ نشوء الجمعية، منذ أن كانت فكرة تدور في رأس مؤسسها حتى صدور نظامها الاساس، من كتابات الشيخ رشيد رضا، في مجلة المنار، وبمقدمة كتاب « مجموعة اثار رفيق العظم »، ثم بالاستناد الى ما أشار اليه الاستاذ محب الدين الخطيب في مذكراته المخطوطة . ويقول الشيخ رشيد رضا ما معناه : انني على اشتغالي الاساسي بالاصلاح الاسلامي العام كنت اسعى مع بعض

احرار العثمانيين من الترك وغيرهم لاصلاح الدولة العثمانية ، ولما اعلن فيها الدستور تجدد الرجاء لجميع الشعوب العثمانية بحياتها ونهضتها بالدولة فكنت أبث في الشعب العربي العثماني أنه : « يجب أن يوجه استعداده ليكون عضوا رئيسيا كالترك في الدولة ينهض بها وتنهض به » . ثم يقول : ذهبت الى الاستانة للسعي لدى الدولة فيما تحيا به ويحياه الاسلام وتتحد العرب أتم الاتحاد ، وبعد معالجة العمل سنة كاملة اقتنعت بان هذه الدولة غير مستعدة للبقاء وان انحلالها بايدي رجالها من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضربة لازب ، وان العرب اذا لم يؤسسوا بانفسهم لانفسهم بناء للاستقلال القومي فلا بد من سقوطهم بسقوطها ان لم يسقطوا قبلها بسعيها(١٥). ويقول في مكان اخر « عرفت الشريف عبد الله في الاستانة سنة ١٣٢٨هـ الموافق سنة ١٩١٠م »(١٦) . وفي مكان ثالث : « عرفت في الاستانة نجله عبد الله (الكلام علي الحسين بن علي) وكنا نشتغل في ذلك الوقت بتكوبن الجامعة العربية فرأيت منه ميلا اليها ورغبة في تأييدها فتعارفنا وتواعدنا على ذلك وعقدنا رابطة المودة »(١٧) . ويذكر أيضا: ان هذه الجمعية هي اخر الجمعيات التي اشترك في تأسيسها مع رفيق العظم ... « وكان الملجيء اليها انكسار الدولة العثمانية في حرب البلقان » ويضيف : « ووضعت الجمعية نظاما ولم يقنع رفيق العظم بضرورة هذه الجمعية الا بعد أن رأى من انكسار الدولة في حرب البلقان ما أقنعه بأن ليس لها من القوة الذاتية مايضمن بقاءها وانها عرضة للزوال فجأة اذا صدمتها صدمة أخرى(١٨) .

مما تقدم يتضح لنا ان فكرة تكوين جمعية الجامعة العربية نبتت في الاستانة بعد الانقلاب الدستوري وعلى الارجح سنة ١٩١٠ ، أما تاريخ تأسيسها فيمكن تحديده ما بين سنة ١٩١٢ و ١٩١٣ ، أي بعد الحروب البلقانية وسقوط طرابلس الغرب بيد ايطاليا ، ويظهر أن رفيق العظم لم يقتنع بتأسيس هذه الجمعية،لانه كان يؤسس حزب اللامركزية الادارية العثماني العلني في القاهرة ، وكان الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب من أعضائه المؤسسين .

أما بالنسبة لنشاط الجمعية ، فيلقي الشيخ رشيد رضا ضوءا في مجلة المنار على هذا النشاط في كلامه على الشريف عبد الله بن الحسين وزيارته لمصر وهو في طريقه الى الاستانة لحضور جلسة مجلس المبعوثان فيقول : نزل ضيفا في قصر عابدين كعادته ، وكانت المودة قد رسخت بيني وبينه ، فزرته في عابدين ضحوة يوم الجمعة ١٧ شعبان سنة ١٣٣٢ الموافق ١٠ يوليو سنة ١٩١٤ وكتبت عقب الزيارة في مذكرتي ما نصه : « دخل الشريف في الجامعة العربية وحلف اليمين الكبرى كتبتها له بورقة وقرأها على سبيل الانشاء كما قال »(١٩) .

هذه الدلالات توصلنا الى النتائج التالية :

ـ ان تأسيس الجمعية تم في مصر بعد عودة الشيخ رشيد رضا من الاستانة .

ـ ان الشيخ رشيد رضا وضع نظاما أساسيا للجمعية قبل انتهاء حرب البلقان.

ـ ان الجمعية كانت قائمة ونشطة بعد انتهاء حرب البلقان فعلا بدليل انها كسبت من الاعضاء رفيق العظم ثم الشريف عبد الله سنة ١٩١٤ .

أسباب تأسيس الجمعية وغاياتها ومبادئها :

لم نعثر على دستور هذه الجمعية أو نظامها الاساسي الذي ورد في أقوال الشيخ رشيد رضا السالفة ، وأنه وضع قبل ان ينضم رفيق العظم اليها ، فمجلة المنار لم تذكر شيئا عن تفاصيل هذا النظام . غير ان الاستاذ محب الدين الخطيب واحسان الجابري اكدا بأنه كان للجمعية عند تأسيسها نظام أساسي مختصر هو في جوهره تأكيد الالتزام بالعمل لجمع قلوب الامراء والمنظمات العربية ولذلك سميت « الجامعة العربية »(٢٠) . ولكن ما كتبه مؤسس الجمعية الشيخ رشيد رضا عنها في المقدمة التي وضعها لكتاب « مجموعة اثار رفيق العظم » أو في مجلة المنار التي كان يصدرها في القاهرة يوفر لنا المادة اللازمة لاستخلاص الاسباب الدافعة لتأسيسها وتحديد أهدافها ومبادئها . يقول :

« كان اخر الجمعيات السرية التي اشتركنا في تأسيسها (يعنى هو ورفيق العظم) جمعية عربية أسست للتأليف بين امراء جزيرة العرب ، وللتعاون والاتفاق بين الجمعيات السياسية التي انشئت في الولايات العربية وفي الاستانة لمقاومة تعصب الاتحاديين، وضغطهم على العرب ، ولحفظ حقوق العرب في الدولة والعمل لمستقبلهم» ويؤكد رشيد رضا في أكثر من مكان ، ان تأسيس هذه الجمعية كان ضروريا بقوله: كان تأسيس هذه الجمعية ضروريا لان آفة العرب المفسدة لجميع مواهبهم الفطرية هي التفرق والاختلاف وكان الملجىء اليها انكسار الدولة العثمانية في حرب البلقان والخوف على البلاد العربية ان تتخطفها الدول المستعمرة ، فرأى المؤسسون ان قوة العرب في جزيرتهم وانها لا يمكن الانتفاع بها الا بتأسيس اتحاد حلفي يجمع بين امرائها وكان قد سبق لهذا تمهيد من بعض المؤسسين ثم وضع له النظام الذي يرجى تنفيذه. واما الجمعيات العربية فكانت مختلفة المقاصد وليس بينها من التعارف والاستعداد للاتحاد عند الحاجة ما يؤمن معه سوء المغبة ويرجى به حسن العاقبة فوضعت الجمعية نظاما لذلك(٢١) .

ويصوغ الشيخ رشيد رضا الغرض من تأسيس هذه الجمعية بصيغة محددة فيقول : « أما جمعية الجامعة العربية التي اسسناها بعد عودتي من الاستانة فكان الغرض الاول منها أمرين : أحدهما السعي لاتحاد حلفي بين أمراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق ، والثاني: التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها ، وللتعاون بين الجمعيات العربية في سوريا والعراق وغيرهما »(٢٢) .

وهو هدف يؤكد رشيد رضا انه « كان ضروريا » يقتضي تأسيس هذه الجمعية لان مؤسسي الجمعية كانوا يرون بوضوح الحقائق التالية القائمة حينئذ في الحياة السياسية العربية وهي :

١ ـ ان آفة العرب المفسدة لجميع مواهبهم هي التفرق والاختلاف ، وهذا في رأينا يدل على بعد نظرهم .

٢ ـ ان السبب المباشر في الاقدام على تأسيس الجمعية هو الخوف على البلاد العربية ان تتخطفها البلاد المستعمرة بعد ان ظهر هذا الخطر للعيان في حرب البلقان ، وضياع طرابلس الغرب .

٣ ـ ان قوة العرب في جزيرتهم وانه لا يمكن الانتفاع بهذه القوة الا بتأسيس اتحاد حلفي يجمع بين امراء هذه الجزيرة .

٤ ـ ان الجمعيات العربية كانت مختلفة المقاصد بعيدة عن التعارف والاستعداد للاتحاد بصورة خطيرة تتطلب بذل الجهد لتوحيدها بتأسيس جمعية جديدةذات نظام جديد يستوعب تلك الجمعيات ويتخطاها ، وهذا السبب ـ في رأيي ـ هو الذي حمل بعض مفكري العرب الى الدعوة الى قيام « حركة عربية واحدة » تتخطى الجمعيات القائمة وتستوعبها(٢٣) .

القسم :

قسم الجمعية هو الوثيقة الوحيدة التي عثرنا عليها مما يتصل بمرحلتها الاولى، اورده الشيخ في المجلد ٣٣ من المنار عندما تعرض لبعض نشاطاته في تكوين الجمعية وفي ضم الامير عبد الله بن الحسين الى عضويتها ، وهذا نصه :

« اقسم بالله العظيم القهار ، المنتقم الجبار ، العالم بسري وعلانيتي ، القادر على سلبي كل ما اعطاني من المواهب والقوى ، وبكتاب الله المجيد ، انني ابذل جهدي وما فيوسعي لجمع كلمة العرب والتأليف بين امرائهم وتأسيس ملك جديد لهم بحسب القواعد التي وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية التي انتظم في سلكها اليوم وانني اسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والاخلاص وانني لا ابخل فيسبيل ذلك بمالي ولا بنفسي ولا يلفتني عنه هواي وحظي الشخصي ولا حظ احد من أهلي وولدي وانني احافظ على مقاصد الجمعية واسرارها باشد ما احافظ علىديني وشرفي وعرضي فلا افشي لها سرا ولا أعارض لها عملا ولا أقول قولا ولا أعمل عملا يخالف مقاصدها أو يحدث فيها خللا أو يوقع فيها فشلا لعلة من العلل ولا لسبب من

الاسباب وانني أقوم بكل عمل يكلفني اياه مركزها العام من مقاصد هذه الجامعة أو وسائلها بحسب استطاعتي .

عليّ عهد الله وميثاقه لأبرنّ بقسمي هذا بلا تأويل ولا عذر ولا كفارة وان حنثت بشيء مما تضمنه أو غدرت أو أفشيت سرا أو قلت أو فعلت ما يضر هذه الجامعة أو أحدا من العاملين لها أو يخل بشيء من أعمالها أو يخالف شيئا من مقاصدها فعلي اثم من حقر اسم الله ونبذ كتاب الله وبريء من الدين والشرف ومن ذمة العرب وأستحق انتقام الله ولعنته ولعنة الملائكة والناس أجمعين وانتقام الجامعة العربية وكل من يغار على ملته وأمته وكان من الخائنين الملعونين الى يوم الدين والله على ما أقول وكيل وشهيد »(٢٤) .

ولعل أهم ما في هذا القسم تحديده لهدف الجمعية بصورة واضحة هي « جمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم » . وباشارة صريحة الى تأسيس « ملك جديد » للعرب . ولكننا لا نجد ما يدل على القواعد التي وضعتها الجمعية من أجل تأسيس هذا الملك الا اذا اعتبرنا أن الدستور الذي أشرنا اليه آنفا ، يحتوي على هذه القواعد .

تطور جمعية الجامعة العربية في عهد الحكم العربي ـ الفيصلي :

أدت التطورات الكبيرة التي لحقت بالقضية العربية خلال الفترة بين تأسيس جمعية الجامعة العربية وبين قيام العهد العربي ـ الفيصلي الى تطور كبير طرأ على هذه الجمعية ، وشمل اسمها ، الذي أصبح « الوحدة العربية » ، كما شمل دستورها وقسمها . فصدر الدستور المعدل في وثيقة وجدناها بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب بعنوان « ما يجب معرفته على كل عربي وعربية . . مبادىء أساسية » . أما القَسَم المعدل فقد نشرته مجلة المنار(٢٥) وسأذكر نصه فيما بعد .

تتكون هذه الوثيقة من مقدمة ومتن يضم خمسة فصول هي حسب ترتيبها :

ـ جمعية الوحدة العربية ـ مبادئها الاساسية الاربعة .

ـ واجبات أعضائها .

ـ ما يجب أن يعرفه العربي .

ـ العرب والثقافة .

ـ شعار دعاة الوحدة العربية .

أما المقدمة فانها تبرز ثلاث نقاط جديرة بالانتباه :

الاولى : مخاطبة كل عربي وعربية في مختلف الاقطار العربية وتقديم الكراسة اليه ، وفي هذا تعبير واضح عن الشمول القومي المتميز للجمعية .

الثانية : تحديد مضمون ذلك الخطاب بأنه القضية العربية التي ترجو الجمعية من كل عربي وعربية في مختلف أقطار العرب أن يقرأ كراستها المقدمة اليه من أجل : « تكوين فكرة صحيحة عن حقيقة القضية العربية وأهدافها وعن بعض ما يجب أن يعرفه كل عربي عنها وعن واجباته نحوها » .

وفي استعمال تعبير « القضية العربية » دلالة واضحة على الشمول القومي للاهداف التي تعتبر عناصر تكون قضية واحدة هي القضية العربية .

الثالثة : الاخذ بأسلوب جماهيري متميز يبدو في رجاء الجمعية وهي تطرح كراستها « أن يتفضل كل من يقرأها بتقديمها الى صديقه أو جاره بعد الانتهاء منها» الى آخر المقدمة .

وأما المتن بفصوله الخمسة فانه يشتمل على مبادىء الجمعية الاساسية وعلى أهدافها وعلى معالم منهاجها في العمل ، بالاضافة الى كثير من الافكار المتناثرة بين الفصول الخمسة التي يمكن أن نقول بأنها ، بمجموعها ، تكون فلسفة هذه الجمعية أو عقيدتها ، وعلى الاخص ما ورد في الفصل الثالث المسمى «.ما يجب أن يعرفه العربي» .

وعلى الرغم من أنه يبدو من عنوان الفصل الثاني من الدستور المعدل ، المسمى « واجبات الاعضاء » ، انه فصل ينحصر في تحديد واجبات الاعضاء ، الا أن عددا كبيرا من مواده السبع عشرة لا يقع في نطاق تحديد واجبات الاعضاء ، بل في نطاق الافكار والمبادىء والاهداف .

تفتتح الجمعية دستورها بتأكيد أربعة مبادىء تعدها المبادىء الاساسية :

١) تعريف الامة العربية وتعريف الوطن العربي وتحديد من هم العرب .

٢) تأكيد وحدة الوطن العربي ووحدة الامة العربية ورفض التجزئة .

٣) رفض الاستعمار بجميع أشكاله وصوره ومناصرة مبدأ الحرية للجميع .

٤) تأكيد هدف الوحدة العربية باعتباره حاجة طبيعية وتحديد النظام الذي تريده الامة العربية لهذه الوحدة .

وتبرز لنا في الصيغ التي أوردت فيها الجمعية هذه المبادىء السمات التالية :

أولا : وصف هذه المبادىء الاربعة بأنها المبادىء الاساسية ، وهو وصف يضعها في مرتبة أكثر عمقا وأهمية من الافكار والمبادىء الاخرى الواردة في بقية فصول الدستور . وهذا التصنيف يخص بعض المبادىء بسمة الاساسية ويجعلها في مستوى المنطلقات بالنسبة لغيرها من المبادىء أو الافكار ، وهو في ذاته موقف فكري عقائدي يسجل لجمعية الوحدة العربية .

ثانيا : بروز التفاعل العضوي بين الامة والوطن في هذه المبادىء ، فنجد الامة العربية تعرّف بأنها « التي تسكن الاقطار المتاخمة الممتدة بين المحيطين الاطلسي والهندي » ، ويعرّف العرب بأنهم « الذين لغتهم العربية يتأدبون بآداب الامة العربية ويستوحون ماضيها ويعتزون بعزتها وعزة الانتساب اليها » .

ونجد كذلك أن تأكيد وحدة الوطن العربي مبني على كون « البلاد العربية وطنا واحدا امتزج سكانه منذ آلاف السنين وتكونت وحدته الثقافية من قرون عديدة ، فكل ما طرأ عليه من تجزئة مخالفة لارادة أبنائه لا تقره الامة العربية ولا تعترف به .

يبدو مما سبق أن جمعية الوحدة العربية تبني وحده الامة العربية والوطن على أسس الحياة والتاريخ واللغة ، وتبرز بصورة خاصة وحدة الماضي والثقافة والاعتزاز كعوامل أساسية في تكوين الامة ، وهو موقف فكري قد نراه اليوم مفتقرا الى بعض العناصر ولكنه يبقى مستندا الى عناصر كلها صحيحة ويتمسك به الكثير من المفكرين حتى اليوم .

ثالثا : بروز رفض الامة العربية للاستعمار بجميع أشكاله من أية جهة جاء ، ولأي سبب استند ، بروزا واضحا وقويا مرتبطا في الوقت ذاته مع فكرة الحرية ومع عمومية هذه الفكرة والتزام العرب بمناصرتها بالنسبة لجميع الشعوب .

رابعا : تأكيد هدف الوحدة العربية تأكيدا يقوم على أساس انها حاجة طبيعية فيرفعها بذلك الى مستوى يرفض مناقشتها كوسيلة لانها حاجة طبيعية .

وعلى الرغم من هذا فان المادة ١٧ من الفصل الثاني « واجبات الاعضاء » تبين موقف الجمعية ورأيها في الدعامة الاقتصادية للوحدة العربية ، اذ تنص على « اعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية طبيعية لا تنافس بين أقطارها ولا تضارب وتنظيم استغلال كل منها تنظيما علميا دقيقا » .

فاذا انتقلنا بعد هذا العرض الموجز للمبادىء الاساسية الاربعة الى الفصول الاخرى نجد أن الانسب بأن نتبع تحليلنا للمبادىء الاساسية بتحليل لمواد الفصل الثالث « ما يجب أن يعرفه العربي » قبل أن نقف عند الفصل الثاني ، وهو واجبات الاعضاء . وذلك لان المواد الثلاث عشرة التي تكون الفصل الثالث تنطوي على أفكار

ومفاهيم نظرية أقرب ، في مستواها ، من غيرها للمبادىء الاساسية وأكثر التصاقا بها حتى ليكاد يصح القول بأن فهم تلك المبادىء لا يتيسر الا بدراستها في نطاق افكار الفصل الثالث .

يتكون هذا الفصل من ثلاث عشرة مادة ، في المواد الاربع منها تعاريف محددة للعبارات التالية على التوالي :

الوطن العربي ، الامة العربية ، القومية العربية ، القضية العربية .

وما بلفت النظر ، الى جانب ما في تعريف الوطن والامة من تفصيل يضع حدود الوطن العربي ويعدد أقطاره ويعرف الفرد العربي كذلك ، تعريف القومية العربية وتعريف القضية العربية .

أما القومية العربية فتعرف بأنها « مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والارادات التي ألفت بين العرب وكونت منهم أمة متحدة في الوطن واللغة والثقافة والتاريخ والمطامع والالام والجهاد المستمر والمصلحة المادية والمعنوية المشتركة .

وأما القضية العربية فتعرف بأنها « هي الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير أمتهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل ومختلف ضروب الوهن بتاليف كتلة أو كتل قومية عربية قوية متحضرة تنهض بكيان العرب المادي والمعنوي وترفع من شأنهم وتشد من أزرهم في اداء رسالتهم الانسانية والعمرانية » .

وواضح ان في هذا التعريف خلطا بين القضية العربية والحركة العربية يعجز عن التفريق بينهما من حيث كون القضية هي في مجموع الاهداف بينما الحركة تنصرف الى عملية الصراع والتطور التاريخي على طريق تحقيق هذه الاهداف او تنصرف لاداءات منظمة تقود عمليات هذا الصرع والتطور . ولكنه من العدل ان نقول ان النقد الذي يوجه الى هذين التعريفين لا يقل أبدا من أهمية ادراك جمعية الوحدة العربية لوجود حقيقتين جديرتين بالتعريف والتوضيح هما القومية العربية والقضية العربية، وان هذا النقد بذاته يصح في مبادىء وافكار الكثير من المنظمات والاحزاب العربية المعاصرة ، الامر الذي يقلل من أثره في تقييم المستوى الفكري لواضعي دستور جمعية الوحدة العربية وعلى الاخص عندما يقيم في نطاق عصره .

وتوضح الجمعية في المواد التسع التالية من هذا الفصل موقفها تجاه عدة مسائل أولية واساسية ومنها :

١ ـ مسألة الدولة . فتشير المادة الخامسة الى ان الدولة العربية التي تنشدها

هي دولة قومية لا دينية ، لان الاديان عندها هي سبيل المرء الى خالقه ولان العبادات مقدسة ومحترمة على الدوام .

٢ ـ مسألة الحريات . فتشير الجمعية الى ان الحريات العامة حق مقدس للجميع ولكن يسوغ للقانون تقييدها عندما تتطلب ذلك مصلحة الامة العربية (بقية المادة الخامسة).

٣ ـ أما المسألة الثالثة فهي ان حق العربي في كرامته وحريته ووطنه ، شأن حق الامة العربية في كل ذلك، هو « حق مقدس لا يجوز التخلي عنه للاجنبي سواء بالرضى أو بالارهاب» (مادة ١١) .

٤ ـ وأما المسالة الرابعة فتتعلق بالوحدة العربية ، وتحددها عدة مواد :

« ان فكرة الوحدة العربية هي نتيجة طبيعية تترتب على وجود الامة العربية وتستمد نشاطها من حياة اللغة العربية وتاريخ الامة العربية واتصال البلاد العربية بعضها ببعض » (مادة ١٣) . « وان العروبة هي وسيلة النجاة فما من قطر عربي يستطيع النجاة العاجلة او الاجلة من الفقر والجهل والاستعباد والاستعمار الا بعروبته » (م ١٢) . « وان العربي يجب ان يؤمن بوحدة الهدف فيؤمن بان هدفه القومي واحد لا يتجزأ مهما تختلف أساليب الوصول اليه وان جميع الجهود الفردية والجماعية يجب ان توجه الى هذا الهدف كما ان المساعي التي تبذل في هذا القطر العربي أو في ذاك لا يجوز أن تؤدي الا الى التحرر والاتحاد » (م٧) .

ولا يملك المقيم للفكر العربي القومي الا ان يقف باعجاب أمام هذه المفاهيم التي تكون بالمعنى والمبنى مستوى من الوعي القومي ارقى من المستويات التي وصلت اليها أكثر الافكار السياسية والحزبية العربية .

٥ ـ وأما المسألة الخامسة التي تتطرق اليها مواد هذا الفصل فهي مسألة « المنهاج » فتبرز معالم المنهاج الذي اكدته جمعية الوحدة العربية في دستورها وهو المنهاج القائم على ثلاث دعامات هي :

الايمان : فسبيل كل نهضة محفوف بالصعوبات « فليس غريبا ان تصادف النهضة العربية ما تراه من عقبات ولكن ايمان العربي بمستقبله لا يتزعزع وعزيمته لا تكل من جراء المصاعب التي تعترضه والمساوىء التي يلحظها والتي واجهت مثلها وأشد منها وتغلبت عليها جميع الامم التي نهضت واتحدت في التاريخ » .

ويؤمن العربي ايمانا راسخا بان الامة العربية التي نهضت في الماضي نهضتها الجبارة لا بد لها من ان تستأنف نهضتها وتسترد المكانة اللائقة بماضيها المجيد في العالم الجديد (م٦) .

أساليب الجهاد : ليست أقطار العرب اليوم في العلم أو الفن او الاستقلال سواء. لذلك جاز ان تتنوع أساليب الحركات السياسية والاجتماعية فيها ولكن يجب ان يقوم بينها جميعا تعاون صادق وتآزر متبادل لتنسيق الجهود وتتجه الحركات المختلفة نحو الغاية الموحدة وذلك بمكافحة النزعات والارادات الفردية او الاقليمية التي لا تتفق مع أهداف العرب العليا وتنظيمها تنظيما يحقق هذه الاهداف (م٨) .

الجهاد : قعود العربي واحجامه عن الانتظام في مواكب المجاهدين عار وضلال يشبهان الخيانة ومثله الاخلال بالنظام وفي ميسور كل عربي ان يجاهد بيده أو قلمه أو لسانه أو ماله أو قلبه ولا عذر لمتخلف ولا سيما في ساعات الخطر او أوقات البعث والنهضة .

٦ ـ البعد الانساني : وتتطرق جمعية الوحدة العربية الى موقفها من الانسانية جمعاء (م ١٠) بقولها : ان التعاون الانساني والدولي هو مبدأ وهدف انساني شامل تتمسك به جمعية الوحدة العربية وتضع مفاهيمها المذكورة انفا في نطاقه كما ترسم لهذا المبدأ مضمونه وحدوده القومية وتؤكد في معرض بيان سمات العمل القومي العربي انه « ليس في مطامع العرب اعتداء على أحد فهم انسانيون متعاونون دوليا في حدود النظم العالمية التي لا تؤذي نهضتهم وكيانهم ولا تمس كرامتهم على انهم يعملون بالطبع على مقاومة كل اعتداء يقع عليهم ويعدون عملهم هذا دفاعا مشروعا عن النفس (مادة ١٠) .

وبهذه الصياغة لمفهوم مبدأ التعاون الانساني والدولي تقف الجمعية موقفا سليما وعمليا من هذه القضية ، يؤكد بوضوح حقوق الامم في تقرير مصائرها ويبرز أهمية التعاون الانساني والدولي بمقدار ما يؤكد ويبرز الحق الطبيعي في دفاع الامم عن نفسها ومصائرها .

أما الفصل الثاني : المسمى « واجبات الاعضاء » فانه يشتمل على سبع عشرة مادة تحدد بعض الواجبات التي فرضتها الجمعية على أعضائها ومؤيديها من الافراد والجماعات على حد نص الدستور . واذا كنا نجد فعلا في هذه المواد حضا للاعضاء والمؤيدين على اداء « واجبات » معينة فاننا نجدها مصاغة بصيغ عامة لا تجيز لنا ان نعتبرها تحديدا تفصيليا لواجبات حزبية داخلية أو حركية يومية ، بقدر ما هي توكيد لبعض المبادىء الاجتماعية التي لا يملك احدنا الا ان يعجب بما فيها من معاني « التقدمية » سيما اذا قيمت بالنسبة لاوضاع عصرها وأهم هذه المبادىء :

١ ـ تأكيد شأن المرأة العظيم في النهضات القومية وتأكيد واجب الجمعية في ان تشركها في الجهود المبذولة لاستعجال النهضة العربية .

٢ ـ تأكيد بعض المبادىء الاساسية الاقتصادية والانتاجية التي يمكن ان نلمح فيها بذور تطلعات اشتراكية وذلك بالنص على مايلي:

آ ـ العمل أشرف موارد الانتاج (م٦) .

ب ـ ايجاد العمل للجميع وتمكين كل عربي من القيام بعمل منتج مفيد (م٧) اي مقاومة البطالة .

ج ـ تأمين التعليم والعلاج والطمأنينة والصحة لكل عربي وعربية .

د ـ تفضيل المنتجات العربية على غيرها في الاسواق (م ٨) .

هـ ـ تحسين حال المعيشة في الريف وتشجيع السكنى فيه بمختلف الوسائل الصحية والاجتماعية (م١١) .

و ـ تنظيم الثروات على أساس تحديد الحد الاقصى للدخل والحد الادنى للاجور (م ١٢) .

ز ـ القيام بمشروعات عمرانية للزراعة والري والصناعة وانشاء مصانع ومعامل ومزارع وشركات لاستثمار الثروات المائية والارضية (م١٤) .

ح ـ جميع الصناعات والحرف متساوية في الشرف من الوجهة الاجتماعية (م١٣) .

ط ـ مراقبة الطباعة والمسارح ودور السينما مراقبة خلقية ووطنية دقيقة (م١٥) .

ي ـ تحضير البدو لتأمين وسائل العيش الثابت لهم ومضاعفة العناية بتعليمهم (م ١٦) .

كل ذلك في نطاق تأكيد « اعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية طبيعية لا تنافس بين أقطارها ولا تضارب ، وتنظيم استغلال كل منها تنظيما علميا دقيقا ويجب أن تكون مرافقها للعرب أولا » (م١٧) .

ولا يسعنا الا أن نشير الى نقطة مهمة تعرضت لها الجمعية في المادة الخامسة من هذا الفصل فسجلت بوضوح تقويمها للاحزاب والجمعيات في ذلك الوقت :

« اللجان والاحزاب والجمعيات والجماعات والاندية مع توفرها في البلاد العربية غير مطبوعة بالطابع القومي الصحيح ، بل بالطابع الاناني السياسي والطائفي فعلي الجمعية وأعضائها بذل أعظم الجهود لاصلاح هذه الحالة » (م٥) .

ان وقفة سريعة عند هذا التقويم تكشف عن أمرين ، الاول : ان البلاد العربية كانت زاخرة باللجان والاحزاب والجمعيات والاندية خلال الفترة السابقة لوضع هذا الدستور ، والثاني ان معيار الجمعية في تقويم تلك الاحزاب وحياتها الحزبية كان معيارا قوميا سليما يرفض الاقليمية ، التي سماها الانانية السياسية ، كما يرفض الطائفية .

أما الفصل الرابع من دستور جمعية الوحدة العربية ، فجاء بعنوان العرب والثقافة وتبرز من قراءة فقراته نقاط تكشف عن بعض نواحي الحالة الفكرية لواضعي الدستور . وهي حالة يصح القول بأنها كانت عامة بين الشباب العرب المثقف في ذلك الوقت ، وتدور حول مسألة لا تزال تشغل الشباب حتى اليوم ، ألا وهي تحديد الموقف من انسانية الثقافة ، وقومية الثقافة ، ثم ما يجب أن يتمتع به التراث القومي من مكان في صنع الحياة العقلية العربية ، وما تستحقه الثقافة المعاصرة .

ففي هذا الفصل موقف من هذه المسألة يتركز في النقاط التالية :

١ ـ المناداة بانسانية الثقافة مع تأكيد اهمية التراثات القومية في صنعها ، ذلك ان « الثقافة ثروة انسانية شائعة ، يساهم الغرب في خدمتها بوحي تقاليدهم ، وهي تكفل لهم ، أفرادا وأمة ، وسائل العيش والرقي الفكري والعزة القومية ، والغذاء الروحي ، ومنفعة الجنس البشري ، اذا استمدت عناصرها من مميزاتهم وخصائصهم وتاريخهم ومصلحتهم » .

٢ ـ المناداة بتعانق الدعامتين الروحية والمادية في صنع الثقافة العربية المنشودة، والمناداة بالتالي بأن « الثقافة التي يريدها العرب لحاضرهم ومستقلبهم هي الثقافة القائمة على الحضارتين الشرقية الروحية والغربية المادية ، لانهما خير ضمان لايجاد الطمأنينة الفردية والدولية ، وايجاد الرقي المعنوي والرخاء المادي في العالم أجمع ».

٣ ـ التأكيد أن العرب أقدر الامم على بناء الثقافة القائمة على تينك الدعامتين والمجسمة لتفاعل تينك الحضارتين ، وذلك لسببين :

« أولهما جغرافي : فبلادهم الواقعة في قلب الكرة الارضية على طول شواطىء البحر المتوسط هي قطب القارات وصلة الاتصال بين جميع الشعوب . والثاني تاريخي : فهم وارثو مدنية حفلت بالخصائص والمميزات اللازمة للحضارة» .

وبعد تأكيد هذا الموقف من الثقافة بمضمونها ودور العرب المتميز في صنعها نجد جمعية الوحدة العربية مهتمة ببيان ضرورة الاخذ ببعض الاجراءات التي تنبع عن ذلك الموقف : كتأكيد أهمية تعريب المعاهد الاجنبية القائمة في الوطن العربي من ناحية

اللغة والبرامج ، وأن « الامية بين العرب المعاصرين كارثة متوطنة عامة لها في تأخير بعثهم الاثر العظيم فيجب أن تكافح الاوبئة » وتأكيد مكان اللغة العربية كحصن للعرب وشرفهم وكمظهر لوحدتهم ، فيجب أن يفرض استعمالها على المؤسسات الاجنبية ووسائل النشر ، ثم التنبيه على أهمية دور العلماء والفنيين المجددين ، ومطالبة الدولة بأن تكفل لهم الرزق والمعاش لكي لا يشغلوا بهما عن الاجادة والابداع والنبوغ.

سلطة رجال الدين ، والجندية :

وأخيرا تعرض دستور جمعية الوحدة العربية في هذا الفصل الى مسألتين هامتين هما : سلطة رجال الدين في الوعظ والارشاد ، والجندية . وتجاه المسألة الاولى ينادى بأن « سلطة رجال الدين في الوعظ والارشاد قوة ذات فعل خطير في توجيه الارادة عند الشعب ، فيجب أن تضبط هذه السلطة وتنظم لها القواعد بحيث لا تشذ عما وجد له الدين ، وعن خطوط الفكرة القومية السليمة » ، وتجاه مسألة الجندية نجده مهتما اهتماما شديدا بتأكيد أهميتها قائلا : « يفرض البعث القومي على الامة جمعاء أن تأخذ بروح الجندية الاجبارية ، فهي تجمع خصال الرجولة والوطنية كالشجاعة والبأس والسماحة والمروءة وترك الدنيا والصبر على المكاره والطاعة حيث تجب ويجب النظام » .

وينتهي دستور جمعية الوحدة العربية من فصله الخامس الى تحديد شعار قائم على أربعة عناصر هي : الايمان ، النظام ، الطاعة ، العمل .

وليس في مضامين هذه العناصر كما يحددها دستور الجمعية ما يحتاج الى شرح أو تعليق . وهو يذكر بالشعار الثلاثي الذي طرحته ثورة ٢٣ يوليو في أوائل عهدها وهو : الاتحاد والنظام والعمل .

وخلاصة تحليل هذا الدستور ، أنه يكشف عن مستوى ومحتوى من الفكر القومي ـ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لا يقل ، أن لم يتفوق ، عن مستوى ومحتوى الفكر كما يبدو في دساتير كثير من الاحزاب العربية القائمة الان .

قسم جمعية الجامعة العربية :

لقد امتد التغيير الذي أصاب جمعية الجامعة العربية الى قسمها . فقد تغير هذا القسم بعد الحرب ، كما يؤكد الشيخ رشيد رضا : « ثم اننا غيرنا هذا القسم بعد الحرب تغييرا قليلا ، وعندي صورة منه عليها امضاء بعض من انتظموا فيها معي ، ثم عدلته بالتشاور مع الاعضاء وطبعته هكذا » :

قسم الجامعة العربية الاخير ، غير بعد الحرب :

أقسم بالله القهار انني أبذل جهدي وما تصل اليه استطاعتي من السعي لجعل بلاد العرب المؤلفة من الجزيرة وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين (دجلة والفرات) والعراق مملكة عربية مستقلة أتم الاستقلال على قاعدة اللا مركزية ،وعلى ان تكون حكومتها شوروية نيابية ينتخب أعضاء مجالسها من أهل الحل والعقد الذين هم خواص الامة ومحل ثقتها في الشؤون العلمية والعملية بمقتضى القوانين التي يقررونها عند العمل - وانني أقاوم بقدر استطاعتي كل ما ينافي هذا الاستقلال وهذا الشكل من الحكومة أو يضعفه من تدخل الاجانب ونفوذهم ، أو استبداد الحكام وفساد أنصار الاستبداد من الجماعات أو الافراد - وأنني أكون وليا ونصيرا للساعين والعاملين لهذا المقصد من رجال الجامعة العربية وغيرهم بمنتهى الصدق والاخلاص لا يثنيني استقلال بعض هذه البلاد عن السعي التام لاستقلال سائرها وانني لا أفشي لفرد من الافراد ولا لجماعة من الجماعات العاملة لهذه الغاية سرا ولا أعمل عملا يخل بهذا الغرض والقصد ، أو يضر أحدا من العاملين له أو يعرقل عملا من أعمالهم له .

فان حنثت في يميني هذه لاي سبب وبأي تأويل فأنا بريء من الشرف والانسانية مستحق اللعنة الابدية ، وأن يسجل علي عار الخيانة وذلها في تاريخ أمتي العربية وفي كل تاريخ والله خير الشاهدين(٢٦) .

وأبرز ما يلفت الانتباه في هذا القسم هو التحديد الجديد لهدف الجمعية ،الذي اصبح في الصيغة الجديدة للقسم :

١ - السعي لجعل بلاد العرب المؤلفة من الجزيرة وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين ، (دجلة والفرات) العراق دولة واحدة .

٢ - التمسك أن يكون نظام الحكم في هذه الدولة المستقلة (اتم الاستقلال) ملكيا دستوريا نيابيا لا مركزيا .

٣ - مقاومة كل ما ينافي الاستقلال التام لتلك الدولة وذلك الشكل للحكم فيما يضعفها ، سواء جاء ذلك من تدخل الاجانب أو نفوذهم أو جاء من استبداد الحكام وفساد أنصار الاستبداد من الجماعات أو الافراد .

وقد جاء هذا التطور في القسم نتيجة طبيعية للاوضاع التي قامت في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، وجعلت من الاستقلال هدفا صريحا معلنا تنادي به جميع الجمعيات والاحزاب العربية بعد أن كان هدفا مستبعدا في ظل الامبراطورية العثمانية،

وتعبيرا واضحا عن المفاهيم والمبادىء السياسية التي كانت تنمو بسرعة بين صفوف الحركة العربية على مختلف جمعياتها من حيث انه :

آ ـ يحدد نظام الحكم في الدولة المنشودة بأنه ملكي نيابي دستوري .

ب ـ يؤكد ضرورة حماية هذه الدولة واستقلالها من خطرين كان قادة جمعية الوحدة العربية يدركون أنهما الخطران اللذان يحدقان بها، سواء من حيث وحدتها ، أو استقلالها ، او دستورية الحكم وهما خطر النفوذ الاجنبي وخطر الاستبداد الداخلي .

فعاليات الجمعية :

بدأت فعاليات جمعية الجامعة العربية باندلاع الحرب العالمية الاولى في شهر تموز سنة ١٩١٤ ، وكانت الدولة العثمانية تعيش أوضاع « الرجل المريض » تحت سيطرة حزب الاتحاد والترقي الحاكم ، والذي كان يميل بطبيعته الى جانب الالمان أحد الطرفين المتصارعين في الحرب .

وكان موقف الاحزاب العربية القائمة في هذه الفترة موقفا حرجا ، اذ أن الانحياز الى أحد الفريقين ، المناهضين في الواقع للقضية العربية ، مخاطرة غير مأمونة الجانب وتشير الوثائق الى أن الجمعيات العربية قامت بتحرك واسع وسريع بقيادة جمعية العربية الفتاة ، ويشير محب الدين الخطيب في مذكراته قائلا : لقد كان رجال الحركات العربية مثل أعضاء حزب اللا مركزية وجماعة الجامعة العربية وغيرهم يرون انه من الضروري مواجهة الموقف وتقرير ما ينبغي على العرب ان يعملوه(٢٧) .

وقد عقدت هذه الجمعيات عدة اجتماعات في القاهرة ، قررت فيها الاتصال بالامراء العرب بغية الوصول الى موقف عربي موحد اذا ما دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب احد الطرفين المتصارعين . وكتب رشيد رضا كتابا الى العاصمة يرجو فيه قادة الاتحاديين الوقوف على الحياد(٢٨) ولكن الدولة لم تجب بالنفي أو الايجاب على هذه الرسائل ، وعندها ارسلت الجمعيات العربية ثلاثة من كبار قادتها لاداء مهمة الاتصال بامراء العرب ولكنهم فشلوا جميعا في الوصول الى الامراء الذين توجهوا نحوهم بسبب دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا في شهر تشرين ثاني سنة ١٩١٤ .

كان الاتصال بامراء الجزيرة العربية وتوحيد كلمتهم ، من الاهداف الرئيسية التي تسعى اليها جامعة الجامعة العربية دون غيرها من الجمعيات الاخرى ، ولذلك لم تتقاعس عن مواصلة الجهد للاتصال والتشاور مع الامراء العرب على الرغم من صعوبة ارسال المبعوثين اليهم ، وكان احد هؤلاء الرسل « محب الدين الخطيب »

عضو جمعية العربية الفتاة والجامعة العربية ، السريتين ، وعضو حزب اللامركزية العلني ، ولذلك وافقت هـذه الاحزاب على ارساله ، ولكنه اعتقل في البصرة قبل أن يصل الى هدفه ويقول في مذكراته في معرض التعليق على اعتقاله : والظاهر ان برسي كوكس (الحاكم البريطاني في العراق) كان يعلم بالمهمة التي كان سفرنا من أجلها، اذ قال لي عندما ودعني بعد الافراج عني بأن العرب سينالون استقلالهم ، ويشـير متسائلا الى أنه لم يتمكن من تحديد كيفية اطلاع الانكليز على سفره أو على مهمته بالرغم من أهمية هذه المسألة في ذلك الوقت(٢٩) .

وقد أشرت الى هذه الحادثة ، لان محب الدين الخطيب يثير نوعـا من الشكوك حول تصرف بيرسي ــ كوكس ، قبل الافراج عنه ، وان أمين سعيد في كتابـه اسرار الثورة العربية الكبرى ، يضع قصة المشاورات بين الجمعيات العربية وقرار الاتصال بالامراء العرب في نطاق فصل عن المخطط الانكليزي لاستقلال الحركـة العربية تحت عنوان فرعي هو : الاتصال بالهيئات العربية الاخرى(٣٠) يصور فيهـا عملية التشـاور التي أشرت اليها سابقا ، ثم عملية ارسال الرسل ، تصويرا مغايرا لكل ما اطلعت عليه من وثائق حول هذه الجمعيات من ناحية ، وللصورة التي أعطتنا اياها مجلة المنـار ومذكرات محب الدين الخطيب من ناحية أخرى .

يصور أمين سعيد الامر كما يلي : ان الانكليز اتصلوا سنة ١٩١٤ وقبل اعـلان الحرب بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤسس جمعية الجامعة العربية ــ وكان في ذلك الوقت عضو حزب اللامركزية الادارية أيضا وسألوه أن يوفد مندوبين الى الامراء في الجزيرة العربية ، فوافق مبدئيا وسألوه عن النفقات ، فقدرت بألف جنيه دفعت له ، ثم أرسلت الرسل وفشلت كما شرحت .

ومما يلفت النظر ، ان قضية اتصال الانكليز بالشيخ رشيد رضا هـي قضية صحيحة ، لان رشيد رضا يذكرها في مجلة المنار ، والذي لا يذكره ، قضية تسلمه مبلغ الالف جنيه التي يشير اليها أمين سعيد ، كما ان محب الدين الخطيب لم يشر الى اتصال الانكليز ، بحزب اللامركزية أو حزب الجامعة العربية ، او جمعية العربيـة الفتاة بل يستغرب سؤال برسي كوكس كما أشرت ، وربما اخذ رشيد رضا هذا المبلغ بصفة شخصية ، وليس بصفته احد أعضاء هذه الاحزاب ، هذا اذا كانت رواية أمين سعيد صحيحة .

وعلى العموم فان الشيخ رشيد رضا ، قد ذهب الى الحجاز وقابل شريف مكة وشارك في قيام الثورة العربية الكبرى ، وكان برفقة محب الدين الخطيب وكامـل القصاب وعزيز علي المصري وغيرهم من رجال الاحزاب .

فعاليات الجمعية في العهد العربي الفيصلي :

ويظهر ان نشاط جمعية الجامعة العربية قد طرأ عليه الكثير من الحيوية في العهد العربي الفيصلي ، فبالرغم من ان مركز الجمعية كان في القاهرة ، الا ان الاعضاء مثل رشيد رضا ، ومحب الدين الخطيب ، وكامل القصاب وغيرهم ، كانوا يراقبون الاحداث التي تجرى في سورية من حيث كانوا في مصر أو الحجاز .. واضطرت الجمعية الى نقل مركزها الى دمشق امام الظروف والاوضاع في سورية ، وان تعدل منهاجها واسمها ، بحيث اصبح اسمها جمعية الوحدة العربية ـ كما عدلت قسمها لتماشي الجو السائد في دمشق، وحضر رئيسها الشيخ رشيد رضا الى دمشق ، فتقرب من الملك فيصل ، كما قام بعملية (تقارب) بين أعضاء حزب الاتحاد السوري ممثلين بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، والملك فيصل (ومما تجدر الاشارة اليه ان رشيد رضا كان من أعضاء حزب الاتحاد السوري ايضا) وفي جو هذا التفاهم الجديد ، انتسب الشهبندر الى جمعية العربية الفتاة ، كما انتسب رشيد رضا وغيرهما من أعضاء هذه الاحزاب ، في جلسة خاصة عقدتها الهيئة الادارية للعربية الفتاة ١٩١٩ واكرمتهم الجمعية فأطلقت عليهم لقب اعضاء مؤسسين (٣١) .

يستنتج مما تقدم أن هذه الاحزاب والجمعيات ، ومنها « جمعية الوحدة العربية » لم تتسع أو تنتشر في هذه الفترة ، ولم تستقطب « أعضاء جدداً » في العهد الفيصلي ، بل عدلت مناهجها كما أشرت ، وكان تأثيرها بالاحداث وتأثر الاحداث بها قليلا جدا بعد انتساب اكثر أعضائها الى جمعية العربية الفتاة ـ الحزب الحاكم ـ كما أشرت ، وعندما تأسس حزب الاستقلال سنة ١٩١٩ كواجهة علنية لجمعية العربية الفتاة السرية ، كان بين أعضائه رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وهكذا أصبح أعضاء « جمعية الجامعة العربية / الوحدة العربية » ركنا مهما من أركان أحزاب هذه الفترة .

ومما يلفت النظر ان الشيخ رشيد رضا قد استلم مراكز هامة في العهد العربي الفيصلي ، فكان عضو المؤتمر السوري ، وساهم في وضع قراراته المشهورة ، ثم كان عضوا في مجلس النواب السوري سنة ١٩٢٠ ، وقد تشكل حزبان جديدان داخل البرلمان بعد انتخاب فيصل ملكا على سورية ، هما حزب التقدم، والحزب الديمقراطي، وكان حزب التقدم برئاسة الشيخ رشيد رضا ، وكان يضم اعضاء حزبي الفتاة والاستقلال وكل مؤيد ومناصر لهما ، ويقول الشيخ أن هذا الحزب كان بمثابة حزب الحكومة ، وكانت اكثرية أعضاء المؤتمر مندمجة في هذا الحزب الذي يمثل العهد العربي الفيصلي بملكه وحكومته ورؤساء دوائره ، اما الحزب الديموقراطي فكان بمثابة حزب المعارضة(٣٢) .

وعندما شكل هاشم الاتاسي الوزارة الائتلافية بتاريخ ٣ ايار/مايو ١٩٢٠ فـرغ منصب رئاسة المجلس النيابي ، فانتخب لرئاسته الشـيخ رضـا بدلا من هاشـم الاتاسي ، ولما كان رئيس حزب التقدم ، فقد قدم استقالته من رئاسة الحزب ليساوي بين الحزبين في ساحة المجلس ، في كل شيء يتعلق به وفي احترام افرادهما(٢٢) .

وكانت معركة ميسلون بتاريخ ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ ضربة كبرى للحركةالعربية والحكومة الفيصلية ، انتهت بها هذه الاحزاب .

الهوامشـ :

(١) أحمد عزتالاعظمي ، القضية العربية ،جـ٤ ط١ ، بغداد ١٩٣٢ .

(٢) د. سهيلة الريماوي ، مجلة دراسـات تاريخية ، العددان ٢٣/٢٤ كانون اول١٩٨٦ « عبـد الرحمن الكواكبـي دراسـة في فكره السياسي » ص٧ – ص٤٦ .

(٣) د. سهيلة الريماوي، مجلة دراساتتاريخية، العدد السابع ١٩٨٢ « صفحات من تاريـخ الجمعيات في بلاد الشام مـن ١٨٥٠ – ١٩٠٨ » ص١٣٤ – ص ١٥٦ .

(٤) د. سهيلة الريماوي، مجلة البحثالتاريخي، العدد الثالث سنة ١٩٨٤ « مع رواد اليقظة محب الدين الخطيب » د. سهيلة الريماوي مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٣٣/٣٤ سنة ١٩٨٩ « جانب من فعاليات محب الدين الخطيب – الجانب الصحفي » ص ٢٣ – ص ٤٨ .

(٥) د. سهيلة الريماوي ، مجلـة دراسـات تاريخية ، العددان ١٣/١٤ سنة ١٩٨٣ تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين». الامير صباح الدين هو ابن الداماد محمود وابن أخت السلطان عبد الحميد .

(٦) Correspondances d' Orient, Revue économique - Politique , Paris 1906 - 1912 .

(٧) د. سهيلة الريماوي ، جمعية العربيةالفتاة السرية – «دراسة وثائقية » ، دار مجلاوي سنة ١٩٨٨ .

(٨) أسس هذه الجمعية عزيز علي المصري وهي جمعية خاصة بالعسكريين ، لمزيد مـن التفاصيل راجع : Saab, H., The Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam 1985 .

(٩) المنار ، م١ ، عدد ٣٩ ، ص ٧٦٦ الطبعة الثانية .

(١٠) المنار ، م١ ، عدد ٣٩ ، ص ٧٧٠ ومابعدها.

(١١) المنار ، م٢ ، عدد ٢٢ ، ص ٣٤٦.

(١٢) يقول احسان الجابري انه قد سجن مـرة في استامبول لانه ساهم في توزيع المناشير (من أوراق د. سهيلة الريماوي) .

(١٣) محب الدين الخطيب ، المذكرات المخطوطة، سيرة جيل . يقول انه افتتح فرع اليمن .

(١٤) المنار ، م١٠، جـ٤ ، ص ٣٤٢ . رشـيد رضا : منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق

(١٥) المنار ، م٣٣ ، جـ٧ ، ص ٥٥٦ .

(١٦) المنار ، م٣٣ ، جـ٦ ، ص ٤٦٠ .

(١٧) المنار ، م ٣١ ، جـ١٠ ، ص ٧٩٩ .

(١٨) رفيق العظم ، اثاره ، المقدمة ص ز، بقلم بقلم رشيد رضا .

(١٩) مجلة المنار ، م٣٣ ، جـ٧ ، ص ٥٥٥ وما بعدها .

(٢٠) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي :مقابلة خاصة من القاهرة مـع الخطيب واحسان الجابري سنة ١٩٦٨ .

(٢١) رفيق العظم ، اثاره ، المقدمة ص ز ، بقلم رشيد رضا .
(٢٢) المنار ، م٣٣ ، جـ٧ ، ص ٥٥٧ .
(٢٣) انظر : كتاب عبد الله الريماوي ، الحركة العربية الواحدة ، ط١ ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٦٤ .
(٢٤) المنار ، م ٣٣ ، جـ٧ ، ص ٥٥٧ ومابعدها .
(٢٥) المصدر السابق .
(٢٦) المنار ، م ٣٣ ، جـ٧ ، ص ٥٥٨ وما بعدها .
(٢٧) محب الدين الخطيب ، المذكرات المخطوطة ، سيرة جيل .
(٢٨) لقد طالب الدولة عدد من رجال الحركة العربية بالوقوف على الحياد ، دون جدوى مثل : شريف مكة الحسين بن علي ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، وغيرهم كثير من العرب والترك .
(٢٩) محب الدين الخطيب ، سيرة جيـل ، المذكرات المخطوطة .
(٣٠) امين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الامير حسين ، ص ٣٧-٣٩ .
(٣١) وثيقة من وثائق محب الدين الخطيب - اسماء الاعضاء . راجع د. سهيلة الريماوي ، جمعية العربية الفتاة السرية ، اللاحق .
(٣٢) لمزيد من التفاصيل راجع : المنار ، م٢٣ ، جـ ٥ ، ص ٣٩٥ .
(٣٣) انظر حول الوزارة والمجلس : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ٢٧٠ ، والمنار ، م٢٣ ، جـ٥ ، ص ٣٩٦ .

* * *

الاحتلال البريطاني لبرقة (١٩٤٢ ـ ١٩٤٩م)
دراسة تاريخيـة في الجوانب العسـكرية والاداريـة

د. محمد رجائي ريان
جامعة اليرموك

مقدمـــة :

برقة (بفتح الباء والقاف وسكون الراء بينهما) ، الى جانب طرابلس ، وفزان، واحدة من أقاليم ثلاثة تتكون منها ليبيا ، وتشكل شبه جزيرة واسعة ، ممتدة بين خليجي بومبا وسرت ، وتقع بين خطي الطول ٢٠°و ٣٠° ، وبين خطي العرض ٣٠°و٣٣° ، وهي تغطي ما مساحته ٨٥٥٫٤٠٠ كم٢ مما مجموعه ١٫٧٥٩٫٥٠٠ كم٢ . هي كل مساحة ليبيا(١) .

وكانت برقة قديما مرتبطة بمصر ، فقد الحقت بها في عهد البطالمة(٢) ، ثم أصبحت مقاطعة رومانية حتى القرن السابع الميلادي ، حين دخلت ضمن عملية الفتح العربي ، ومن ثم ارتبطت بمصر ارتباطاً وثيقاً ، وأصبحت تعتمد مثلها على دمشق وبغداد ، وفي عهد المماليك خضعت برقة لسلطانهم ، لكن هذا السلطان كان اسميا ، فقد كانت تسيطر على برقة القبائل البدوية(٣) .

أما تاريخها الحديث ، فقد تنازعته ثلاثة تيارات هي :

١ ـ الحكم التركي :

فقد سقطت دولة المماليك في عام ١٥١٧م والتحقت برقة بسلطة الباب العالي في الوقت الذي لم تنضم فيه ليبيا رسميا الى الدولة العثمانية الا بعد أن تم فتح طرابلس في عام ١٥٥١م(٤) ، وفي ظل الحكم العثماني الاول (١٥٥١م ـ ١٧١١م) كانت برقة تتبع طرابلس أحيانا وتنفصل عنها أحيانا أخرى ، حتى ان هذه التبعية كانت اسمية أكثر منها عملية ، وكانت اداريا تسمى متصرفية بني غازي(٥) .

وفي عام ١٦٤٩م ، أضيف سنجق بني غازي ودرنة الى ولاية طرابلس حين تمكن الداي عثمان من ضمها الى ولايته وعين حاكما برتبة بك ، الا أنه في عهد القرمانليين تم دعم وحدة ليبيا بأقاليمها الثلاثة خاصة على يد أحمد القرمانلي (١٧١١م ـ ١٧٤٥م) الذي اعترف به السلطان العثماني وعينه باشا على طرابلس ، فعين هذا أخاه شعبان بك عاملا له في برقة(٦) .

وفي عام ١٨٣٥م ، احتل العثمانيون طرابلس ، وأنهوا حكم الاسرة القرمانلية ، وبدأت فترة الحكم العثماني الثاني (١٨٣٥ ــ ١٩١١م) ، وامتد حكمهم على معظم ليبيا بما فيه برقة، في الوقت الذي جعل العثمانيون من برقة ولاية قائمة بذاتها وذلك في عام ١٨٣٨(٧) . وفي سنة ١٨٧٩ أصبح متصرفها مرتبطا مباشرة باستنبول، ثم ربطت بولاية طرابلس الغرب عام ١٨٨٢ ، وأصبحت تتألف من قضاء درنه والمرج وجالو، ثم ارسل العثمانيون في عام ١٩٠٥ قائمقاما الى الجغبوب(٨) .

٢ ــ انتشـــار السنوسية :

تقلص الحكم العثماني في أواخر القرن التاسع عشر في برقة ، فلم يعد يمتد وراء السواحل ، اذ كانت السلطة العثمانية ضعيفة جدا في تلك المناطق ، وقد لازم هذا انتشار السنوسية في داخلية البلاد ، حتى أصبح لها النفوذ الفعلي بين القبائل وسيطرت على أوجه الحياة فيها ، وكان ثمة نوع من الاتفاق بين السنوسية والدولة العثمانية لادارة برقة(٩) .

والسنوسية في الاصل هي احدى الطرق الصوفية التي ترغب في تجديد الاسلام ، والرجوع به الى مصادره الاولى والاعتماد على الكتاب الكريم والسنة ، مع بقاء باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه ، والعمل على توحيد الامم الاسلامية (١٠) . مؤسسها هو محمد بن علي السنوسي ، ولد في الجزائر عام ١٧٨٧ ، وتعلم في فاس ، ثم جاء الى الازهر الشريف في القاهرة وسافر بعدها الى مكة ، وفي عام ١٨٤٣م عاد الى شمال افريقيا حيث أخذ ينشر دعوته ، واتخذ من برقة ــ المجاورة لمصر في الناحية الغربية ــ مركزا(١١) ، يقيم فيه مذهب دين ودعائم امارة(١٢) .

لقد اختار محمد بن علي السنوسي النزول في برقة دون غيرها ، لانه وجد فيها مكانا ملائما لدعوته(١٣) فأسس من ثم فيها زاوية البيضاء . لتكون أول زاوية سنوسية في شمال افريقيا ، ولتكون مركز زواياه(١٤) . وعند وفاة السنوسي في عام ١٨٥٩ خلفه ابنه السيد محمد المهدي الذي بلغت السنوسية في عهده أوج انتشارها وترسخت جذورها في برقة . وأصبح السنوسيون أصحاب الامر فيها(١٥) . وعندما توفي السيد محمد المهدي في عام ١٩٠٢ . تولى زعامة السنوسية أخوه احمد الشريف (١٨٧٣ ــ ١٩٣٣)(١٦) .

٣ ــ الغزو الايطالي :

تعرضت برقة مع غيرها من أقاليم ليبيا في عام ١٩١١ الى عدوان ايطاليا الذي تمخض عنه عقد معاهدة أوشي ــ لوزان (Ouchy - Lausanne) في تشرين الاول

(أكتوبر) عام ١٩١٢ بين ايطاليا والدولة العثمانية ، وتنازلت فيها الدولة العثمانية عـن ليبيا(١٧) .

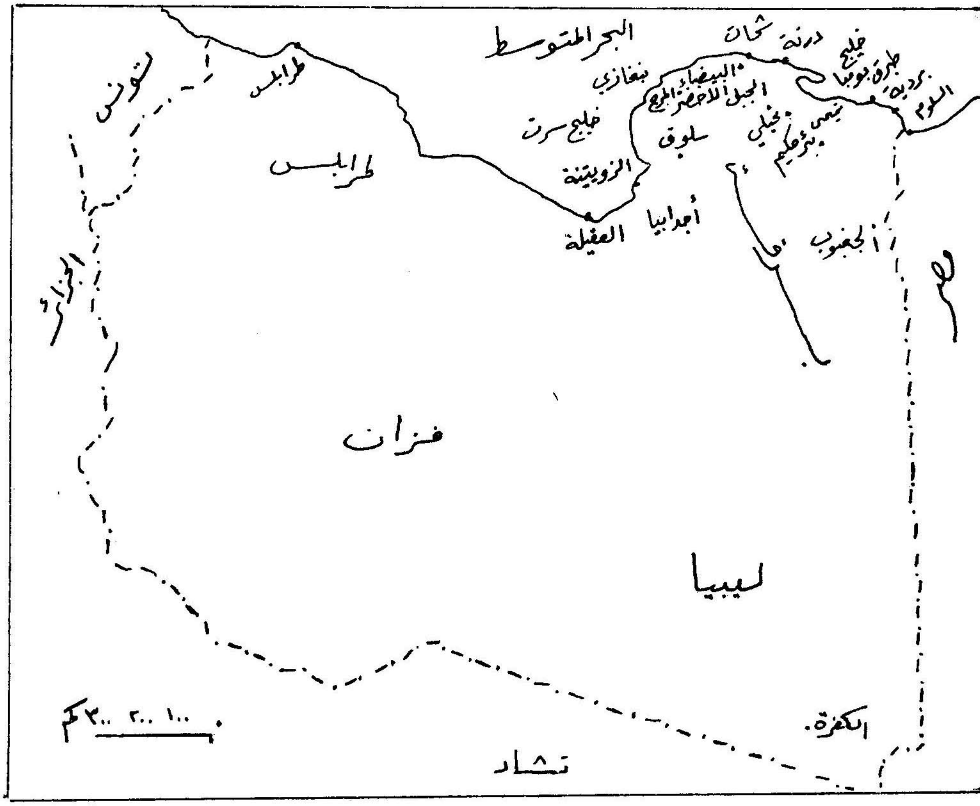
وكان من نتائج هذه المعاهدة حصول فراغ عسكري وسياسي في برقة ، فقامت السنوسية بملء هذا الفراغ ، فمن الناحية السياسية أبلغت الدولة العثمانية السيد أحمد الشريف أمر اسناد ليبيا اليه تاركة له الحق في أن يقرر مصيرها لتدافع عـن نفسها(١٨) ، أما من الناحية العسكرية فقد دخلت السنوسية في حرب ضد الايطاليين، أعقبها اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ودخول أحمد الشريف في حرب ضد بريطانيـا بمهاجمة مصر وذلك بتحريض من الاتراك والالمان ، وقد انهزم فيها السنوسيون(١٩) .

هذا ، وقد ترك أحمد الشريف القيادة ليتسلمها ابن أخيه السيد محمد ادريس السنوسي ، فقد تمخض عن الاحداث السابقة قيادة سنوسية جديدة دخلت مـع الايطاليين في برقة عقد سلسلة من التسويات بموافقة البريطانيين(٢٠) ، نجم عنهـا الاعتراف بالسيد محمد ادريس أميرا على الاجزاء الداخلية من برقة ، ولكـن هـذا الوضع انتهى عندما تخلى الايطاليون عن تلك التسويات خاصة بعد سيطرة موسوليني (Mussolini) على السلطة في روما في تشرين الاول (أكتوبر) عام ١٩٢٢ ، وظهور النظام الفاشي فيها(٢١) .

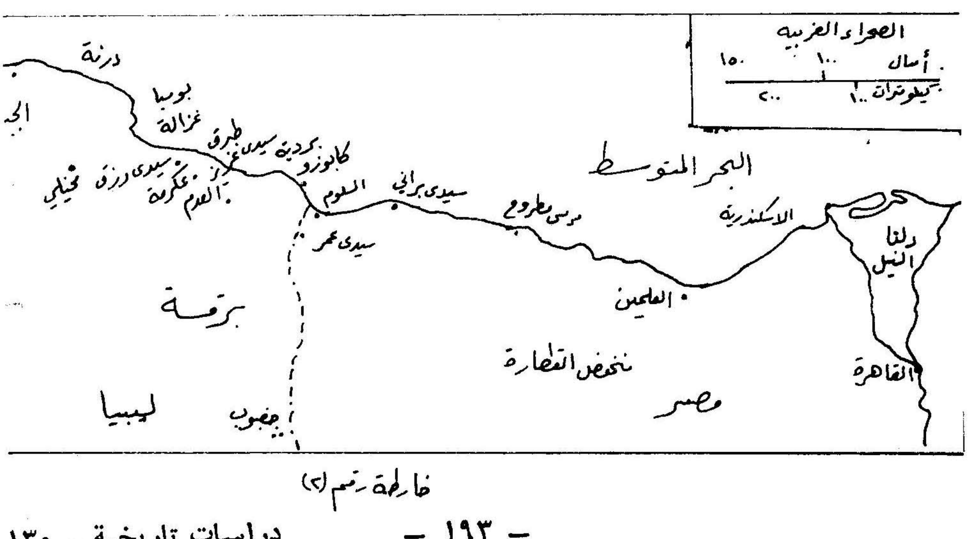
وفي عام ١٩٢٢ترك محمد ادريس برقة الى مصر وحصلت حرب بين السنوسيين والايطاليين بدأت في عام ١٩٢٣ ، وانتهت بأسر عمر المختار قائد المقاومة الوطنيـة في برقـة وذلك في ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٣١ ثم شنقه بعد خمسة أيام ، وكانت حربا غير متكافئة ، تولى قيادة الجانب الايطالي فيها الجنرال غرازياني (Graziani) وتوقفت بنتيجة ذلك المقاومة الوطنية في برقة(٢٢) .

ولم يتمكن الايطاليون الا في نهاية عام ١٩٣١ من السيطرة الكاملة على منطقـة برقة والداخل ، وقد بذلوا جهدهم لاستعمار المنطقة ، وتوجهت الجهود المنظمة نحو الاستغلال والاستيطان مـن قبل الايطاليين في الجبـل الاخضر ، مـن أجل اقامـة مستعمرات لصغار الملاك من الفلاحين الايطاليين ، وتم تأسيس عدد من القرى قبـل اندلاع الحرب العالمية الثانية تضم عددا من المزارع ، يقيم فيها مزارعون ايطاليون على شكل جماعات ذات تنظيم مشترك،ومن أجل ذلك فقد تم طرد المواطنين الاصليين وحرم عليهم رعاية الماشية ، واذا كان سكان برقة قبيل الحرب العالمية الثانية قـد بلغوا حوالي ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة ، فقد كان منهم ما بين ٦٠ الى ٧٠ ألف ايطالي يعملون ضمن المزارع والخدمات المدنية ويملكون ما مجموعه ٨٠٠ر٠٠٠ هكتار(٢٣) .

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، دخلت منطقة شمالي افريقيا



خارطة رقم (١)



خارطة رقم (٢)

بما فيها برقة في ظل متغيرات جديدة نجم عنها في النهاية احتلال بريطانيا لبرقة وطرابلس واحتلال فرنسا لفزان ، فأصبحت ليبيا تحت نفوذ هاتين الدولتين .

والهدف الاساسي من هذه الدراسة يدور حول الاحتلال البريطاني لبرقة والادارة العسكرية البريطانية التي أقيمت فيها والتي أستمرت حتى بعد الحرب العالمية الثانية . ومن الملاحظ أن هذا الموضوع قلما طرقه المؤرخون العرب باستثناء بعض المحاولات مما لا يتعدى صفحات قليلة ، وبعد نهاية الاربعينات من هذا القرن ظهرت مصادر أجنبية وخاصة انجليزية تعرضت للخوض في هذا الموضوع ، وقد اعتمدنا عليها وجعلنا منها الدعامة الاساسية التي بنينا عليها هذه الدراسة .

الاحتلال البريطاني لبرقة :

أعلنت ايطاليا انضمامها الى ألمانيا في الحرب العالمية الثانية في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، وأعلنت الحرب على بريطانيا(٢٤) . وقد أعقب ذلك توقيع فرنسا وألمانيا الهدنة في ٢٢ حزيران (يونيو) من العام نفسه ، وتضمنت شروط الهدنة التي قبلتها حكومة بيتان (Petain) وقف الاعمال الحربية للقوات الفرنسية على الفور(٢٥) .

ان خروج فرنسا من القتال الى جانب بريطانيا ، ثم انشغال بريطانيا في الدفاع عن نفسها ، جعلت موسوليني يشعر بأن أحلامه في السيطرة على البحر المتوسط غاية يمكن تحقيقها(٢٦) ، لذلك أصدر تعليماته الى غرازياني (Graziani) بالاستعداد لغزو مصر ، وكان الالمان على علم بالتطورات التي كانت تتم في برقة من جانب الايطاليين ، وأن هدف ايطاليا هو طرد الانجليز من مصر وتحقيق اتصال بري مع شرق افريقيا(٢٧) .

وعلى الرغم من الحالة الصعبة التي كانت تمر بها القوات البريطانية في مصر ، الا أن التعليمات قد صدرت الى الجنرال ويفل (Wavel) ، قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط بأن يواجه الهجوم الايطالي(٢٨) ، الذي حدث في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٠ ، وذلك عندما اخترقت القوات الايطالية الحدود المصرية ، فوصلت الى سيدي براني ، داخل الحدود المصرية ولم تستطع تجاوزها(٢٩) .

أعد البريطانيون هجوما مضادا ، وضع خطته أوكونر (Oconner) ، وتم دحر الايطاليين واجلائهم عن سيدي براني ، وسقوط طبرق التي أصبح ميناؤها جاهزا لاستقبال السفن الحربية البريطانية(٣٠) ، وانتهى الهجوم البريطاني في بيضا فوم ، بعد أن سقطت بنغازي ودخلتها القوات البريطانية في ٦ شباط (فبراير) ١٩٤١(٣١) ، وقد أدى ذلك الى ما يسمى بالاحتلال البريطاني الاول لبرقة .

على أثر هذه الهزيمة الايطالية ، بدأت المانيا في التحضير لارسال فصائل خاصة من جيشها الى طرابلس(٣٢) ، ووضعت خطة لاحتلال برقة ، وأنيطت المهمة بالجنرال رومل (Rommel)(٣٣) ، الذي دخلت قواته بنغازي ، بعد أن انسحبت القوات

البريطانية خارج حدود برقة ، وتمركزت على جانب الحدود ما عدا حامية صغيرة بقيت في طبرق(٣٤) ، التي بقيت في أيدي البريطانيين ، مع استمرار محاصرتها من ناحية البـر (٣٥) .

قام ويفل بتجهيز عملية عسكرية جديدة ، تعتمد في أساسها على شن هجوم معاكس ، ولكن هذه العملية لم تنجح كما أريد لها ، والشيء الوحيد الذي أنجزه البريطانيون منع سقوط طبرق في يد الالمان ، ولذلك بقيت شوكة في الجانب الالماني(٣٦) .

وعلى أثر ذلك ، حلّ الجنرال أوكنلك (Ouchinleck) محل الجنرال ويفل، الذي اخترقت قواته الحدود المصرية في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ ، واندفعت داخل برقة ، ونجحت في ابقاء طبرق بعيدة عن متناول قوات المحور ، فاضطر رومل في ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ أن يتراجع عنها(٣٧) .

لقد نجحت القوات البريطانية في التقدم نحو درنة ، واستعيدت بنغازي ، وتراجع رومل الى العقيلة ، وحشد قواته في تلك المنطقة المحاذية لاقليم طرابلس(٣٨)، وبذلك استعاد البريطانيون برقة ، وبدأ ما يسمى بالاحتلال البريطاني لبرقة .

لكن أوكنلك لم يستطع قطع خطوط تراجع رومل ، الذي تحرك شرقا في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ ، وهدفه الوصول هذه المرة الى قناة السويس ، فاستعاد القسم الاكبر من برقة واستولى على طبرق في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٢(٣٩) ، واجتازت قواته حدود مصر ، ووصلت العلمين ، التي حدثت فيها المعركة الكبرى بقيادة الجنرال مونتجمري (Montgomery) ، قائد الجيش الثامن البريطاني(٤٠)، الذي استطاع تقطيع أوصال قوات المحور في هجوم عنيف ، مما أجبر تلك القوات على التراجع(٤١) ، واستعادت القوات البريطانية برقة بعد أن انهارت قوات المحور في نهاية تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٤٢ ، وبعد أسبوعين من ذلك تم اجلاء باقي قوات المحور عن ليبيا كلها ،وبذلك تم الاحتلال الثالث والاخير لبرقة من قبل القوات البريطانية(٤٢) .

الاجراءات الادارية العسكرية :

بعد أن تم للحلفاء ، أخيرا احتلال ليبيا ، أقيمت فيها ثلاث ادارات عسكرية ، هي ادارة برقة وادارة طرابلس وادارة فزان ، وتولت بريطانيا ادارة الاقليمين الاولين ، بعد أن فصلتهما عن بعضهما ، وعهد بالاقليم الثالث فزان الى فرنسا ، وكان من الطبيعي أن تكون الادارة عسكرية في أول امرها ، لكن هذه الادارة العسكرية استمرت طويلا بعد الحرب ، فبريطانيا لم تنقل ادارتي برقة وطرابلس من وزارة الحرب الى وزارة الخارجية الا في نيسان (ابريل) ١٩٤٩ ، وان كانت قد أدخلت عنصر الادارة المدنية قبل ذلك بمدة(٤٣) .

لقد حددت مناطق تلك الادارات العسكرية بين بريطانية وفرنسا بموجب اتفاقات عسكرية عقدت بين الدولتين ، كان اخرها الاتفاق الـذي عقـد في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ بين الجنرال الكسندر الانجليزي والجنـرال لوكلرك (Luclerc) الفرنسي(٤٤) ، وكانت الحجة التي استمدت منها هاتان الدولتان شرعية ادارتها لهذه الاقاليم هي معاهدة لاهاي (La Haye Convention) لعام ١٩٠٧(٤٥) ، التي تنظـم ما يحتله العدو من أرض ، وقد منحت هذه المعاهدة السلطات البريطانية والفرنسية سلطات تشريعية وادارية كاملة في انتظار التسوية النهائية عن طريق معاهدة صـلح مع ايطاليا(٤٦) .

والذي يهمنا في هذا المجال هو برقة ، التي بدأت فيها الاستعدادات عن طريق الجنرال ويفل لاقامة ادارة عسكرية بريطانية فيها قبل ان يتم احتلالهـا نهائيـا ، فقد أبرق الى وزارة الحربية البريطانية في ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ أي قبل الهجوم البريطاني على سيدي براني طالبا أن يتركز الاهتمام في المسألة التي ستصبح ملحة وهي ادارة اقاليم العدو ، فطلب في برقيته تلك ان يتم تعيين مديرين ذوي خبرة فيجهازه ويهيىء لهم الدعم المالي والمساندة القانونية . وكان هدف ويفل من ذلك هو ايجاد حكومة عسكرية في برقة مع ادارة محلية تحت اشراف مديرين مؤهلين ذوي خبرة يتبعون قيادته مباشرة ، فخبرة ويفل في الشرق الاوسط واتصاله بقيادةالجنرال اللنبي (Allenby) خلال السنوات من ١٩١٧ الى ١٩١٩ جعلته يتلاءم مع المشاكل التي تبرز في المناطق المحتلة والتي تتصل بالسكان نتيجة للعمليات العسكرية(٤٧) .

ثم أشار ويفل في برقية اخرى تاريخها ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١، بعد ان تم الاحتلال الاول لبرقة الى اقتراح حكومة عسكرية فيبرقة تتبعالانماط التياستعملت خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وما بعدها في الشرق الاوسط ، وذلك بأن تستند مسؤولية حكم المناطق المحتلة للقيادة العسكرية وذلك بالاعتراف بقوانين الحرب الىأن تتـم التسوية النهائية عند انتهاء الحرب ، أي أن القرار النهائي في جميع المسائلالسياسية وتنظيم الحكم يجب أن يتم عن طريق القيادة العسكرية ، وذلك حتى لا تتعارض تلك المسائل مع الضرورات العسكرية ومتطلباتها ، أما رياسة الادارة المدنية فهي مـن مسؤولية رئيس المكتب السياسي ويتولاها بتوكيل من القائد العام شخصيا(٤٨) .

لقد استجابت لندن الى برقيات ويفل في ٣ شباط (فبراير) ١٩٤١ وعينـت فيليب ميتشل (Philip Mitchel) أول ضابط سياسي في برقة ، ومنحتهصلاحية ادارة مناطق العدو المحتلة وتحت اشراف ويفل وبتوافق مع الاحتياجات العسكرية المحلية ، وقـد أدى هذا الى تبني أسلوب الحكم العسـكري الذي اتبعـه اللنبي في فلسطين(٤٩) . واستنادا الى ذلك ، قرر ويڤل فصـل برقة عسكريا عن القيـادة العسـكرية البريطانية في مصـر ، وعين الجنرال ولسون حاكما لبرقة وقائدا عامـا

للقوات البريطانية فيها ، ويتولى ذلك مع وكيل رئيس المكتب السياسي المسؤول عن الادارة المدنية الذي جعل من بنـي غازي مركزا لقيادتـه في ١٨ شـبـاط (فبراير) ١٩٤١(٥٠) .

ولتأكيد فعالية تلك الاجراءات الادارية العسكرية وارتباط الشؤون السياسية بها ، قرر مجلس الحرب في لندن في ٢٠ شـبـاط (فبراير) ١٩٤١ أن تكـون وزارة الحربية البريطانية هي المسؤولة عن ادارة اقليم برقة ، وقد جاءت تلك الخطوة بناء على توصية تقدم بها لورد بريفي سيل (Privy Seal) بعد اجتماع لمجلس الحرب والتي جاء فيها : « ان مؤسسة واحدة فقط يجب ان تكون مسؤولة عن الاقاليم المحتلة وهي وزارة الحربية وليست وزارة الخارجية »(٥١) .

والجدير بالذكر ان الاجراءات الادارية لم تتوقف عند هذا الحد في سبيل الوصول الى ادارة عسكرية بريطانية ، بل تمت اجراءات أخرى في مطلع خريف عام ١٩٤١ ، استعدادا لعملية الاحتلال العسكري الثاني لبرقة ، فقد قام ويفل في ١٤ تشريـن الاول (اكتوبر) ١٩٤١ باعلام وزارة الحربية بعزمه على تنظيم هياكل الادارة العسكرية، فاستدعت تلك الوزارة ستيفن لونج ريج (Stephen Longrigg)(٥٢) ، الضـابط السياسي وعينته على رأس تلـك الادارة(٥٣) . وخلال الاسابيع اللاحقة ، تم اعـداد الضباط الاداريين ، ولاسباب أمنية فان اسماءهم في ذلك الوقت بقيت سرية وأكثرهم كانت لهم معرفة بالعربية وكانوا قد سحبوا من جهاز الاستخبارات ومن أجهزة الامن، وفي أثناء هجوم الجنرال أوكنلك الذي بدأ في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ تحرك العديد من هؤلاء الضباط الى المراكز الرئيسية التي عينت لهم في برقة وخاصة الـى طبرق التي كانت لا تزال تحت حصار قوات المحور ، وكانت مهمـة هؤلاء الضـبـاط الرئيسية هي اجراء الاتصالات مع القبائل(٥٤) .

وفي أيار (مايو) عام ١٩٤٢ عين لونج ريـج رئيس الادارة البريطانيـة حاكما عسكريا لاريتريا وخلفه الكولونيل كمنج (Cumming) الذي كـان يحتـل منصـبا سياسيا هاما في الســودان(٥٥) ، الذي شـرع في وضـع الخطوط الرئيسـية للادارة العسكرية لبرقة ابان الاحتلال الثالث وذلـك في خطاب وجهه الى جميـع الضباط السياسيين والموظفين الاداريين في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢(٥٦) . وفي اليوم نفسه وقع الجنرال مونتجمري مرسوما أعلـن فيه الاحتلال البريطاني لاقليم برقـة . كما وضع مراسيم أخرى بشأن جرائم الحرب وغير ذلك مـن المراسيم التي تتصـل بالاحتلال العسكري ، ولم ينته شهر تشرين الثاني (نوفمبر) مـن عام ١٩٤٢ حتـى كانت الادارات قد انتشرت في كافة أنحاء اقليم برقة ، وحصل رئيس الادارة العسكرية من الجنرال مونتجومري على سلطة اطلاق اسم « الحكومة العسكرية لبرقة » علـى

ادارتـه(٥٧) ، وجاءت تفاصيل الاسس التي قامت عليها تلك الادارة في رسالة نشرها مونتجمري على الشعب في برقـة(٥٨) .

والجدير بالذكر أنه في عام ١٩٤٣ دخلت الادارة العسكرية البريطانية في برقـة مرحلة جديدة فبعد أن كانت المرج مقر هذه الادارة في عام ١٩٤٢ ، أصبحت بني غازي هي المقر في عام ١٩٤٣ ، وتبدل الاسم من الحكومة العسكرية البريطانيـة الى الادارة العسكرية البريطانية وذلك ابتداء من ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٣(٥٩) .

والحقيقة أنه حدثت جملة عوامل سهلت أمور تلك الادارة، فلقد غادر المستوطنون الايطاليون برقة بعد الاحتلال الثالث والاخـير مخلفين البلاد كلها في أيـدي السلطات البريطانية ، وهذا الاختفاء النهائي للايطاليين في برقة مع ادارتهم في عام ١٩٤٣ سهل قيام الادارة العسكرية البريطانية فيها ، وسهل أيضا اقامة نظام يتم التعامل بوساطته مع السكان الاصليين ، ثم تطور هذا النظام بشكل مشابه لمناطق كثـيرة في السودان المصري الانجليزي(٦٠) . وانطلاقا من هذه النتيجة أرسل كمنج رئيس الادارة العسكرية في برقة مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية أوصى فيها أن تكون معاملة برقة بطريقة أفضل من معاملة المستعمرات الايطالية الاخرى ، فقد اقتـرح أن تنتهي السـيادة الايطالية وأن يكف عن اعتبار – عرب برقة رعايا ايطاليـين – ، وأن تلغى القوانـين والمحاكم الايطالية ، تستبدل بها قوانين ومحاكم جديدة تناسب مجتمعا عربيا(٦١) .

كذلك ادرك الانجليز أن العرب في ليبيا لم يكونوا أعداء لهم ، فوضعت الادارة العسكرية البريطانية نصب عينيها معاملة السكان على هذا الاعتبار ، وقد تمثل ذلك بصورة واضحة في خطاب ألقاه كمنج في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ في برقـة بعد تسلمه ادارة الاقليم جاء فيه : « تبرز برقة سمات خاصة بها ، فالبرغم من اعتراف بريطانيا العظمى وغيرها من الحكومات بالسيادة الايطالية عليها ، فالسـكان العرب ليسوا أعداءنا ، فالعرب على العموم ، قاموا بمساعدتنا ، ووقفوا الى جانبنا بوسائلهم الهزيلة معرضين أنفسهم للمخاطر التي تترتب على هجرهم الايطاليين ومساعدة وكلائنا، واخفائهم ، ومساعدة أسرى الحرب على الهرب(٦٢) .

ثم برز عامل آخر تمثل في انشاء مراكز قيادية في القاهرة للاشتراك في النشاطات المقبلة التي كانت ترسم مـن أجل برقة ، لقـد كان العديد من الاسس التي وضعت للادارة العسكرية البريطانية قد صيغت في القاهرة من المسؤولين البريطانيين فيها ، وهذا أسهم في تأسيس علاقات ودية مع السيد محمد ادريس السنوسي الذي كان مقيما في القاهرة والذي كان على صلة بمجريات الامور في برقة كزعيم سياسي وديني، بالاضافة الى تأسيس علاقات ودية مع غيره من الزعماء الذين طردوا من برقة خلال الحكم الايطالي، ولا شك أن هذه العلاقات الودية أسهمت في تسيير دفة الادارة العسكرية في برقة(٦٣) مما جعل هذه الادارة تقيم خدمة مدنية أهلية سنة ١٩٤٣، وقد اتبعت هذه السياسة

لتشجيع العرب على شغل المناصب ذات المسؤولية ، فقد بحثت تلك الادارة عن أولئك الذين عملوا مع الادارة الايطالية والمنفيين الذين عادوا الى بلادهم(٦٤) ، كذلك لابد أن نشير الى انعدام الاقليات القومية في برقة قد جعل العمل أسهل والتفاهم مع أهل البلاد أسرع فكان ذلك بدوره عاملا سهل عمل الادارة العسكرية البريطانية في برقة(٦٥) .

وانطلاقا من الاسس السابقة التي قامت عليها الادارة العسكرية البريطانية في برقة ، استطاعت بريطانيا من خلال تلك الادارة أن تتصدى للمشكلات التي واجهتها وان تقوم بالعديد من المنجزات ونتعرض لذلك كما يلي:

النظام الاداري والقضائي :

كانت برقة في العهد الايطالي مقسمة الى منطقتين ، درنة وبني غازي الخاضعتين لاشراف مباشر من طرابلس ، أما في عهد الاحتلال البريطاني ، فقد أصبحت تحت الادارة العسكرية البريطانية وحدة منفصلة وقسمت أولا الى سبعة أقضية هي :المرج واجدابية والشحات ودرنة وطبرق والكفرة ومدينة بني غازي ومنطقتها ، ثم جمعت في ثلاثة أقسام وهي بني غازي والجبل ودرنة(٦٦) .

وبناء على هذا التقسيم ، عين في كل بلد موظف بريطاني يقوم بشؤون الادارة يعاونهم تسعة ضباط بريطانيون فضلا عن ثلاثة معاونين آخرين يطلق عليهم اسم « نائب المتصرف » من الليبيين ، ومن دونهم آخرون منهم تسعة قائمقامين و ١٧ مديرا و ٤ نواب مدير وكلهم من الليبيين ، أما واحات الكفرة فيقوم على ادارتها ضابط للشؤون المدنية (٦٧) .

كذلك تكون مجلس تنفيذي في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٩٤٨ في بني غازي عدد أعضائه سبعة بريطانيين وخمسة ليبيين كمستشارين لهيئة الادارة ، وانشيء في بني غازي والمرج ودرنة مجالس بلدية من الليبيين ذات سلطات مالية وتشريعية محدودة (٦٨) .

وكان عدد الموظفين الذين يتقاضون مرتبات في عام ١٩٤٨ كالاتي(٦٩):

	بريطانيون	أجانب	ليبيون
ضباط عسكريون أو مدنيون	٩٠	٨	—
غير ذلك	٢٥	٨٣	٧٥٨
المجموع	١١٥	٩١	٧٥٨

أما بالنسبة للقضاء ، فان الذي يتولى شؤونه هو القائد الاعلى للقوات البرية في الشرق الاوسط ، ويتولى مندوبون عنه السلطة وشؤون الادارة بواسطة ضابط الشؤون المدنية ، ويتولى هذه السلطة عن رئيس الادارة المسؤول رأسا عن ادارة البلاد(٧٠) .

والجدير بالذكر ، أن القوانين التي كانت سائدة في برقة في عهد الادارة العسكرية البريطانية أربعة قوانين . الاول منها القانون البريطاني ، وكان ينفذ بواسطة اعلانه أو تنظيمه من قبل رئيس الادارة الخاضع لسلطة القائد الاعلى للقوات البرية في الشرق الاوسط ، والثاني هو القانون المدني الايطالي ، فقد أعلن رئيس الادارة في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥ أن جميع القوانين التي كانت سارية في برقة قبل هذا التاريخ تبقى كما كانت ما عدا القوانين التي كانت معلقة والقوانين التي كانت تتعارض مع ما تصدره القيادة العسكرية البريطانية ، وما عدا القوانين التي توجب الضرورة تعديلها أو ما تقتضيه ظروف الاحتلال ، لذلك بقي القانون المدني والتجاري الايطالي ساري المفعول ، والثالث هو الشريعة الاسلامية وتطبقها المحاكم الشرعية ، والرابع يتمثل في القوانين اليهودية وتطبقها المحاكم الملية اليهودية(٧١) .

وبناء على هذه القوانين ومن أجل تطبيقها ، فقد كانت في برقة المحاكم التالية : المحاكم العسكرية البريطانية ، وانشئت في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ ، وهي محاكم عسكرية عامة ذات سلطات رئيسية ، ومحاكم ابتدائية عامة ذات سلطات محدودة . المحاكم الشرعية ، وتنظر في شؤون الشريعة الاسلامية ويرأسها قاض تعينه الادارة العسكرية البريطانية ، وانشئت محكمة استئناف شرعية عليا برئاسة قاضي القضاة . المحاكم اليهودية ، وتنظر في شؤون الطائفة اليهودية . المحاكم الاهلية ، وقد انشئت في أول يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٤٨ لتحل محل محاكم البلدية التي انشئت في شباط (فبراير) ١٩٤٦(٧٢) .

الامن الداخلي :

كانت قوات البوليس في العهد الايطالي مقسمة الى قسمين : أولهما القسم المسمى الكاربنيري Carabinieri الشرطة الملكية ، والثاني البوليس الافريقي ، وفي عهد الادارة العسكرية البريطانية ومنذ البداية كان لا بد من ايجاد قوة بوليس جديدة ، ولما وجدت تلك الادارة نقصا في ضباط البوليس المدربين وقوة البوليس الجاهزة استبقت الكاربنيري لفترة في بني غازي والمرج خاصة في مراقبة المرور(٧٣) ، ثم وضعت خطة للاستفادة من الكتائب الليبية السنوسية التي كانت قد جندت في مصر من اللاجئين من برقة بعد اندلاع الحرب(٧٤) ، كنواة لقوة بوليس ليبية ، وأخذت فصائل هذا التنظيم تصل الى المراكز التي عينت لها بعد اخلاء برقة نهائيا من قوات

المحور وبدأ تحويلها مـن جنود الى شرطة(٧٥) ، ويعتقد رايت (Wright) في كتابه أن تشكيل قوة البوليس الليبية بهذا الشكل كان أكثر انجـازات الادارة العسكريـة البريطانية نجاحا ، فقد نظمت علـى الاسس نفسها التي نظمت عليها قوات البوليس في المستعمرات البريطانية الاخرى(٧٦) .

ثم حلت هذه وأنشت قوة دفاع برقة « التي أصبحت مسؤولة عن جميع أعمال البوليس في انحاء البلاد كافة ، وفضلا عن قيامها بأعمال البوليس العادية تقوم أيضا بالمحافظة على الموانيء وحماية الغابات وأعمال السجون ، وكان عدد قوة الدفاع تلك في عام ١٩٤٨ ، ٢٩ ضابطا ومفتشا بريطانيا و ٧١٦ شخصا من الوطنيين من ضباط وجنـود »(٧٧) .

بخصوص حالة الامن في برقة فيذكر رود (Rodd) في كتابه أن الامن كان مستتبا بصورة غير متوقعة على الرغم من تسلح الاهالي ، ويضع أسبابا لذلك وهي : رحيل المدنيين الايطاليين والانضباط الذي أظهره رجال البوليـس والدعـوة التي وجههـا السيد محمد ادريس السنوسي من القاهرة الى أهالي برقة والتي طلب منهم فيها ترك الخلافات التي كانت قد تراكمت في العهد الايطالي ، واهتم أهالي برقة برغبتـه تلك اهتماما ملحوظا ويضيف « رود » أنـه لم يحدث في برقـة في عهد الادارة العسـكرية البريطانية سوى ٦٠ حالة قتل ، و ٤٨٢ حالة سطو في جميع أنحاء اقليم برقة ، في الوقت الذي لم تجر أية محاولة لتجريد السكان من السلاح ، اذ وجد الكثير مـن الاسلحة والذخائر في الصحراء بين أيدي البدو(٧٨) .

الا أن كيرك (Kirk) يذكر في كتابه أنه جرى خرق للنظام والقانون في منطقـة الجبل الاخضر حيث كان الليبيون قد جردوا من اراضيهم من أجل المشاريع الايطالية الاستيطانية ، وفي بداية الاحتلال البريطاني النهائي أرادوا استعادتها بالقوة . وكانت هذه هي المشكلة الرئيسية التي واجهت البوليس ، ويضيف كيرك الى ذلك ان الادارة العسكرية البريطانية توصلت الى قرارت أدت الى حل تلك المشكلة(٧٩) .

الناحية الماليـة :

كانت الليرة الايطالية (Italian Lire) هي العملة المستعملة قبل عهد الاحتلال البريطاني ، ومنـذ بدايته استعملت العملـة المصرية كعملة رسـمية ، ولكن الليـرة الايطالية ظلت مستعملة حتى ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥ حتى صدر القرار رقم ٩٣ الذي أقر الجنيه المصري بأنه الجنيه الرسمي . أما المذكرة العامة رقم ٤٨ الصادرة في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥ فقد سمحت باستعمال العملة الايطالية من ورق نقدي وغيره من فئة عشر ليرات فما دون لتدفع في داخل البلاد حتى ١٠٪ من قيمة الدين(٨٠) .

وحتى ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٥ سمح باستعمال الليرة الايطالية من قيمة عشر ليرات فما فوق لشراء الاطعمة من الادارة العسكرية البريطانيــة ، بحيث يعادل الجنيه الاسترليني ٤٨٠ لـيرة والجنيه المصري ٤٩٠ . وليس هناك احصاء للعملـة الايطالية المتداولة بالليرة في بداية الاحتلال البريطاني ولكن يقـدر ما سـحبته الادارة العسكرية البريطانية من عملة متداولة منذ بداية الاحتلال حتى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٥ بنحو ٢٠٢ر٨٤٧ر٤٣٧(٨١) . ويذكر « رود » أن المبلغ الاجمالي لليرات الايطالية التـي استلمتها الادارة خلال عام ١٩٤٣ بلغ ٢٢٧ مليون ليرة ايطالية تقريبا ، وبقي من هـذا المبلغ تحت تصرف الادارة ٥١ مليون ليرة في ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٣(٨٢) .

وعندما انتهى التعامل بالـليـرة الايطالية عام ١٩٤٥ ، لم يكن في البـلاد رصيد لعملتها الرسمية ، فعمدت الادارة العسـكرية في برقـة الى سد حاجتها من العملـة الرسمية وذلك بالحصول عليها من البنك الاهلي المصري بترخيص من الحكومة المصرية وعلى أن تصدر تلك العملة عن طريق بنك باركليـز Barclays في بني غازي حسب تقديرات الادارة العسكرية البريطانية . وكانت في هذا البنك ميزانية تقابل الاحتياجات العاديــة(٨٣) .

وقد قدرت العملة المتداولة في عام ١٩٤٨ بنحو ٠٠٠ر٣٠٠ر١ جنيه مصري ، في حين قدرت العملة التي دخلت البلاد رسميا منذ الاحتلال كما يلي(٨٤) :

تموز (يوليو) ١٩٤٣	٠٠٠ر٣٠٠ جنيه مصري
متبقى ١٩٤٣	٠٠٠ر٨٠٠ جنيه مصري
متبقي ١٩٤٤	٠٠٠ر١٠٠ جنيه مصري
متبقي ١٩٤٥	٠٠٠ر١١٠ جنيه مصري
متبقي ١٩٤٦	٠٠٠ر٢٦ جنيه مصري
متبقي ١٩٤٧	٠٠٠ر٣٦ جنيه مصري
متبقي ١٩٤٨	٠٠٠ر٣٦ جنيه مصري
المجمـوع	**٠٠٠ر٤١٢ر٢ جنيه مصري**

أما بالنسبة للبنوك ، فقد كان في برقة ثلاثة منها أيام الحكـم الايطالي ، وبعـد الاحتلال البريطاني الاول هجرت هذه البنوك واختفى موظفوها ومعهم معظـم النقد والسجلات ، وعندها استقدمت الادارة العسكرية البريطانية مسؤولا من بنك باركليز

في فلسطين ، فرفع تقريرا أنه لم يبق سوى القليل من الكوادر البنكية الايطالية في برقة لدرجة أنه من غير الممكن اعادة تشغيل تنظيم بنكي على النمط الايطالي(٨٥) ، لذلك قامت السلطات البريطانية بفتح فرع من بنك باركليز سنة ١٩٤٣ ، أصبح المصرف الوحيد في برقة الذي يقدم تسهيلات لمدة قصيرة الاجل ، لكنه لا يقوم بتقديم سلف للتجار أو الزراع ، كما أنه لا يدفع فوائد على الاموال المودعة(٨٦) .

هذا وقد كان التعامل بالعملة الاجنبية ، بجميع أنواعه بما فيها العملة المصرية ، يخضع لرقابة الادارة العسكرية البريطانية وهي سياسة اتبعتها تلك الادارة منذ البداية، وطبقت على بنك باركليز . لذلك لم يكن هذا البنك يستطيع تصريف أمواله للخارج دون اذن ، وهذا ما أدخل برقة ضمن نطاق الاسترليني والتحويلات اليها مسموح بها، وطبق تقديرات الادارة العسكرية البريطانية كانت المبالغ المدفوعة في الخارج عن طريق بنك باركليز ٩٧ر٩٪ خلال عام ١٩٤٧ الى البلاد الداخلة نطاق الاسترليني و٧٠٪ منها الى مصر و ٢ر١٪ الى بلاد خارج الاسترليني(٨٧) .

ومما يجدر ذكره أن اقليم برقة تمتع بمركز ممتاز فيما يتعلق بالتبادل مع مصر، اذ أن بائعي الماشية، وهي من صادرات الاقليم الرئيسية ، الى مصر كان مسموح لهم باستثمار ٥٠٪ من معاملاتهم في بضائع مصرية دون الرجوع الى موافقة مراقبة النقد بصرف المال ويسهل الحصول على العملة الخارجية لدفع ثمن الواردات التي كانت تعتبرها الادارة العسكرية البريطانية أساسية(٨٨) .

أما بخصوص الميزانية ، ففي خلال فترة الادارة العسكرية البريطانية وحتى ٣٠ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٧ بلغت المساعدات التي قدمتها الحكومة البريطانية ١٠٫٧٥٠٫٦٩٨ جنيها وهذا ما يوازي ٢٦٪ من مجموع المنصرف وهو كالاتي:

	جنيه
المدة التي نهايتها ٣١ حزيران (يونيو) ١٩٤١	٨٥٧ر٩
المدة التي نهايتها ٣١ حزيران (يونيو) ١٩٤٢	٥٤٧ر٤٥
السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٣	٠١٠ر٣٧٣
السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٥	٩٧٧ر٣٩٨
السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٦	٨٠٢ر١١٩
السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٧	٢٤٠ر٤٤٥

وقد قدرت الميزانية للسنة المنتهية في ٣٠ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٨ بنحو ٢٥.٢٦٥ر٢ جنيها ، أما الدخل فبلغ ٢٥.٩٢٠ر١ جنيها مما استلزم مساعدة بلغت ٠٠٠ر٣٤٥ جنيه(٨٩) .

وبخصوص الضرائب فقد تقرر بعد الاحتلال البريطاني انه من الاصلح التخلي عن الضرائب المباشرة بوجه عام للمساعدة على انعاش البلاد من اضرار الحرب ، وطبقا لذلك فان مساهمة السكان ازاء نفقات الادارة العسكرية أمكن الحصول عليه كله عن طريق الضرائب غير المباشرة ما عدا ارباح التجارة التي ادخلت في مايو سنة ١٩٤٦، وهذه الضرائب فرضت على كل شخص مصرح له بالتجارة أو أعمال مالية أو وظيفية في منطقة من مناطق المجالس البلدية بنسبة ٣٪ من الدخل السنوي من هذا النشاط، ومع أن هذه الضرائب تجمع تحت نفوذ الادارة البلدية وقانون المجالس في المدن فان المحتصل من الضرائب يؤخذ الى دخل الادارة العامة(٩٠) .

وكانت الادارة العسكرية البريطانية قد ادخلت منذ عام ١٩٤٤ تعرفة مبسطة للضرائب ، وقد أعيد سن هذه الضريبة عام ١٩٤٥ ، كما صدر أمر رقم(١٤)، اصبح نافذ المفعول منذ أول مايو سنة ١٩٤٦ ، يعلق بضرائب المجالس البلدية والمصاريف المتصلة بها(٩١) .

التجـــارة :

توقفت تجارة برقة مع مصر في العهد الايطالي لاسباب سياسية واقتصادية ، واجبر أهاليها على تحويل تجارتهم الى ايطاليا والاعتماد على التجار الايطاليين ، وكان انتاجهم قد توقف لمصادرة أفضل اراضيهم من أجل اقامة المستعمرات لاستيطان الفلاحين الايطاليين(٩٢) ، وفي الاحتلال البريطاني الاول لبرقة ، اتخذت الخطوات من قبل مراقب المالية والحسابات في القاهرة لاعادة التجارة مع مصر ، وبمساعدةالمكتب البريطاني للتجارة في الاسكندرية وضعت الخطوات التنفيذية ، واستعد عدد من التجار لتوريد البضائع الى برقة وخاصة المواد الغذائية ، وقد تم شحن هذه البضائع الى برقة عن طريق البحر الى المخازن العسكرية ليتم توزيعها عن طريق سلطات الادارة العسكرية البريطانية(٩٣) .

ثم بدا في عام ١٩٤٣ ،أن التجارة متوقفة تماما ، فعملية الشحن الى خارج البلاد كانت غير ممكنة وخاصة شحن الحبوب والصوف ، وكذلك عدم امكانية استيراد البضائع المصنعة ، مما أدى الى تزايد الشكوى الرئيسية للتجار والمنتجين الذين

كانوا يعيشون على ما يمكن بيعه لجيش الاحتلال ، وزاد الحالة سوءا النقص الحاد في النقل(٩٤) . ولذلك — في نهاية عام ١٩٤٣ — تقدم مجلس بلدي بني غازي بالتماس الى الادارة العسكرية البريطانية ، يحتج فيه على الركود العام للتجارة ، وقد أجابت تلك الادارة على ذلك « بأن هذا الركود خارج عن نطاق سيطرتها ، وأنه يعود الى قوانين الاستيراد والملاحة التي يشرف عليها الحلفاء والناجمة عن الحالة التي كان يعيشها العالم آنذاك »(٩٥) .

وأمام هذا الواقع الذي كانت تعيشه برقة من ناحية التجارة ، قامت الادارة العسكرية البريطانية بالغاء امتيازات التعرفة الجمركية ووضعت رخصة للاشياء التي تصدر أو تستورد ومنحت تسهيلات خاصة للبضائع المستوردة من اقليم طرابلس ومن مصر(٩٦) .

وبالنسبة للواردات ، فأهم ما كان يستورد الحبوب بمشتقاتها ، والمواد الغذائية والبضائع المصنعة التي كانت يفضل الحصول عليها من البلاد الداخلة في نطاق الاسترليني ، ومنذ عام ١٩٤٧ وضعت الحكومة البريطانية قيودا على البضائع المستوردة(٩٧) .

الواردات (القيمة بالجنيه الاسترليني)(٩٨)

(أ) حبوب (ب) مواد غذائية اخرى (ج) بضائع اخرى

١٩٤٣			١٩٤٤			١٩٤٥		
آ	ب	ج	آ	ب	ج	آ	ب	ج
	١٠٣	٤٨ر٠٢٩		١٦٦ر١٢٤	١٥٩ر١٤٥		٥٣٣ر٩٠٩	٤١٢ر٩٥٢

أما فيما يختص بالصادرات ، فقد شجعت الادارة العسكرية البريطانية تصدير ما يزرعه الاهالي من خضراوات وما ينتجونه من منتوجات حيوانية ومواد مصنعة وذلك بمنحهم رخص لتصدير الزائد من منتوجات البلاد(٩٩) .

الصادرات (القيمة بالجنيه الاسترليني)(١٠٠)

(أ) خضروات ومنتوجات حيوانية (ب) منتوجات مصنعة (ج) معادن ومنتوجات اخرى

السنة	أ	ب	ج
١٩٤٣	١٤ر٢٨٠	٣ر٧٦٧	
١٩٤٤	٩٩ر٢٥٥	٥٢ر٢٧٠	٥٢ر٠٠٦
١٩٤٥	٢٧٠ر٩٦٠	١٢ر٠١٨	١٥٨ر٨١٧

الناحية الزراعية :

منذ الاحتلال البريطاني الاول ، ترك المستوطنون الزراعيون من الايطاليين مزارعهم في برقة لخوفهم من انتقام العرب أصحاب الارض والذين كانوا قد جردوا منها ، وقد حاول الضباط السياسيون البريطانيون حثهم على استئناف العمل ، الا أن تلك المحاولة لم تنجح ولذلك جاء في رسالة مونتجومري الى أهالي برقة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ أن يقوم هؤلاء بحماية المزارع الايطالية المهجورة ويعملون على فلاحتها حسب مايستطيعون(١٠١) .

ثم قامت الادارة العسكرية البريطانية من ناحيتها بانشاء دائرة الزراعة وعلى أساس انها تابعة لها وانيط بها مايلي :

١ ـ مشروع سهل المرج : أصبح هذا المشروع أهم النشاطات الزراعية التي كانت تجرى في عهد الادارة العسكرية البريطانية ، وكجزء من خطة عامة لزيادة المنتوجات الغذائية في الشرق الاوسط ، بحيث يتم تزويد برقة باحتياجاتها ثم يصدر الفائض، لذلك تعهدت دائرة الزراعة بزراعة الاراضي التابعة للدولة بالاضافة الى الملكيات الخاصة الواقعة داخل منطقة سهل المرج ، وفي هذا السهل وحده ٣٠ ألف هكتار صالحة للزراعة ، ويمكن استغلالها بالطرق الحديثة ، وكانت هذه الاراضي في معظمها قد جردت من مالكيها الاصليين في عهد الايطاليين واعطيت لجهاز الانتي (Ente) (١٠٢) .

ولكن منذ شهر آذار (مارس) ١٩٤٣ ، بدأت تظهر في سير المشروع نواقص في الجهاز المشرف عليه وفي الآلات ، لذلك قام اثنان من ممثلي « مركز تموين الشرق

الاوسط » بدراسة للمشروع ووضعوا تقريرا أوصوا فيه بزراعة ١٢ ألفهكتار من القمح والشعير في سهل المرج ، وفي حزيران (يونيو) من السنة نفسها وافقت وزارة الحربية البريطانية على تنفيذ المشروع وأنيط بالكولونيل ج. فلمنج (G. Fleming) تنفيذه وبمراقبة مباشرة من الادارة العسكرية البريطانية ، واشترك في التنفيذ أربعة من الضباط البريطانيين ومجموعة من أسرى الحرب تم تحويلهم الى عمال زراعيين ، مما أتاح الفرصة لنجاح مشروع سهل المرج ، ولم يتم فقط زرع مزارع القمح الايطالية وحصادها ، بل تم في نهاية عام ١٩٤٣ حراثة وزراعة ١٠٫٨٦٣ هكتار بالقمح والحنطة، وفي نهاية تلك السنة وافقت وزارة الحربية البريطانية على توسيع المشروع لكي يشمل ٢٠٫٠٠٠ هكتار في موسم ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥(١٠٣) .

٢ ـ صيانة أماكن الاختبار الزراعي في بني غازي ودرنة والمرج وغيرها من المراكز التي كان قد تم انشاؤها سابقا من قبل الايطاليين ، وقامت دائرة الزراعة بالاشراف المباشر على تلك المراكز كي تزود المزارعين بما يحتاجونه من البذور والفسائل، وعمدت أيضا دائرة الزراعة الى تأجير المزارع الصغيرة العائدة الى المستوطنين الايطاليين والتي بلغت حوالي ١٧٠٠ مزرعة الى المزارعين من العرب مع اعانتهم فنيا(١٠٤) .

وجاء في التقرير السنوي للادارة العسكرية البريطانية لعام ١٩٤٧ ، أن دائرة الزراعة قامت بزراعة ١٢٫١٤٦ هكتار وفقا لطرق الزراعة الحديثة من مجموع الاراضي التي استولى عليها الايطاليون سابقا والتي بلغت ٧٩٫٨٣٢ هكتارا ، وأعطت ٦٢٫٠٠٠ هكتارا للعرب بمقتضى نظام سنوي بلغ ٧٤٫١٤٦ هكتارا(١٠٥) .

الناحيـــة التعليميــة :

عند احتلال الجيوش البريطانية للبلاد ، وجدت جميع المدارس مقفلة والابنيـة مهدمة ، ولذلك لم يكن من السهل فتح مدارس في برقة بالسـرعة التي كان يريدهـا الجميع ، واضافة الى ما سبق فان قلة المعلمين كانت من ضمن المعوقات أيضا ، ذلك أن الاحتلال الايطالي لليبيا قضى بتجهيل الناس لا تعليمهم(١٠٦) .

وقد تصدت الادارة العسكرية البريطانية لهذه المشكلة ، فقامت ببعض الخطوات، وحدث تطور في عملية التعليم لكنه كان بطيئا ، ففي حزيران (يونيو) ١٩٤٣ دعيت لزيارة البلاد مجموعة من الموظفين الرسميين يمثلون دائرة التعليم السودانية ، وبناء على تقرير وضعته تلك المجموعة فقد استخدم في نهاية عام ١٩٤٣ من المدرسين ٤٨ لتعليم ٢٣٠٠ طالب ، وكان تدبير المـواد التعليمية هو العائـق الرئيسي في العمليـة التعليمية ، وأمكن تدبير ذلك بالتعاون مع الحكومة المصرية ، ثم استعانت الادارة

العسكرية البريطانية بالخبرات العربية فاستقدمت بعض المدرسين المصريين للتعليم في المدارس القليلة التي أنشأتها في برقة ، وصارت البرامج المصرية هي السائدة في التعليم حتى زوال تلك الادارة(١٠٧) .

وحول المدارس ، فقد تم في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٤٦ فتح ست مدارس ، وفي عام ١٩٤٨ أصبح هناك ٥١ مدرسة مفتوحة في البلاد اضافة الـى ٢٦ مدرسة قرآنية ، وكان تقسيم المدارس على نمطين :

المدارس الخاصة : مدرسة كاتدرائية واحدة فيها ١٥٠ طالبا (من العرب واليهود والمسـيحيين) .

المدارس الحكومية : ٤٦ مدرسة عربية فيها ٥٨٥١ طالبا(١٠٨) .

ويبدو أن السياسة التي وضعتها بريطانيا في برقة عن طريق ادارتها العسكرية تعكس سياسة بريطانية موجهةالى انشاء درجة كبيرة منالاستقلال الذاتي في برقة(١٠٩)، مثلما تعكس سياسة بريطانية قائمة على الفصل بين برقة وطرابلس وتقريب العناصر التي لا تقاوم النفوذ البريطاني بل ترحب به ، وقد فرقت الادارة العسكرية في المعاملة بين الاقليمين ، فسياسة الانجليز في برقة غيرها في طرابلس ، « ففي برقـة أباحـوا التعامل بالعملة المصريةورفعوا الرقابة عنالممتلكات وأباحوا تصدير التجارة واستيرادها الى حد ما ، وتوسعوا في توظيف أبنائها في وظائف الحكومـة وأدخلوا على التعليـم تحسينات ، أما في طرابلس فلا يوجد شيء من هذا »(١١٠) .

وكان من المقرر أن لا يطول العهد بالادارة العسكرية البريطانية في برقة ، فتنتهي بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، الا أن ذلك لم يتم واستمرت هذه الادارة قائمة بالشكل الذي بدأت به حتى ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩ عندما منحت بريطانيا برقة الاستقلال الذاتي ، بعد أن أصدر رئيس الادارة العسكرية البريطانية دوكاندول de Candol البيان رقم (١٨٧) بعنوان « أمر السلطات الانتقالية » وقد جاء مطابقا للسياسـة البريطانية بتشجيع الاستقلال الذاتي في برقة ، وتحول رئيس الادارة في برقة الـى المقيم العام(١١١) ، فدخلت برقة نتيجة لذلك في مرحلـة جديدة بالنسـبة للاحتلال البريطـاني .

الخاتمـــة :

كان لموقع برقة الجغرافي أثر كبير على تاريخها على مر العصور ، خاصة وأنهـا واقعة على حدود مصـر الغربية ، لذلك ارتبط تاريخها قديما بمصر ، وازداد هـذا الارتباط قوة عندما دخلت برقة ضمن عملية الفتح العربي .

وفي العصر الحديث تنازع تاريخها تيارات سياسية عديدة ، وكانت تتبع طرابلس أحيانا وتنفصل عنها أحيانا أخرى . وكان للقبائل البدوية ـ العنصر الغالب على سكان برقة ـ شأن كبير فيها ، لا سيما بعد أن انتشرت السنوسية فيها ، منذ منتصف القرن التاسع عشر واستطاعت تنظيم هذه القبائل سياسيا وعسكريا ، وتمكنت من سد الفراغ الذي نجم عن تخلي الدولة العثمانية عن برقة وباقي أقاليم ليبيا بعد التوقيع على معاهدة أوشي ـ لوزان عام ١٩١٢ مع ايطاليا .

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية وانضمام ايطاليا الى معسكر المحور ، حدث الصدام العسكري بين بريطانيا المسيطرة على مصر وايطاليا المسيطرة على برقة ، فبريطانيا ترغب في حماية وجودها في مصر وتخشى خطر ايطاليا عليها ، وايطاليا في ظل حكم موسوليني ترغب في الوصول الى قناة السويس وتثبيت أقدامها في شرقي البحر المتوسط . ونجم عن ذلك حرب في برقة امتدت سنتين (١٩٤٠ ـ ١٩٤٢) ، ودخل الالمان ضمن هذه العملية ، حيث شعروا بخطورة موقف حليفتهم ايطاليا ، واشتركوا في العمليات العسكرية بفاعلية ، الا أن تلك الحرب حسمت لصالح بريطانيا وتم الاحتلال البريطاني الثالث والاخير لبرقة عام ١٩٤٢ ، ثم خروج قوات المحور من جميع أقاليم ليبيا عام ١٩٤٣ .

وقد أعقب ذلك انشاء ثلاث ادارات عسكرية ، اثنتان منها بريطانيتان في برقة وطرابلس وثالثة فرنسية في فزان . وكانت الادارة العسكرية البريطانية في برقة منفصلة تماما عن تلك التي في طرابلس واستطاعت بريطانيا من خلال ادارتها العسكرية في برقة أن تسير في حل المشكلات التي واجهتها بدون عوائق ، حيث اجتمعت عوامل عديدة ساندت في ذلك الادارة البريطانية في برقة حتى عام ١٩٤٩ حيث منحت بريطانيا برقة الاستقلال الذاتي .

* * *

الهوامش

(١) Despois (J.). «Barka», in : **The Encyclopaedia of Islam** (New Edition) , Vol. 1, Brill, Leiden 1960 , p. 1048 .

وانظر : خارطة رقم (١) .

(٢) لمزيد من المعلومات حول ذلك انظر : ابراهيم نصحي ، مصر في عهد البطالة ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ١ ، ص ٨٠ – ٨٦ .

(٣) Despois, in : E. I. , Vol. 1, p. 1049 (Art: Barka) .

ولمزيد من التفصيلات انظر : عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥٢٦ – ١٩١٦، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٨٠ .

(٤) Rossi, Ettor'e., **Storia di Iripoli edella Iripolitania,** Roma 1968, pp. 141 - 142 .

(٥) ستودارد ، لوثروب : حاضر العالم الاسلامي، نقله الى العربية عجاج نويهض ، وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة ، بقلم الامير شكيب أرسلان ، دار الفكر : بيروت . (د.ت) ، جـ ٢ ، ص ١١٢ .

(٦) كورد ، فرانشسكو : ليبيا أثناء العهد العثماني ، ترجمة خليفة محمد التليسي ، طرابلس ١٩٧١ ، ص ٢٩ . ولمزيد من التفاصيل ، انظر : أحمد النائب ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، طرابلس (د.ت) ، ص ١٩٩ .

(٧) رأفت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٢٢٩ .

(٨) Anderson, Lisa : **The State and Social transformation in Tunisia and Libya , 1830 - 1980** , Princeton 1986 , p. 90.

(٩) نشير هنا الى أن جميل أبو النصر يطلق على هذه الفترة الواقعة ما بين ١٩٨٧ و ١٩١١ في برقة بالادارة التركية ـ السنوسية انظر حول هذا الموضوع :

Abun - Nasr, Jamil : **A History of Maghrib** , Cambridge 1975 , 303 - 307 .

(١٠) محمود الشنيطي : قضية ليبيا ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٣٤ .

(١١) Bagnold, R. A., **Libyan Sands,** London 1942 , pp. 198 - 190 .

(١٢) هنري أنيس ميخائيل : العلاقات الانجليزية الليبية مع تحليل للمعاهدة الانجليزية الليبية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٠ .

(١٣) حول هذا الموضوع انظر : أحمد صدقي الدجاني ، الحركة السنوسية ، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٨٦ – ٨٧ . وأيضا :

Ziadeh , Nicola : Sanusiyah , **A Study of Revivalist Movement of Islam** , Leiden 1968 , p. 46.

(١٤) Pritchard, Evans : **The Sanusi of Cyrenaica,** Oxford 1949, pp. 13 - 14 .

(١٥) Nyrop , R . F . and Others : **Area Handbook far Libya Libya a country Study** , American University: Washington, D. C. Foreign Aria Studies, 1979, p. 25.

(١٦) حول هذا الموضوع انظر :

Ziadeh, Op. Cit., p. 66.

(١٧) للاطلاع على نص هذه المعاهدة انظر :

Hurwitz , J. C., The Middle East and North Africa in World

Politics, A documentary Record, European Expansion, 1535 - 1914 , Yale University Press : New Haven and London 1975, Vol, 1, pp. 552 - 557 .

(١٨) نقولا زيادة ، محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي الى الاستقلال ، القاهرة، ١٩٥٨ ، ص ٨٤ .

(١٩) الشنيطي ، المرجع السابق ، ص ٦٠–٦١ .

(٢٠) Wright, John: **Libya, Nations of the Modern World** , London 1969, pp. 140 - 141 .

(٢١) زيادة ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢٢) المرجع نفسه ، ص ١١١ .
وحول الحرب السنوسية ـ الايطالية التي حدثت في تلك الفترة ، انظر : محمود شلبي، حياة عمر المختار ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ١٠٩ ـ ١٦٣ .

(٢٣) للتوسع في موضوع الاستعمار الاستيطاني الايطالي في برقة في فترة الثلاثينات في هذا القرن ، يمكن العودة الى المرجعين التاليين:
ادريس صالح الحرير : الاستعمار الاستيطاني الايطالي في ليبيا ١٩١١ ـ ١٩٧٠ ، طرابلس ١٩٨٤ ، ص ٦٩ ـ ٨٨ .
Segre , Claudio . G ., **Fourth Shore,The Italian Colonization of Libya,** Chicago and London 1974, pp. 82 - 101 .

(٢٤) Play Fair, I. S. O., **The Miditerranean and Middle Eest,**Vol,1, **The Early Success against Italy,** Published by Her Majesty's Stationary Office:London 1954, p. 109.

(٢٥) للاطلاع على النص الكامل لبنود الهدنة الالمانية الفرنسية ، انظر :
« The Bulletin of International News, » Fortnightly by the Royal Institute of International Affairs, Vol. XVII, No.13, June 29, 1940, pp. 779-780.

(٢٦) Churchill,Winston:**The Second World war,** London 1964, Vol. 4, p. 86.

(٢٧) Playfair , Op. Cit ., Vol. 1, p. 207.

(٢٨) Churchill, Op. Cit., Vol.4,p.86.

(٢٩) للاطلاع على العوامل التي منعت الايطاليين من تجاوز سيدي براني ، انظر :
Montgomery of Alamein, Faeld Marshel Viscount : A Hisstory of Warfare, Cleveland and Newyork 1968, p. 506 .

(٣٠) Play Fair, Vol. 1, p. 238.

(٣١) حول تفاصيل تقدم القوات البريطانية حسب الخطة التي وضعها أوكونر وتراجع الجيش الايطالي في داخل برقة انظر :
Play Fair, Op. Cit. , Vol. 1, pp. 358 - 362 .

(٣٢) Ibid. , p. 367 .

(٣٣) Ibid. , Vol. 2, p. 11 .

(٣٤) Hart, **History of the Second World War,** Newyork, 1971, p. 120 .

(٣٥) للاطلاع على تفاصيل معركة طبرق وعوامل فشل المحور في احتلالها انظر :
Play Fair , Op. Cit, Vol. 2, pp. 155 - 156 .

(٣٦) Hart, **Strategy,** New york, washington, 1967 , p. 277 .

(٣٧) Ibid. , P. 279 .

(٣٨) Roodd , Lord Rennel : **British Military Administration of Occupied Territories in Africa, 1941 - 1947,** Published by his Majesiy's Stationary Office, London 1948, p. 1.

(٣٩) حول معركة طبرق والطريقة التي تم فيهـا احتلال رومل لها أنظر :
Montgomery of Alamein, p. 513.

(٤٠) للاطـلاع على تفاصيل تلك المعركـة يمكـن الرجوع الى المصادر التالية :
Churchill, Op. Cit. , pp. 158-173; Hart, History, of the Second World War pp. 281-283; Young, Op. Cit, pp. 162 - 182 .
وللاطلاع على موقع العلمين أنظر الخارطـة رقم (٢) .

(٤١) **Montgomery of Alamein,** Op. Cit pp. 513 - 514,

(٤٢) Wright, Op. Cit. , p. 186 .

(٤٣) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، قـدم لها وأعدها للنشر نقولا زيادة ، الجامعـة الامريكية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٣ . وهـي تقرير قدمته لجنة خاصة تمثل مجلس وزراء خارجية الدول الاربع (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) ، زارت ليبيا بأقاليمها الثلاث ووضعت تقريرا مفصلا ليسترشد به الوزراء في قراراتهم .

(٤٤) مجيد خدوري : ليبيا الحديثة ، ترجمـة نقولا زيادة ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٦٤–٦٥ .

(٤٥) Pelt, Adrian : **Libyan Independence and the Uni ted Nations ,** Yalc University Press , New Havan and London, 1970, p. 58 .

(٤٦) هنري حبيب ، ليبيا بين الماضي والحاضر، ترجمة شاكر ابراهيم ، طرابلس ١٩٨١ ، ص ٧٠ – ٧١ .

(٤٧) Rodd , Op. Cit. , pp. 11 - 14 .

(٤٨) Ibid. , pp. 15 - 16 .

(٤٩) Ibid. , p. 16 .

(٥٠) لمزيد من المعلومات حول ذلك أنظر :
Kirk, George,. **The Middle East in the War, Survey of International Affairs,** Oxfor University Press, London 1952, p. 382.

(٥١) Rodd, Op. Cit., pp. 23-24.

(٥٢) كان لونجريج يتمتع بخبرة اكتسبها أثناء اقامته في العراق وفلسطين .
لمزيد من المعلومات حوله ، انظر :
Rodd, Op. Cit., pp. 34-35.

(٥٣) Ibid., pp. 243-244.

(٥٤) Ibid., p. 244.

(٥٥) Ibid., pp. 247.

(٥٦) للاطلاع على نص هذا الخطاب انظر :
Rodd, Op. Cit., p. 249.

(٥٧) Ibid., p. 250.

(٥٨) للاطلاع على نص هذه الرسالة ، انظر :
Rodd, Op. Cit., pp. 250-251.

(٥٩) خدوري ، المصدر السابق ، ص ٥٨.
Rod, Op. Cit., p. 34.

(٦٠) Oodd, Op. Cit., p. 248.

(٦١) خدوري ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٦٢)

(٦٣) Op. Cit., Loc. Cit.

(٦٤) خدوري ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٦٥) للمزيد حول هذا الموضوع أنظـر : نقـولا زيادة ، المرجع السابق ، ص ١٢٧–١٢٨.

(٦٦) ليبيا سـنة ١٩٤٨ (وثيقة رسـمية) ، ص ١٦٣ .

(٦٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٦٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص١٦٤.

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص١٦٤–١٦٥ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .
ونشير هنا أن المحاكم الشرعية واليهوديةهي الوحيدة التي كانت موجودة قبل عهـد الاحتلال . وقد اختفـت جميـع المحاكـم الايطالية على اختلاف أنواعها عقب انسحاب الايطاليين من البلاد : انظر : المصـدر نفسه ، ص ١٦٦ .

(٧٣) انظر :
Rodd, Op. Cit., p. 36; Kirk, Op. Cit., p. 382 .

(٧٤) نشير هنا الى ان هذه الكتائب التي كانت تسمى أيضا باسم « الجيش الليبي السنوسي » وأحيانا القوات العربية الليبية كان قد تم تشكيلها لتحارب الى جانب الحلفاء ، وقد تم ذلك اثر مباحثات بين القيادة العامة البريطانية في القاهرة وبين السيد محمد ادريس السنوسي في عام ١٩٤٠ .

حول هذا الموضوع انظر : الشنيطي ، المرجع السابق ، ص١٦٦–١٦٧ .

(٧٥) Rodd, Op. Cit., p. 36.

(٧٦) Wright, Up., Cit., p. 193.

(٧٧) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، ص١٦٧ .

(٧٨) Rodd, Op., Cit., p. 256.

(٧٩) Kirk, Op. Cit., pp. 282-283

(٨٠) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، ص١٧٦ .

(٨١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٨٢) Rodd, Op. Cit., p. 262.

وللاطلاع على موقع سيدي براني ، انظر انظر خارطة رقم (٢) .

(٨٣) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، ص١٧٦ .

(٨٤) المصدر نفسه ، ص١٧٦ – ١٧٧ .

(٨٥) Rodd, p. 383 .

(٨٦) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية)ص١٧٧ .

(٨٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٧–١٧٨ .

(٨٨) المصدر نفسه ، ص١٧٧ .

(٨٩) المصدر نفسه ، ص١٧٨–١٧٩ .

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ١٨٠–١٨١ .

(٩٢) Rodd, Op. Cit., p. 398.

(٩٣) Ibid., p. 401.

(٩٤) Ibid., pp. 256-257 .

(٩٥) Ibid., p. 263 .

(٩٦) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، ص١٨٢ .

(٩٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

(٩٨) Rodd, Op. Cit., p. 409.

(٩٩) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، ص١٨٣ .

(١٠٠) Rodd, Op. Cit., p. 412.

(١٠١) Kirk, Op. Cit., p. 396.

(١٠٢) Rodd, Op. Cit., p. 259.

ونشير هنا أن جهاز الانتي كان قد أنشأ سنة ١٩٣٢ تحت اسم مؤسسة الاستيطان في برقة (Ente Per La Colonizzation Della Cirenaica) لغرض احياء وتعمير منطقة برقة وخاصة الجبل الاخضر ، ثم شملت نشاطاته منطقة طرابلس .

حول هذا الجهاز انظر :
Moore, Martin : **Fourth Shore, Italy's Mass Colonisation of Libya,** London 1940. p. 233.

(١٠٣) Rodd, Op. Cit., p. 259.

(١٠٤) Op. Cit., Loc. Cit.

(١٠٥) للاطلاع على تفاصيل ما جاء في هذا التقرير أنظر : ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ص ١٧١ – ١٧٢ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص٤ .

(١٠٧) انظر :
Rodd, Op. Cit., p. 257.

(١٠٨) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(١٠٩) Pelt, Op. Cit., p. 127.

(١١٠) الشنيطي ، المرجع السابق ، ص١٨١ .
ونشير هنا الى أن الادارة العسكرية البريطانية في اقليم طرابلس خارجة عن نطاق هذه الدراسة ، ولكن للاطلاع على تلك الادارة يراجع :
Rodd, Op. Cit p. 266-293.

(١١١) للاطلاع على تفاصيل ذلك البيان انظر :
Pelt, Op. Cit., pp. 157-158.

البعد التاريخي للدور العسكري الصهيوني
في تهديد الامن القومي العربي

د. نظام عزت العباسي
جامعة اليرموك

نظرا لتعدد عوامل تهديد الامن القومي العربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا (*) فستلقي هذه الدراسة الضوء على زاوية واحدة ومهمة وهي : الدور العسكري الصهيوني في تهديد هذا الامن وبعده التاريخي .

فاذا اعتبر المفكرون العرب أن الدولة الصهيونية منذ قيامها عام ١٩٤٨ قد شكلت تهديدا مباشرا ومتواصلا للامن القومي العربي ، بدأ باقتلاع الشعب الفلسطيني ومحاولة استئصاله عضويا ، فان هناك تقصيرا في فهم أبعاد هذا الدور الصهيوني الذي خطط له منذ القرن التاسع عشر . وهكذا فستركز هذه الدراسة على الدور العسكري للحركة الصهيونية في بعده التاريخي / السياسي الذي ارتبط حتى عام ١٩٤٨ بقدرة الحراب الاوروبية على تفتيت أمن منطقتنا العربية واستقرارها ،وتحول بعد هذا التاريخ الى رأس حربة يطعن ويمزق أمن أمتنا العربية القومي .

شكل البرنامج الصهيوني منذ مؤتمر بال تحديا نوعيا وكميا ، ليس في تهديد وجود الشعب العربي الفلسطيني فحسب ، بل وللامة العربية جمعاء . ويمكن حصر تاريخ تطور هذا التهديد في المراحل الثلاث التالية :

١ ـ المرحلة الاولى ١٨٩٧ ـ ١٩١٧ .

٢ ـ المرحلة الثانية ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ .

٣ ـ في الفترة اللاحقة لعام ١٩٤٨ .

تتميز المرحلة الاولى (١٨٩٧ ـ ١٩١٧) بمولد الحركة الصهيونية بشكل رسمي ومنظم . وقد تناقضت هذه الحركة ، من خلال محاولاتها خلق « قومية يهودية » مع القومية العربية الناشئة ، وأثرت سلبياً عليها ، خاصة وأنها لم تكن قد تبلورت

(*) هناك دراسات كثيرة وحديثة حول « الامن القومي العربي » تبدأ جميعها بمحاولة توضيحية لمعنى الامن القومي . للمزيد حول الامن القومي العربي وعوامل تهديده ، انظر مثلا : مجلة شؤون عربية، عدد ٣٥ ، كانون ثاني ١٩٨٤ فقد خصص هذا العدد لمعالجة موضوع الامن القومي العربي تحت عنوان « ملف الامن القومي العربي » .

بشكل واضح بعد . ولعبت القوى الخارجية في هذه المرحلة دورا أساسيا في انجاح أو افشال نمو الحركة الصهيونية والحركة القومية العربية الناشئة ، تباعا حسب ما تقتضيه مصالحها . وما اعنيه هنا بالقوى الخارجية ، هي قوى الاستعمارالاوروبي بتأثيره المباشر وغير المباشر على العرب ، سواء أولئك الذين كانوا تحت حكم الاتراك أو تحت حكم المستعمرين الاوروبيين (الانجليز والفرنسيين والايطاليين) .

ويبدو في هذا المجال ، أن نجاح التجربة المصرية (محمد علي باشا) هي التي حدت بالقوى الاوروبية وخاصة الانجليزية منها أن تنتج سياسة الاحباط والافناء لكل توجه يراد به تثبيت دعائم قوة هذه الامة ، سواء كان ذلك على الصعيد الداخلي (جمع عناصر القوة الذاتية من الداخل) أو الخارجي (المتمثل في حماية هذه المنجزات من الاخطار الخارجية).

وعلى الرغم من الاجهاض الانجليزي للحركة المصرية ـ بزعامة محمد علي بدعم أوروبي ، الا ان النتائج التي ترتبت على امتداد اثارها لبلاد الشام (حكم ابراهيم باشا لبلاد الشام ١٨٣١ ـ ١٨٤٠) كان له تأثير حاسم على اليقظة العربية(١) .

وهنا عزمت القوى الاوروبية ـ بخاصة الانجليزية ـ على احتواء اثار هذه الحملة المصرية باتجاهين :

الاول : عن طريق فرض سطوتها على كثير من قرارات الباب العالي السياسية والاقتصادية .

الثاني : عن طريق نشاطها المباشر داخل المنطقة العربية، والذي شمل التجسس وبناء قوى محلية عميلة لها في المنطقة ، كاليهود الذين استطاعت انجلترا اخذ حق حمايتها لهم عام ١٨٥٠ م .

أما مجمل التأثيرات على حياة اليهود في أوروبة بشرقها وغربها في عصر المد القومي الاوروبي الذي امتد لينال بالتصفية الجسدية يهود شرق أوروبة ومحاولة التخلص من اخطارهم في غرب اوروبة ، فيبدو أنه شكل في توجه السياسة الانجليزية الاوروبية والشرق أوسطية ايضا احد المرتكزات لاستغلاله لصالح هذه السياسة(٢).

وهكذا نستطيع ان نرى أيضا البعد الحقيقي لعدم تبني بريطانيا وبشكل رسمي لبرنامج الحركة الصهيونية حتى عام ١٩١٧ . فالوضع الدولي الذي طرحت فيه المسألة الشرقية خلال القرن الماضي وحتى الحرب العالمية الاولى ، لم يَمكن بريطانيا نتيجة لمنافسة الدول الكبرى انذاك ان تجتازه لتسيطر منفردة على فلسطين ، ناهيك عن الموقف الصلب من قبل السلطان العثماني في عدم تفريطه بفلسطين رغم محاولات

بريطانيا المتكررة للسيطرة عليها ولو عن طريق اليهود منذ عام ١٨٤٠ ، حين طالبه بالمرستون وزير خارجية بريطانيا انذاك باقامة دولة يهودية في فلسطين ـ لتشكل حاجزا بينه وبين أطماع محمد علي باشا القابع في مصر(٣) .

الا ان نتائج تطورات الوضع السياسي الدولي قبيل نهاية الحرب العالمية الاولى ، التي اسفرت عن هزيمة كل من المانيا وحلفائها وخروج روسيا بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية ولو مؤقتا من ساحة الصراع الدولي المتمثل بالتنافس الاستعماري مع كل من فرنسا وبريطانيا ، مكن بريطانيا من الالتفاف على اتفاق سايكس لعام ١٩١٦ وتجييره لصالحها(٤) .

لقد استطاعت بريطانيا اذا الخروج من سياسة شد الحبل مع فرنسا لصالحها بعد لعبها بالورقة الصهيونية (من خلال اعطاء وعد بلفور عام ١٩١٧) وتهديدهالفرنسا باعادة النظر باتفاقية سايكس ـ بيكو ومصالح فرنسا في المنطقة ان لم توافق على سياسة بريطانيا تجاه الشرق الاوسط(٥) . وهكذا نرى ان بريطانيا تبنت المشروع الصهيوني نتيجة لهذه التطورات لخدمة مصالحها ، آخذة بعين الاعتبار بان اليهود سيضعون امكاناتهم تحت تصرفها .

المرحلة الثانية ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ :

ان أبرز صفات هذه المرحلة تتمثل في :

١ ـ افشال حركة التحرر والوحدة العربية التي تبلورت من خلال الثورة العربية الكبرى .

٢ ـ العمل بعد تبني المشروع الصهيوني من خلال وعد بلفور (٢ تشرين الثاني / ١٩١٧) على خلق الكيان الصهيوني ليقف حارسا ومنفذا لاجهاض أي عمل تحرري ووحدوي عربي ـ من اجل اطالة عمر الهيمنة الاجنبية لاستغلال هذه المنطقة لاقصى الحدود . أما الاداة التنفيذية فكانت الجيوش البريطانية والفرنسية المسلحة ، وقوة المستوطنين الصهاينة بالاضافة الى اصناف الكذب والخداع والمناورات السياسية .

بعد صراع ومخاض لرفض العرب للواقع المفروض عليهم خلال القرن التاسع عشر ، والمتمثل بالتغلغل الاوروبي في بلاد الشام واقتطاع أجزاء من المنطقة العربية في شمال افريقيا وغيرها على ساحل الجزيرة العربية ، اضافة الى رجعية الحكم العثماني ومداراته طوعا أو قهرا لأوامر الساسة الاوروبين ضاربا عرض الحائط بكل مطالب الاصلاح الوطنية والعربية ، تشكلت الجمعيات والاحزاب السياسية العربية لايقاف هذه الاخطار . ولكن الدولة العثمانية مارست القمع والاضطهاد والتجويع

ضدها . أما بعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ فنرى ان سياستها في تتريك العناصر المختلفة في الدولة العثمانية قهرا (الطورانية) قد أعطت للحركة العربية الناشئة دفعا جديدا نحو وجوب الانفصال والتحرر . فقد احس العرب آنذاك بشكل واضح باضطهادهم لكونهم عرباً يراد تصفية هويتهم القومية . وهكذا ازدادت القناعة بالانفصال وليس بالاصلاح . ومن هنا نرى بوادر العمل الوحدوي العربي الاول في تاريخنا الحديث والمعاصر ، من خلال رغبةزعماء العهد والعربية الفتاة في ان يتزعم الشريف حسين بن علي امير مكة ، هذه الحركة ابتداء من عام١٩١٥(٦) .

أما أطماع بريطانيا ودهاء سياستها التي لم تكن تخفى على احد ، فقد اجبرت حسين بن علي ، على ان يفكر أكثر من مرة (رغم الحاح بريطانيا واستعدادها لدعم هذه الحركة العربية) قبل ان يقدم على مثل هذه الخطوة . وهكذا كانت المراسلات التاريخية المعروفة بمراسلات حسين ـ مكماهون(٧) . فبعد التأكيد الخطي من قبل بريطانيا للشريف حسين ، بانها توافق على برنامجه السياسي والذي ينص في جوهره على وحدة واستقلال البلاد العربية في اسيا ، أقدم الشريف حسين بن علي على اعلان الثورة في حزيران من عام ١٩١٦ ، محاولا استغلال ظروف الحرب العالمية . وقد اشترك فيها السوري واللبناني والعراقي والفلسطيني والسعودي والاردني والمصري من خلال حملهم السلاح لتحرير الوطن .

وهكذا نرى أن التطلع لوحدة وحرية العرب تدخل مرحلة جديدة في تاريخ العرب المعاصر . ولكن بريطانيا التي لم يرق لها هذا التطور علىالساحةالعربية والذي سيتناقض بلا شك مع اطماعها في المنطقة ، لم تدخر جهدا لتحطيم هذه الحركة الناشئة عقب نهاية الحرب ، بعد استغلالها لامكاناتها وفق ما تقتضيه مصالحها خلال الحرب ، ضاربة عرض الحائط بكل الوعود التي قطعتها على نفسها لتسهيل هذه الحركة ودعم طموحها .

أما الوسائل في معالجتها لهذه الحركة فكانت مختلفة عن المرحلة السابقة ومن اهمها :

١ ـ التآمر على شرعية الثورة العربية الكبرى تحت شعار عدم استطاعتها الايفاء بالالتزامات التي قطعتها على نفسها لقائد هذه الثورة من خلال المراسلات ، متذرعة بالتزامها الدولي الذي اطلق على الاستعمار (الانتداب) والتزامها بتنفيذ ما جاء في وعد بلفور للصهاينة حسب ميثاق عصبة الامم عام ١٩٢٢ .

٢ ـ الاعتراف بشرعية البرنامج الصهيوني في فلسطين والعمل على بناء الوطن القومياليهودي فيها . لقد كان هدف بريطانيا من وراء ذلك واضحا ، وهو خلق

قوة جديدة تشاغل الامة العربية ، لكي تتوجه البنادق الى الصدر الصهيوني بدل البريطاني . وقد نجحت بريطانيا في ذلك ولو مؤقتاً . ومما يفسر ذلك ــ ان عنف الثورة الفلسطينية ورفعها شعار « قطع رأس الافعى وليس الذنب » متمثلا بالصهاينة قد جاء بعد أكثر من خمسة عشر عاما من دخول القوات البريطانية أرض فلسطين(٨) .

٣ ــ العمل على تفكيك العرى الوحدوية للحركة الوطنية التي بلغت ذروتها من خلال الثورة العربية الكبرى بعدة طرق أهمها :

آ ــ تشكيك العرب بقيادتهم لخلق الشرخ بين القيادة وتوجهها وأمانتها في قيادة شعبها . اضافة الى اضعاف بريطانيا أو تخليها عن الشريف حسين .

ب ــ محاولة خلق قيادة بديلة موالية للسلطات المحتلة .

ج ــ تقسيم المنطقة جغرافيا بين نفوذ انتدابي فرنسي وآخر انجليزي .

٤ ــ تدريب وتسليح الصهاينة في فلسطين عسكريا واعدادهم مستقبلا ليقوموا بخدمة الاهداف الامبريالية بالوكالة في المنطقة .

ان تقسيم الادوار بين هؤلاء الساسة ،خلال فترة الانتداب البريطاني والفرنسي، وتعاونهم مع الحركة الصهيونية جاء ضد مصلحة القوى الوطنية والتحررية التي كانت موحدة خلال الحرب العالمية الاولى : فبدلا من أن تعمل على التحرير فقط ، عليها الآن الكفاح على جبهتين وهما : التحرير والوحدة ففي فلسطين ، وبعد أن استقبلت الجماهير الفلسطينية بفرح دخول القوات البريطانية قبيل نهاية الحرب الى بلادها كقوات حليفة ، بدات الحركة الوطنية العربية في منطقة فلسطين بعد اعلان الانتداب، تراوح في نظرتها لهذه التطورات من خلال عدم رغبتها في تقبل الواقع الجديد الذي أرادت بريطانيا فرضه على المنطقة ، وبين الخطر الصهيوني الذي يهدد وجودها . ولم تقنعها بلا شك وعود بريطانيا لها ومناوراتها السياسية لتهدئة الحال وفرض سياسة الامر الواقع بتجزئة اللحمة الوحدوية لحركة التحرر العربي من خلال تقسيم هذه المنطقة الى نفوذ انتدابي فرنسي وانجليزي . وقد فهم الوطنيون العرب والفلسطينيون آنذاك أن تبديد الحلم الصهيوني البريطاني بتهويد فلسطين لا يمكن ان يتم الا من خلال الابقاء على العرى الوحدوية في النضال ، والاستمرار في النهج الوحدوي الذي تبلور من خلال الثورة العربية الكبرى . وهكذا كان ، حيث فهم الخطر المحدق بفلسطين على انه ليس أكثر من مهمة واحدة من مجمل المهمات التي على عاتق هذه الحركة التغلب عليها ، ويتضح ذلك من خلال مجمل نتائج المؤتمرات العربية السورية عقب نهاية الحرب(٩) .

لكن الاصرار الفرنسي ــ البريطاني فرض نفسه على أرض الواقع ، وبدأت

الحركة الوطنية الفلسطينية على الرغم من الصراعات الداخلية التي قلصت من ثمار نضالها وحتى قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ تناضل من أجل درء الخطر المباشر واليومي داخل اقليمها مع الاصرار على الاحتفاظ بوحدة العرى الوحدوية مع حركة التحرر العربي في مناطق بلاد الشام المختلفة ، والتي كانت الرافد المادي والمعنوي والبعد الاستراتيجي في مواجهة التحديات التي تعرضت لها فلسطين . كان من نتائج ذلك ان اضطرت بريطانيا الى الاعتراف بفشل سياستها الفلسطينية من خلال كتابها الابيض عام ١٩٣٩ تحت ضغط تطور الظروف الدولية التي قادت الى الحرب العالمية الثانية، حيث استجابت بريطانيا من خلاله ـ نسبيا ـ لبعض مطالب العرب(*). لقد اصطدمت الان المصالح البريطانية مع المصالح الصهيونية نتيجة لقوة وصلابة المقاتلين العرب والفلسطينيين على أرض فلسطين في الجزء الثاني من ثلاثينات هذا القرن .

في مثل هذا الواقع بدات الحركة الصهيونية مستغلة أيضا ظروف الحرب وبمختلف الوسائل المتاحة لديها ، بالضغط على بريطانيا لكي تتخلى عن سياستها المعروفة في كتابها الابيض لعام ١٩٣٩ .

أما نتائج الحرب العالمية الثانية فجاءت لصالح الصهاينة نتيجة لظهور أمريكا كزعيم للعالم الامبريالي بدل بريطانيا ، اضافة الى أن بريطانيا خرجت من الحرب منهكة . وهكذا تبنت أمريكا المشروع الصهيوني محاولة تجييره لخدمة أهدافها ، وهكذا جرت أولى الصدامات المسلحة بين الحركة العربية متمثلة بتطوع أبناء المنطقة العربية للدفاع عن فلسطين وبين قوى الحركة الصهيونية العسكرية المتمثلة بالهاغانا والمنظمات الارهابية الاخرى .

بعد هذا العرض الموجز ، تدخل المرحلة الثالثة (١٩٤٨ ـ الوقت الحاضر) ، وهي القسم الرئيس في هذه الدراسة . ويمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة نجاح المشاريع الامبريالية الصهيونية ، التي خطط لها منذ أكثر من قرن مضى كما يمكن تقسيمها الى فترتين :

الاولى : منذ قيام الدولة الصهيونية ١٩٤٨ وحتى نهاية الحرب الباردة في الشرق الاوسط عام ١٩٥٩ .

(*) منها مثلا الغاء قرار تقسيم فلسطين حسب اقتراحات لجنة بيل لعام ١٩٣٦ والموافقة على اقامة حكومة وطنية بعد عشر سنوات ، وتحديد أعداد الهجرة اليهودية لفلسطين ب ٧٥ الف خلال السنوات الخمس القادمة ، اضافة الى تحديد الاماكن التي يسمح لليهود بامتلاك أراضي فيها . وقد رفضت الحركة الصهيونية هذا الكتاب وحاربته . انظر : الكيالي ، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث مصدر سابق ، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

الثانيــة : الفترة اللاحقة لعام ١٩٥٩ .

تميزت الفترة الاولى بعدم قدرة المؤسسات الصهيونية على الاستمرار في الحياة لوحدها . ومن هنا بقيت القوى الاوروبية تقوم بدور الحاضنة الرئيسية لتثبيت دعائم مولودها الصغير من خلال التدخلات العسكرية المباشرة بالتعاون مع الجيش الصهيوني الوليــد(١٠) .

لقد جاء الدعم الامبريالي المادي والمعنوي للدولة الصهيونية الوليدة من جميــع الدول الاوربية بدون استثناء . وكانت طبيعة هذا الدعم متناسقة مع حجم الانجازات التي حققتها القوى الوطنية العربية على الساحة ، مجتمعة تارة ومتفرقة تارة أخرى. ولكن الهدف كان واحدا وشعاره : لجم توجهات الحركة الوطنية العربية الصاعدة ، للابقاء على الهيمنة الامبريالية على هذه المنطقة . ومن أبرز الدول التي مارست دورها في هذا المضمار بريطانيا بالاضافة الى ألمانيا الاتحادية وفرنسا وأمريكا . وسنعرض فيما يلي دور كل من هذه الدول بايجاز واصفين في القائمة موقف الاتحاد السوفياتي مــن ذلــك .

بريطانيــا :

حاولت بريطانيا ، بعــد أن فشلت في كســر ارادة المقاومة العربية وخاصــة الفلسطينية في نهاية الثلاثينات ، أن تسترضي الحركة الوطنية العربية ويتجلى ذلك بشكل واضح من خلال استجابتها لبعض المطالب العربية (الكتــاب الابيض ١٩٣٩ ، ودعمها لتأسيس الجامعة العربية عام ١٩٤٥) ولكن بريطانيا كانت تقصد مــن وراء ذلك ألا يفلت زمام الامر من يدهــا وينتقل الى أيدي القــوى الوطنية والتحرريــة الوحدوية العربية ، لان ذلك يتعارض مع مصالحها ، ولكي لا يفشل دعمها للمشروع الصهيوني قبل أن توصله الى مرحلة معينة من الاعتماد على نفسه . ولم تكن هذه السياسة جديدة على بريطانيا ، فقد قامت قبلها بطرح مشاريع مماثلة كدول الكومنولث التي ربطت بواسطتها مستعمراتها معها .

وعلينا ألا نغفل هنا أن نتائج الحرب العالمية الثانية قد أفرزت تراجعا لامكانيات بريطانيا العظمى ، اذ خرجت الى الساحة قوتــان عظيمتان هما أمريكــا والاتحــاد السوفياتي ، وتراجع دور بريطانيا القيادي الاول . وهكذا بدأت بريطانيــا مجبرة تتراجع عن قيادتها لامريكا ، محاولة في الوقت نفسه اعطاء دور أكبر للصهاينة من أجل تنفيذ مشاريعها في فلسطين معيدة عقارب الساعة الى الوراء من خلال اقتراحها تقسيم

فلسطين بين العرب واليهود ــ هذا الاقتراح الذي رفض عام ١٩٣٨ (*) . أما الطريقة فكانت من خلال تسليمها تقرير مصير فلسطين الى هيئة الامم وريثة عصبة الامم بقيادة الدول الامبريالية ، ناهيك عن الدعم المادي للعصابات الصهيونية على أرض فلسطين التي أرادت لها بريطانيا أن تحل مكانها(١١) .

ولم تتخل بريطانيا بعد ذلك بالطبع عن الوقوف عسكريا الى جانب العصابات الصهيونية ، أو لجم القوى العسكرية العربية والفلسطينية في مواقع كثيرة حين كانت هذه القوى تكاد تهزم القوى العسكرية الصهيونية ، نذكر هنا مثلا تسليم حيفا للعصابات الصهيونية عام ١٩٤٨ ، وقيادتها للهجوم الثلاثي على قناة السويس عام ١٩٥٦ .

فرنسا :

على الرغم من نتائج الحرب العالمية الثانية على فرنسا ، الا ان هذه الدولة الاستعمارية كانت قد احتضنت ومنذ عهد نابليون فكرة اقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين . وكما دخلت قضية اقامة دولة يهودية على أرض فلسطين اطار مصلحة فرنسا الاقتصادية والاستراتيجية والتنافسية مع بريطانيا في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية ، فقد دعمت فرنسا عقب الحرب العالمية الثانية الدولة الصهيونية لنفس الاسباب وبكل امكاناتها وبخاصة العسكرية ، اذ كان تسليح الجيش الصهيوني حتى عام ١٩٦٧ يعتمد بالدرجة الاولى على فرنسا . ويكفي في هذا الصدد أن نشير الى قول الحكومة الفرنسية (الاسرائيلية) عام ١٩٥٨ « ما دام يوجد خبز لفرنسا فهناك خبز لاسرائيل » * .

أما مصلحة فرنسا في ذلك فقد تمثلت في ضرب القوى الوطنية والتحررية العربية عن طريق اسرائيل وبالتعاون معها . ولا أدل على ذلك من مشاركة فرنسا في الهجوم الثلاثي على قناة السويس لضرب مصر عبد الناصر ، الذي قدم الدعم والمساندة لحركات التحرر العربي في شمال افريقيا وخاصة للجزائر .

(*) أرسلت بريطانيا لجنة ملكية برئاسة اللورد بيل (Pel) عام ١٩٣٦ للبحث في الاسباب التي قادت الى اضراب عام ١٩٣٦ ومطالب العرب . وفي عام ١٩٣٧ أوصت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود . وبناء على ذلك أرسلت عصبة الامم لجنة (وود هيد) الفنية لتنفيذ مشروع التقسيم ، حيث قاطعها العرب بشدة ، مما أجبرها على رفع توصية تؤكد على استحالة تقسيم فلسطين ، وطوي مشروع التقسيم بناء على ذلك . وفي ذلك الوقت كانت الثورة الفلسطينية المسلحة في أوج عنفوانها .

(*) انظر : نوفل ، أحمد سعيد : العلاقات الفرنسية العربية ، الكويت ١٩٨٤ ، ص٩٥ .

المانيـا الاتحاديـة :

على الرغم من الفوائد التي حصلت عليها الحركـة الصهيونية خـلال العهـد النازي لدعم مشروعها الاستعماري الاستيطاني في فلسطين ، وعلى الرغم من هزيمـة المانيا في الحرب العالمية الثانية ، الا أن الدعم الالماني للصهاينة لم يتوقف . ان شـطر المانيا الى : المانيا الديموقراطية ، والاتحادية ـ قـد ربط كل منهمـا بحلف مناهض للشطر الآخر من الوطن الالماني . فبينما اتجهت المانيا الديمقراطية بتحالفاتها مـع الكتلة الشرقية (حلف وارسو) لدعم الحق العربي في فلسـطين ، نرى أن مصالح المانيا الاتحادية وارتباطها بالدول الامبريالية قد أفرز سياسة دعم (دولة اسرائيل) . وتدعي المانيا الاتحادية أن دعمها (لاسرائيل) هو من أجل التعويض عما لحق باليهود من أذى في ظل الحكم النازي (Wiedergutmachung) (١٢) .

ومن هنا نرى الدعم السياسي والمادي اللا محدود من قبل المانيـا الاتحاديـة (لاسرائيل)، الذي بلغت قيمته عشرات الملايين من الدولارات حتى مطلـع الثمانينات ليس فقط على شكل عملة سائلة وانما أيضا على شكل بناء مشاريع ومرافق اقتصادية منها : مد انابيب المياه من شمال فلسطين الى النقب بطول ٢٧٠ كم ، وبناء شـبكة الكهرباء القطرية الصهيونية ، التي كانت القاعدة الاساسية التي اعتمدتها (اسرائيل) في تطوير ذاتها صناعيا(١٣) . وهذا فضلا عن عضوية المانيا الاتحادية في حلف الناتو ، الذي يشكل مظلة عسكرية للكيان الصهيوني ، فقد تدفقت المساعدات العسكرية مـن من قواعد هذا الحلف في المانيـا خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ لانقاذ الكيان الصـهيوني التي كانت قواه آنذاك على وشك الانهيار .

الاتحاد السوفياتي :

ان بروز الاتحاد السوفياتي كقوة عالمية عظمى لها مصالحها في المنطقة عقب الحرب العالمية الثانية قد تجسد باديء الامر بدعمه لمشروع تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ وقيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨(١٤) . وكان الاتحاد السوفياتي يأمل من خلال ذلك ايجاد موطيء قدم له في المنطقـة ، وهـذا ما لم يتحقق حتى قيـام الثـورة الناصـرية في يوليو ١٩٥٢ .

ولكن نظرة الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية من خلال ايدلوجياته ، لمقاومة الامبريالية وكسب الحلفاء في صراعه معها ، قد أوجد تقاربا مع الحركة الوطنية القومية العربية . لقد رأى الاتحاد السوفياتي ان تكثيف العلاقة مع حركـة التحرر العربي عن طريق دعم الثورة الناصرية والسورية والعراقية فيما بعد ، هو نضال ضد

أعدائه الرئيسيين . وهكذا ابتدأت منذ قيام الثورة الناصرية (يوليو ١٩٥٢) العلاقات تزداد تقاربا وتحسنا .

ويزداد موقف الاتحاد السوفياتي في الفترة اللاحقة وضوحا من خلال دوره في الحرب الباردة ـ والذي سنتطرق اليه لاحقا .

أمريكـا :

انتهى المنهج السياسي لامريكا الذي قرره الرئيس الامريكي ويلسون بعـد اعلانه عن (مبادئه الـ ١٤ عام ١٩١٨المتضمنة حق تقرير المصير للشعوب المستعمرة وانسحابه من عصبة الامم في نفس العام) بشكل نهائي عند انضمامها لدول الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانيـة ، وبدأت المصـالح الامريكية ترتبط بمصالح الحلفـاء . أما توجـه الحركة الصهيونية للضغط على أمريكا بعد مؤتمر بلتمور عـام ١٩٤٢ فقد نجح قبيل انتهاء الحرب في تشكيل ما يسمى « باللوبي الصهيوني » الذي ساعد على دعم أمريكـا للمشاريع الصهيونية .

وهكذا وبعد بروز أمريكا عقب نهاية الحرب كدولة عظمى تضطلع بالدور الذي كانت تؤديه بريطانيا وفرنسا قبل الحرب من خلال قيادتها للعالم « الحـر » ، وجدت الحركة الصهيونية رافدا جديدا لاستغلاله لتنفيذ مآربها . كما أن أمريكـا وجدت في الحركة الصهيونية الحليف الذي عليها دعمـه للحفاظ على مصالحهـا في الشـرق الاوسط . فاذا كانت أمريكا قد شغلت مكان فرنسـا الاستعماري في فيتنام عـام ١٩٥٤ ، فقد بدأت تدريجيا ـ بعد احتضانها للدولة الصهيونية عام ١٩٤٧/١٩٤٨ ، تشكل الحاضنة الجديدة للمحافظة عليها .

لقد حاولت أمريكا بعد الحرب العالميـة الثانية انتهاج سياسـة المحافظة على مصالحها الاقتصادية في المنطقة ، وفي الوقت نفسه ابعاد بريطانيا عنها ـ دون الاصطدام المباشر مع بريطانيا كحليفة لها(١٥) .

أما الحركة الوطنية الصاعدة التي أبدت وبخاصة منذ تسلم عبد الناصر زمـام الحكم في مصر عداءها لكل توجهات الهيمنة الامبريالية الغربية على المنطقة، وعداءها للاحلاف التي ترأستها أمريكا كحلف بغداد ، فقد حاولت أمريكا بادىء الامر احتواءها عن طريق دعمها لمصر مقابل الطلب من عبد الناصر أن ينهي عداءه مع اسرائيل(١٦) .

ومثل الهجوم الثلاثي على مصر عبد الناصر في مطلع تشرين الثاني عام ١٩٥٦ قمة المحاولات الانجليزية والفرنسية والصهيونية لاجهاض الثورة الناصرية وتوجهاتهـا التحررية والوحدوية . وقد أشرنا فيما سبق لاطماع فرنسـا وبريطانيا . ولكن الدولة

الصهيونية وجدت نفسها عاجزة عن القيام بالدور الذي خلقت للقيام به ، فبادرت فرنسا وبريطانيا لدعمها . وقد عبرت الصهيونية عن موقفها هذا من خلال النداء الذي وجهته الى دول وشعوب أوروبا ، نشرته آنذاك وسائل اعلامهم وهو يقول : «أن تمسك عبد الناصر بمواقفه المتطرفة يهدد أمن الوطن القومي للشعب اليهودي ... ويجب على جميع أصدقاء اسرائيل التضامن معها »(١٧) .

وعلينا الاشارة هنا ، الى أن التوقيت الذي اختارته (اسرائيل) لهجومها على مصر بالتنسيق مع فرنسا وانجلترا ، جاء بعد نجاح القوى الوحدوية في الاردن في الانتخابات الديمقراطية ، اذ قامت (اسرائيل) في ١١ تشرين الاول بهجومها على الاراضي الاردنية وأقدمت ، في اليوم الذي هاجمت فيه مصر (٢٩ تشرين أول عام ١٩٥٦) على مجزرة كفر قاسم بعد أن كانت قد أعلنت التعبئة العسكرية العامة قبل ذلك بوقت قصير(١٨) .

ولكن المقاومة البطولية للشعب العربي في مصر بتضامن من جميع القوى الوطنية (باشكال متفاوتة) في المنطقة العربية وبدعم سوفياتي — امريكي استطاعت احتواء هذا الهجوم .

لقد باتت الفرصة مواتية الآن لامريكا لتقود القوى الطامعة بهذه البلاد في ٥ كانون الثاني من عام ١٩٥٧ ، عند طرح ايزنهاور مبدأه على الكونغرس طالبا منه « اعطاء المساعدات الاقتصادية والعسكرية الى جميع الاقطار التي ترغب في الاستفادة منها في تلك المنطقة على أن يفهم أن هذه المساعدات قد تشمل استخدام قوات أمريكية(١٩) .

وكان ايزنهاور يقصد من ذلك ابعاد الاتحاد السوفياتي عن المنطقة للاستفراد بها . وقد اعتبرت مصر وسوريا أن هذه السياسة الامريكية تهديد لهما ، فازدادتا قربا من الاتحاد السوفياتي وتذرعت واشنطن بذلك من أجل تبرير زيادة تقربها من (اسرائيل) وهكذا دخلت منطقتنا فيما يسمى بالحرب الباردة التي قادها الاتحاد السوفياتي وأمريكا ، كل ضد الآخر وحلفائه . ومن أبرز معالم ذلك : ارسال الاتحاد السوفياتي مزيدا من المعونة لمصر وسورية اللتين ازدادت معارضتهما لحلف بغداد . وعلى أثر ذلك قامت تركيا بعد تعبئة قواتها بمناورة على الحدود السورية . وفي ١٠ أيلول نددت موسكو بهذا الاستفزاز لسورية وهددت بالقيام بعمل عسكري ضد تركيا . فرد عليه دالاس في ١٩ أيلول قائلا : « ان تركيا تواجه الآن خطرا متزايدا بسبب نمو الاسلحة المضطرد في سورية »(٢٠) .

وفي عام ١٩٥٨ وصل الوضع مرة أخرى الى درجة الغليان حين قامت الثورة في العراق ضد النظام الموالي للغرب هناك واحد اعضاء حلف بغداد ، وتدخلت القوات الامريكية والبريطانية لدعم حكومتي الاردن ولبنان نتيجة للاضطرابات التي حدثت

فيهما ، مما أدى لتخوف سوريا والاتحاد السوفياتي ، الا ان هذه التطورات انتهت في نهاية شهر آب من ذلك العام حين صوتت الدول العربية و (اسرائيل) في الامم المتحدة بالاجماع على ابعاد الحرب الباردة عن المنطقة - وانسحبت القوات الاجنبية . وبذلك فسح المجال ابتداء من عام ١٩٥٩ للنزاع بين العرب و (اسرائيل) للظهور بعد عام ١٩٤٨(٢١) .

الفترة اللاحقة لعام ١٩٥٩ : تميزت هذه الفترة بالازدياد النوعي والكمي لقوة الدولة الصهيونية بالاضافة الى ازدياد الدعم السياسي والمادي الذي قدمته الدول الغربية لها . لقد ارادت اوروبا وامريكا من خلال سياستها عقب الحرب الباردة تحقيق عدد من الامور أهمها :

١ - ابعاد الاتحاد السوفياتي عن المنطقة ، فهي التي تتحمل مسؤولية دخوله اليها من خلال تدخلاتها العسكرية المستمرة (سواء في حرب السويس ١٩٥٦ ، أو خلال الحرب الباردة) .

٢ - خلق الدولة العميلة لها - التي تنفذ مصالحها ، ومن أجل عدم اثارة شعور العرب من التدخل العسكري الفظ كما كان سابقا ، ولكي لا تتضرر مصالحها في المنطقة ولتبقى مقبولة من العرب . أما الدولة الصهيونية فهي التيستحمي مصالحها الماثلة والمحتملة في المنطقة بقوة السلاح الغربي .

وهكذا نرى ان القوى الغربية ، وبخاصة امريكا قد اخذت العبر واستفادت منها في التوجه الجديد . وكانت علامات ذلك قد اتت من فيتنام بعد معركة ديان بيان فو ، ومن الجزائر خلال حرب الاستقلال ، ناهيك عن نتائج الهجوم الثلاثي على قناة السويس وما افرزته تدخلاتها العسكرية المباشرة من ايجاد موطىء قدم للاتحاد السوفياتي في المنطقة . ولكن المهمة الرئيسية في هذا المضمار والتي مارست امريكا دورا أساسيا في تحجيمها ، تتمثل في محاولاتها تفتيت أواصر العمل العربي المشترك والتضامن الذي برز الى الوجود خلال هذه الفترة من خلال : حرب ١٩٤٨ في فلسطين وموقف العرب سواءالذين يحسبون على صف امريكا ، أو الذين جعلتهم هذه السياسة اعداء لها في المنطقة بعد الهجوم الثلاثي على قناة السويس .

لقد اعتبر الشارع العربي من المحيط الى الخليج ان انتصار مصر على الهجوم الثلاثي عام ١٩٥٦ ، انتصارا لهم جميعا . وبدا لهم واضحا ان العمل المشترك والوحدة العربية هي المقومات الاساسية لانجاز طموحهم في الوحدة والاستقلال واعادة الحقوق المغتصبة لشعب فلسطين . ويؤكد لنا نشاط الفلسطينيين ذلك من خلال انضمامهم للعمل في الاحزاب السياسية العربية - وخاصة القومية منها - (القوميين العرب أو حزب البعث العربي الاشتراكي ، ودعم التيار الناصري) .

ولم تكن (لاسرائيل) ولا القوى الحليفة لها غافلة عن مثل هذه التطورات ، وخاصة بعد نجاح ثورة ١٩٥٨ في العراق وقيام الوحدة بين سوريا ومصر (الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨ ـ ١٩٦١) ، فبدأت تعمل على افشالها من الداخل وضربها من الخارج .

خلال هذه الفترة التاريخية من حياة منطقتنا بدأت الدولة الصهيونية تشكل بالفعل رأس الحربة في ضرب طموحات امتنا العربية بالقوة العسكرية . فكلما ازداد نجاح العمليات العسكرية الصهيونية ـ كان يرافقها احباط يتناسب وحجم النجاحات الصهيونية من جانب العرب . ويكفي ان أقول في هذا الصدد ان عدد العمليات العسكرية التي قامت بها (اسرائيل) منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ بلغ أكثر من ٣٨ عملية عسكرية اعتبرتها الامم المتحدة اعتداء صارخا على العرب وذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الضحايا العرب والفلسطينيين(٢٢) . هذا عدا سياستها تجاه العرب الخاضعين لسلطتها .

لقد توج الدور العسكري الصهيوني خلال حرب عام ١٩٦٧ ، حين هزم ثلاث دول عربية . ولم تقتصر نتائج هذه الهزيمة على الجانب المادي (تدمير القوة العسكرية الضاربة لكل من مصر وسوريا والاردن واحتلال اراضي عربية وبقية فلسطين) وانما تعدته الى هزيمة نفسية واحباط عكس نفسه على مجمل علاقات الدول العربية ببعضها وانتقلت من قضية اقليمية (بين العرب والصهاينة) لتأخذ ابعادا أخرى .

وعلى المستوى الدولي ، حاولت جميع أمم الارض التدخل في التغيرات التي طرأت على الارض بعد عام ١٩٦٧ ، واتفقت جميعها على قرارات مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ، و ٣٣٨ كأساس لحل النزاع وعلى أساس عدم جواز احتلال الارض بالقوة ومقايضة الارض بسلام . ولكن الحقيقة القائلة بأن خيار السلم يجب أن تحميه قوة السلاح لم تجد تجسيدا فعليا عند العرب وظل الوضع متوترا على جبهات القتال المختلفة .

وقد استطاعت الدولة الصهيونية ممتطية جوادها الحربي ، نقل الصراع بينها وبين العرب بمساعدة امريكا لها ، الى داخل المنطقة العربية ، ليس فقط من خلال ضربها العمق المصري مثلا أو الاغارة على المدن والقرى العربية في الاردن وسوريا ، بل من خلال مشاريع التسوية السياسية التي حملها الدبلوماسيون الامريكان في حقائبهم وطافوا بها المنطقة والتي ساعدت أيضا على تفريق الصفوف العربية بين موافق ومعارض . ومثال ذلك مشروع روجرز لعام ١٩٧٠(٢٣) وما نتج عن ذلك من مظاهرات واتهامات وتناحر بين الصفوف العربية .

وكانت حرب ١٩٧٣ اذ حقق العرب فيها انتصارا عسكريا محدودا أرادوا من

خلاله خدمة طموحاتهم السياسية المتمثلة باسترجاع حقوقهم المشروعة انطلاقا من قاعدة : « أن السلام يجب ان تحميه قوة السلاح » رغم أن السلام المنشود لا يحقق جميع حقوق عرب فلسطين .

لقد تنبه قادة الدولة الصهيونية الى جدية هذا الامر ، وبداوا بالتنسيق مع حلفائهم وخاصة الامريكان لبناء قوة الردع العسكري ــ غير متناسين في الوقت نفسه سلاح تفكيك الجبهة العربية عن طريق المناورات السياسية الى أن تحقق لهم ذلك باخراج مصر السادات من ساحة الصراع مع العدو عن طريق « سلام كامب ديفيد ».

وهكذا بدأت الدولة الصهيونية من جديد في عسكرة مجتمعاتها بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الامم ــ سوى ما جرى في العهد النازي ، وفي توجيه الصناعة (الاسرائيلية) نحو الانتاج الحربي . فحسب تقدير معهد الدراسات الاستراتيجية بتل أبيب عمل ٢٠٪ من (الاسرائيليين) في قطاع صناعة الاسلحة التي تشكل الان أكثر من خمس صادرات الدولة الصهيونية (٢٤) .

ويكفي في هذا الصدد ان نذكر بان باقي الانتاج الحربي يصرف في السوق المحلية ويضمن هذا الانتاج ٩٠٪ من حاجة (اسرائيل) للذخيرة والمتفجرات و ٥٠٪ من حاجة وزارة الدفاع من الالكترونيات (وتهدف الخطة الموضوعة حاليا الى زيادة ذلك ليصل الى ٧٠٪) . وقد اعلن موشيه ديان في أعقاب حرب عام ١٩٧٣ بان (اسرائيل) اشترت اسلحة بقيمة ٢٥ر٥ مليار ليرة (اسرائيلية) منها ٤٨٪ من الانتاج المحلي ويشمل ذلك الطائرات والصواريخ والدبابات(٢٥) .

وحسبنا ان نقول في هذا السياق ، أنه على الرغم من الازمة الاقتصادية الخانقة التي يعيشها الكيان الصهيوني في السنوات الاخيرة ، فان نتاج السلاح وبخاصة المتطور منه بدعم من امريكا لن يمس بسوء . ومثال ذلك طائرة « الليفي » التي تعمل (اسرائيل) بدعم امريكي على انتاجها ورغم المبالغ الضخمة التي تستهلكها في انتاجها في ظل الازمة الاقتصادية الحالية . ولم يمس من جراء ذلك على الاطلاق أي من الـ ٨٠٠ مصنع من مصانع السلاح (الاسرائيلي) اضافة الى الخطط الموضوعة لتطوير وتعديل الاسلحة الموجودة التي يربو عددها على ٧٠٧ عمليات تطوير وتعديل (٢٦) .

وهكذا نستطيع أن نقول ان اسرائيل مستعدة لتقليل عدد ارغفة الخبز ، ولكنها غير مستعدة لتقليل عدد الرصاصات لأي جندي صهيوني في جعبته ، على الرغم من (سلام كامب ديفيد) ، وعلى الرغم من تمزيق وحدة العرب الفعلية ، التي اسهمت القوة العسكرية الصهيونية ايضا في تمزيقها .

ويكفي ان نذكر هنا ان مشاريع السلام التي طرحت بعد عام ١٩٧٣ تميزت بأنها جاءت من قبل شخصيات سياسية قيادية من الصف الاول مثل : مشروع كارتر ،

مشروع ريفان ، مشروع مناحيم بيغن(٢٧) مرورا بمشروع السلام العربي الذي اجازه مؤتمر قمة فاس العربي .

وهكذا نرى ان الازدياد المضطرد للقوة العسكرية الصهيونية ، يأتي مترافقا وفاعلا مع طرح مشاريع السلام ـ بشكل أساسي من قبل امريكا واسرائيل ، كل ذلك من اجل تفتيت العرى الوحدوية للتضامن الذي حققه العرب من خلال حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، فقد جاءت البداية من خلال الحرب الاهلية في لبنان عام ١٩٧٥ وتوجت بزيارة السادات للقدس ، عندما خرجت من ساحة الصراع اقوى قوة عربية بعد اتفاقات كامب ديفيد ، وبقرار عربي اتخذته قمة بغداد .

وقد نشط الجيش الصهيوني بعد ذلك مستفردا بالقوى العربية الواحدة تلو الاخرى ، فبدأها بضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨٠(٢٨) بعد أن شاغلت قوى الاعداء عمق الجبهة الشرقية المتمثلة بالجيش العراقي وامكانات العراق الضخمة في حرب الاستنزاف التي ما زالت مستمرة ، ناهيك عن اسفراده بقوات الثورة الفلسطينية في هجومه على لبنان عام ١٩٨٢ . ان الضربة العسكرية التي اقدمت عليها (اسرائيل) لتدمير المفاعل النووي العراقي لم تكن مجرد عملية عسكرية عادية ، ولكن ابعادها تغوص في استراتيجية العمل الصهيوني بالتوافق مع اعداء هذه الامة ، والعاملة على تدمير أي توجه يراد به بناء القوة الذاتية لهذه الامة مهما كانت بعيدة عن ساحة التماس المباشر مع العدو .

وهكذا نرى مدى فاعلية التهديد الذي تشكله قوة العدو العسكرية في تمزيق امن الدول العربية منفردة أو أمن الامة العربية في طموحها القومي ، على الرغم من ان هذا التهديد الخارجي يجب ان يكون من أهم الحوافز لتحقيق وحدة هذه الامة ، وعلى الرغم من كونه ما زال ماثلا ويزداد خطره يوما بعد يوم .

* * *

(١) انظر : أنطونيوس ، جورج : يقظة العرب، بيروت ط٦ ١٩٨٠ ، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس .
أيضا : جراد ، عدنان : الحكم المصري في في سوريا ١٨٣١ — ١٨٤٠ ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٩ .

(٢) انظر : العباسي ، نظام : السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية في مواجهة الانتداب والحركة الصهيونية ، عمان ١٩٨٤ ص٥١—٥٧ .

(٣) انظر : الخولي ، حسن صبري : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٤ .

كان أحد البنود المقترحة على مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ ، بند يتعلق « بامكانية انشاء دولة يهودية في فلسطين لحماية الشرق العربي من خطر أي محاولة وحدوية جديدة تنبع من مصر ... » .

انظر : محمود ، أمين عبد الله : مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٧٤/شباط ١٩٨٤ ، ص ٦٥ — ٦٦ الكويت .

(٤) العباسي ، مصدر سابق صفحة ٣٣ — ٣٤ .

(٥) انظر : نوفل ، أحمد سعيد ، العلاقات الفرنسية العربية من خلال موقف فرنسا من القضية الفلسطينية ، الكويت ١٩٨٤ ص٢٨ .

(٦) انظر الموسى ، سليمان : امارة شرق الاردن ١٩٢١ — ١٩٤٦ ، عمان ١٩٩٠ ، ص٢٧ .

(٧) حول المراسلات ، انظر : الموسى ، سليمان: المراسلات التاريخية ، عمان ١٩٧٣ ط ١ .

(٨) Al - Abbasi, Nazam : Die Palastinensische Freiheitsbewegung im Spiegel, ihrer Presse 1928 - 1945 , Bamberg 1981 , S. 9 .

(٩) انظر : Al - Abbasi, Ebd

(١٠) انظر : باون كولن وموني بيتر : من الحرب الباردة حتى الوفاق ، ص ٣٢٢ — ٢٢٣ ترجمة صادق عودة عمان ١٩٨٤ .

(١١) حول الدعم البريطاني لليهود انظر مثلا : خلة ، كامل محمود : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ — ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١١٥ ، ص ١٢١ ، ص ١٢٢ .
الكيالي ، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ط ٨ ، ١٩٨١ ، ص٣٠ ، ص ٣٢٦ ، الروسان ، ممدوح : فلسطين والصهيونية ، عمان ١٩٨٣ ، ص ١٤٤ .
الجندي ، ابراهيم رضوان : سياسة الانتداب البريطاني الاقتصادية في فلسطين ١٩٢٣ — ١٩٣٩ ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥ .

(١٢) زيادة على ذلك انظر ، العباسي ، نظام : العلاقات الصهيونية النازية وأثرها على فلسطين وحركة التحرر العربي ، الكويت ١٩٨٤ .

(١٣) المصدر السابق ص ٤٨ — ٥٠ .

(١٤) انظر مثلا : الروسان ، مصدر سابق .

(١٥) انظر النتشة رفيق شاكر : الاستعمار وفلسطين عمان ١٩٨٤ ، ص ٢٢٧ — ٢٧٦ .
Mojcher , Helmut : Die Poltik und das öL im Naben, Osten Stuttgart 1980, S. 211 - 215

(١٦) باون وكولن ، مصدر سابق ص ٢٢٠ — ٢٢٨ .

(١٧) انظر :
Frankfurter - Heft , 2. Teil . Unter Den Titel : Apell Zur Solidarität mit Israel , S. 337 .

(١٨) انظر :
Schutler , H. w : Deplomatie der Versöhnung, Stuttgart 1966, S. 337 - 338 .
Haikal, M. H: Das Kairo - Dossier, Wien 1972, S. 110-112

(١٩) باون وكولن ، مصدر سابق ص ٢٢٢ .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) المصدر السابق ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢٢) انظر في هذا الصدد الدراسة التي أعدها ربيع أبو عبيدة لصحيفة صوت الشعب الاردنية ونشرت على حلقتين تحت عنوان : « وقائع من الارهاب الصهيوني من عام ١٩٣٧ – ١٩٨٠ العدد ٤ كانون الاول ، ٥ كانون الاول ١٩٨٤.

(٢٣) زيادة حول مشاريع السلام انظر :
ياسين ، عبد القادر : المبادرات السلمية لتسوية الصراع العربي الاسرائيلي ١٩٤٧ – ١٩٨٢ ، شؤون عربية عدد ٣٣/٣٤ لعام ١٩٨٣ ص ٢٧٦ – ٢٨٣ .

(٢٤) انظر صحيفة القبس الكويتية بتاريخ ١٩٨٤/٤/٨ .

(٢٥) أبو النملو حسين : الصناعة الاسرائيلية ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٣٠ – ٣٤ .

(٢٦) انظر المصدر السابق ص ١٧١ .

(٢٧) انظر : شوفاني ، الياس : مشاريع التسوية الاسرائيلية ، بيروت ١٩٧٨ ص ٣٠ – ٣٤ .

(٢٨) زيادة على ذلك انظر :
يعيى محمد زكي : الاختيارات المتاحة أمام الدول العربية لمقابلة التهديد النووي الاسرائيلي في ضوء تدمير المفاعل العراقي (شؤون عربية عدد ٣٥ / كانون الثاني ١٩٨٤) ص ١٣٢ – ١٤٦ .

* * *